مواقف الصالحين

للبنات والبنين

مواقف تربوية نافعة لغرس الفضائل
والأخلاق الحميدة في نفوس الناشئة

التوبة . بر الوالدين . الحياء . العفاف . الحلم . الجهاد . العلم . الدعوة . العدل . الأخوة . الكرم

تأليف
إبراهيم محمود

دار الدعوة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع القانونى: ٢٢٣٨٥/ ٢٠٠٥	
الترقيم الدولى: 977-253-81-2	

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى، وبعد:

فإن الشباب بحاجة إلى ما يروى ظمأه الروحى، ويخرجه من الفوضى الفكرية، وهاتان قضيتان هما أهم قضيتين على الإطلاق فى عصرنا، وهاتان القضيتان تحتاجان إلى ذكر يومى وإلى علم صحيح، وإلى انتماء لأهل الحق، وإلى اجتماع مع أهل الحق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. وقد استهدف هذا الكتاب الجانب الأول من هذه القضية، الجانب «الروحى العملى»، مع حرصنا على ذكر نماذج صادقة، صالحة للاقتداء بها.

دعتنى دواعى حبهم نحو ذكرهم ... بجمع كتاب فيه لب لباب
به من حكايات الملاح ملاحها ... وعالى مقامات زهت بقباب
قباب من الأنوار فى ذروة العلى ... زهت فى سماء المجد مثل شهاب
حكاياتهم يحيى القلوب سماعها ... ويروى ظمأ الصادى بعذب شراب

وهذا منى للوصول إلى قلوب الشباب وعقولهم، للارتقاء بهم من درن السقوط والضياع، ومهاوى الانحراف. إلى تقويم السلوك، وغرس الشعور الفياض بالإيمان، وطهارة النفس، والدفع بهم إلى الحياة الإيجابية بهمة وعزيمة.

والله أسأل أن يتقبل منا أعمالنا.. وأن يثقل بها موازين حسناتنا، وأن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه: إبراهيم محمود عبد الراضى

عضو الجمعية العلمية للمخطوطات والتراث

تمهيد

ثمرات مجالسة الصالحين

لنـا جلسـاء مـا نمل حـديثـهم ... ألبـاء مـأمـونون غـيبًا ومـشـهـدًا
يفـيدوننـا من علمهم علـم ما مضى ... وعـقـلاً وتأديبًـا ورأيًا مـسـددًا
بلا فـتـنة تخـشى ولا سـوء عـشـرة ... ولا نتـقى منهم لسـانًا ولا يدًا
فـإن قلت أمـوات فـمـا أنت كـاذبًا ... وإن قلت أحـيـاء فلست مـفندًا

***

ثمرات مجالسة الصالحين

قال عليه الصلاة والسلام: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة**»(١) قال الإمام النووى -رحمه الله- فى الكلام على هذا الحديث: «فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير، والمروءة، ومكارم الأخلاق، والورع والعلم والأدب، والنهى عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع، ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»(٢).

وقال الحافظ -رحمه الله-: «وفى الحديث النهى عن مجالسة من يتأذى بمجالسته فى الدين والدنيا، والترغيب فى مجالسة من ينتفع بمجالسته فيهما»(٣).

وقال السعدى -رحمه الله-: «مثل النبى ﷺ بهذين المثالين مبينًا أن الجليس الصالح جميع أحوالك معه وأنت فى مغنم وخير، كحامل المسك الذى تنتفع بما معه من المسك، إما بهبة أو بعوض. وأقل ذلك مدة جلوسك معه وأنت قرير النفس برائحة المسك، فالخير الذى يُصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلّمك ما ينفعك فى دينك ودنياك، أو يهدى لك نصيحة، أو يحذّرك من الإقامة على ما يضرك، فيحثك على طاعة الله وبر الوالدين وصلة الأرحام، ويبصرك بعيون نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، بقوله وفعله وحاله، فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضًا إلى الخير أو إلى ضده، وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح -وهى فائدة لا يستهان بها -أن تنكف

(١) صحيح: رواه البخارى (٤/ ٣٢٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦).
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٧٨). (٣) فتح البارى (٤/ ٣٢٤).

بسببه عن السيئات والمعاصى، رعاية للصحبة، ومنافسة فى الخير، وترفعًا عن الشر، وأن يحفظك فى حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه فى حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك ومحبته لك. وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم.. إلى آخر ما قال -رحمه الله تعالى-»[(١)].

والخير الحاصل والثمار التى تُقطف من مجالسة أهل الخير ومصاحبة الجليس الصالح كثيرة، يصعب إحصاؤها، وتتعذر الإحاطة بها، وهاك بعضها:

١- فمنها أن مجالس الصالحين تشمله بركة مجالسهم، ويعمه الخير الحاصل لهم: وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغهم. كما دلّ على ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم -عز وجل وهو أعلم بهم: ما يقول عبادى؟ قال: تقول: يعنى الملائكة يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك» . فذكر الحديث بطوله، وفى آخره: «قال: فيقول الله: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم، قال: فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة». وفى لفظ: «فيهم فلان عبد خطاء إنما مرّ فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[(٢)].

قال أبو الفضيل الجوهرى -رحمه الله-: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله، ويعنى بالكلب كلب أهل الكهف المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار.

(٢) رواه البخارى (١١/ ٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٠).

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسيره بعد إيراده لكلام الجوهري: قلت: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله بذلك في كتابه -جل وعلا-، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين»[1]. وقال الراغب الأصبهاني -رحمه الله-: قال بعض الحكماء: من جالس خيرًا أصابته بركته، فجليس أولياء الله لا يشقى، وإن كان كلبًا ككلب أصحاب الكهف[2].

٢- ومنها أن المرء مجبول على الاقتداء بجليسه والتأثر بعلمه وعمله وسلوكه ومنهجه، فمجالس أهل الخير يتأثر بهم. ومن المتقرر عند علماء التربية أن التأثير عن طريق القدوة أبلغ من التأثير بالمقال والنصح، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل»[3].

فبين أن المرء مُشاكل ومماثل لخليله وجليسه في الاستقامة والصلاح وعدمهما، ولذا قال مرغبًا في اختيار الجليس: «فلينظر أحدكم من يُخالل» أي ليتبين من خليله وليختر الخليل والصاحب المرضي في دينه وخلقه. قال الخطابي -رحمه الله-: قوله: «المرء على دين خليله». معناه: «لا تُخالل إلا من رضيت دينه وأمانته، فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه، فلا تُغرر بدينك، ولا تُخاطر بنفسك، فتخالل من ليس مرضيًا في دينه ومذهبه»[4] وقال سفيان بن عيينة -رحمه الله-: «انظروا إلى فرعون معه هامان! انظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي مسلم شرّ منه، انظروا إلى سليمان بن عبد الملك صحبه رجاء بن حيوة فقوَّمه وسدّده»[5] وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب»[6].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٧٢).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص/ ١٩٢).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٥/ ١٦٨)، والترمذي (٤/ ٥٨٩)، وأحمد (٢/ ٣٠٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (رقم ٩٢٧).

(٤) العزلة (ص/ ١٤١) للخطابي.

(٥) العزلة (ص/ ١٤١). للخطابي.

(٦) أدب الدنيا والدين (ص/ ١٦٧). للماوردي.

وقال ابن مسعـود أيضًا: اعتبروا الناس بأخدانهم- أى أصـدقائهم- فإن الرجل يخادن من يعجبه نحوه»[1].

وقال مالك -رحـمه الله-: «الناس أشكال كأشكال الطير، الحمـام مع الحمام، والغـراب مع الغـراب، والبط مع البط، والصَّـعو مـع الصَّعـو، وكل إنسـان مع شكله»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيـمية -رحمه الله-: «الناس كأسـراب القطا مجبولون على تشـبـه بعضـهم ببـعض»[3]. وقـال بعض الحكماء: «اعـرف أخـاك بأخيـه قبلك»[4]. يعنى أنه سـيكون على مذهـب ومسلك أخيه الذى جـالسه قـبل أن يجالسك. وقال ابن حبان -رحمه الله-: «إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء من تقلبه وسكونه هو الاعتـبار بمن يُحادثه ويودّه، لأن المرء على دين خليله، وطير السماء على أشكالها تقع»[5]. وقال عدى بن زيد -رحمه الله-:

عن المرء لا تسأل وسـل عن قرينه   فكل قـرين بالمقـارن يقـتـدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى[6]

وقال عليه الـصلاة والسلام: «**الأرواح جنود مـجندة فما تعـارف منها ائتـلف وما تناكر منهـا اختلف**»[7]. قال الخطابى -رحـمه الله-: «يقول ﷺ إن الأجـساد التى فيهـا الأرواح تلتقى فى الدنيا، فتـأتلف وتختلف على حسب ما جُـعلت عليه من التشاكل أو التنافر فى بدء الخلقـة، ولذلك ترى البر الخيِّر يحب شكله، ويحنّ إلى تربه، وينفـر عن ضده، وكـذلك الرَّهق الفـاجر يألف شكلـه،ويستـحسن فـعله وينحرف عن ضده[8]، وقال ابن الجوزى -رحـمه الله-: «يستفـاد من الحديث أن

(1) الإخوان لابن أبى الدنيا (ص/ ١٢٠).
(2) روضة العقلاء لابن حبان (ص/ ١٠٩).
(3) الفتاوى (٢٨/ ١٥٠).
(4) أدب الدنيا (ص/ ١٦٧).
(5) روضة العقلاء (ص/ ١٠٨).
(6) أدب الدنيا (ص/ ١٦٧).
(7) صحيح: رواه مسلم (٤/ ٢٠٣٠).
(8) معالم السنن (٧/ ١٨٧).

الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة عن ذى فضل وصلاح فينبغى أن يبحث عن المقتضى لذلك ليسعى فى إزالته فيتخلص من الوصف المذموم وكذا عكسه[1].

٣- ومنها أن جليسك الصالح يبصرك بعيوبك ويدلك على أوجه الضعف عندك، وجهات النقص لديك، ومواطن العلل فى نفسك وخلقك، فتنطلق نحو العلاج وإصلاح الخلل وإزالة العيوب. ولذلك نجد النبى ﷺ شبه المؤمن فى كونه مبصرًا لأخيه بعيوبه، بالمرآة التى يرى فيها الإنسان عيوبه الظاهرة، فقال عليه الصلاة والسلام: **«المؤمن مرآة المؤمن»**[2] فالمؤمن مرآة لأخيه، يرى من خلالها عيوبه السلوكية والمعنوية، وذلك أن أخاه يُريه أشياء قد لا يطلع عليها ولا يدركها بنفسه، كما أن المرآة تطلعه على عيوب ظاهرة لا يراها إلا من خلالها. وتبادل العيوب بين أهل الخير مسلك متبع مشهور. قال الحسن -رحمه الله-: «المؤمن مرآة أخيه، إن رأى فيه ما لا يُعجبه سدده وقوّمه، وحاطه وحفظه فى السر والعلانية»[3].

٤- أن جلساءك من أهل الخير يصلونك بأشخاص آخرين، فتنتفع بهم، كما انتفعت بهؤلاء. فكم من شخص تعرّف على واحد من أهل الخير، فما لبث أن تعرّف على أفواج من الصالحين من خلال ذلك الشخص فازداد بذلك خيرًا.

٥- أنك تتعرف على أخطائك السلوكية، وفى أمور العبادة من خلال مقارنة أعمالك وسلوكك بما عليه جليسك الصالح من هذه الأمور، الذى لديه علم وإلمام بها، فتصلح تلك الأخطاء.

٦- أنك تنكف بسبب جليسك الصالح عن المعصية، فإنك إذا جلست معه استدعى ذلك التأدب بمجلسه وتخليت عن المعصية مراعاة لحرمته وتقديرًا لمكانته

(١) دليل الفالحين (٢/ ٢٣٧).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٥/ ٢١٧)، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٩٢٦).

(٣) الإخوان (ص/ ١٣١) لابن أبى الدنيا.

ومنزلته، فيكون ذلك الانكفاف والترك الوقتى سببًا فى الابتعاد الدائم عن هذه المحرمات.

٧- أنه يُرشدك ويدلك على أمور من أمور الخير ينفعك العلم بها، فيدلك -مثلاً- على أمور واجبة كنت غافلاً عنها أو متكاسلاً عن أدائها، ويرشدك إلى كثير من النوافل والتطوعات التى تزداد بها خيرًا، ويُنبهك على أشياء محرمة كنت واقعًا فيها ويحذرك منها، ويشجعك على مشروعات متعددة من مشروعات الخير والبر.

٨- أنك تنظر إلى علو مكانته فى العلم والعبادة والدعوة والسلوك، وسبقه لك فى مجالات كثيرة من مجالات الخير، فيكون ذلك مصلحة ومنفعة لك من وجهين:

الوجه الأول: زوال ما قد يوجد لديك من العجب بالنفس والعمل حينما ترى من هو خير منك، والعجب من الأمور التى خافها النبى ﷺ على أمته، وعدّه أشد من الذنب، حيث قال ﷺ: «لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أشد من ذلك: العُجب العُجب»(١).

والوجه الثانى: أن ذلك يكون سببًا فى منافستك له فى هذه الأوصاف والأعمال، فتزداد حرصًا على تحصيل العلم، والقيام بالعبادة، وتحسين السلوك، وغير ذلك. ولهذا قال عثمان بن حكيم -رحمه الله-: «اصحب من هو فوقك فى الدين ودونك فى الدنيا»(٢).

٩- أن فى مجالستهم حفظًا للوقت الذى هو الحياة، وهو الوعاء لكل الأعمال.

١٠- أن جليسك يحفظك فى حضرتك ومغيبك، فلا يُفشى لك سرًا ولا ينتهك لك حرمة، ويدافع عنك فى مواطن تحتاج فيها إلى من يدافع عنك.

---

(١) حسن: رواه البزار (٤/ ٢٤٤)، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٦٥٨).

(٢) الإخوان (ص/ ١٢٥).

١١- أن المرء بمجرد رؤيته للصالحين والأخيار يذكر الله تعالى، وقد دل على ذلك الواقع والشرع قال ﷺ: «أولياء الله تعالى الذين إذا رؤوا ذُكر الله تعالى»[١] وقال فى حديث آخر: «ألا أنبئكم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «خياركم الذين إذا رؤوا ذُكر الله عز وجل»[٢]. فأثبت عليه الصلاة والسلام فى هذين الحديثين أن للأولياء والأخيار تأثيرًا على من رآهم، وأن من يراهم يتذكر الله عز وجل بمجرد هذه الرؤية. ولعل سبب ذلك ما يجده فيهم من الهدى والسمت والهيبة، ونور الإيمان وحسن السيرة. فإذا كان هذا يحصل لمن رآهم فكيف بمن يجالسهم ويخالطهم. ولهذا قال موسى بنى عقبة -رحمه الله-: «إن كنت لألقى الأخ من إخوانى فأكون بلقيه عاقلاً أيامًا»[٣]. وقال سفيان -رحمه الله-: لربما لقيت الأخ من إخوانى فأقيم شهرًا عاقلاً بلقائه»[٤]. وقال أبو سليمان -رحمه الله-: «كنت أنظر إلى أخ من إخوانى بالعراق فأعمل على رؤيته شهرًا»[٥].

١٢- أنهم زين وأنس لك فى الرخاء وعدة فى البلاء، وهم خير معين لك على تخفيف همومك وحلّ مشكلاتك، فتستنير بآرائهم ومشورتهم، لا سيما إذا ألّمت بك الخطوب، وضاقت بك الدروب، وأعيتك المسالك.

خرج ابن مسعود -رضى الله عنه- مرة على أصحابه فقال: «أنتم جلاء حزنى»[٦].

وقال أكثم بن صيفى -رحمه الله-: «لقاء الأحبة مسلاة للهم»[٧].

وقال عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-: «عليك بإخوان الصدق، فعش فى أكنافهم، فإنهم زين فى الرخاء، وعدة فى البلاء»[٨]. وقال على بن أبى طالب:

(١) حسنه الألبانى فى صحيح الجامع (رقم/ ٢٥٥٧).
(٢) حسن: رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٩)، وحسنه البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٧٣).
(٣) روضة العقلاء (ص/ ٩٢).
(٤) روضة العقلاء (ص/ ٩٣).
(٥) روضة العقلاء (ص/ ٩٢).
(٦) روضة العقلاء (ص/ ٩٢).
(٧) الإخوان (ص/ ١٥٥).
(٨) المتحابين فى الله (ص/ ٣١).

«عليكم بإخوان الصدق، فعش فى أكنافهم، فإنهم زين فى الرخاء، وعدة فى البلاء»[1]. وقال على بن أبى طالب: «عليكم بالإخوان فإنهم عدة فى الدنيا والآخرة»[2]. وقال رجل لداود الطائى -رحمه الله-: أوصنى؟ قال: اصحب أهل التقوى، فإنهم أيسر أهل الدنيا عليك مؤونة، وأكثرهم لك معونة»[3]. وقال شبيب بن شبة -رحمه الله- «إخوان الصدق خير مكاسب الدنيا، وهم زينة فى الرخاء، وعدة فى البلاء، ومعونة على حسن المعاشرة». وقال بعض الحكماء: «اصطفى من الإخوان ذا الدين والحسب والرأى والأدب، فإنه رده لك عند حاجتك، ويد عند نائبتك، وأنس عند وحشتك، وزين عند عافيتك»[4]. وقال عبد العزيز الأبرش -رحمه الله-:

استكثرن من الإخوان إنهم ... خير لكانزهم من الذهب

كم من أخ لو نابتك نائبة ... وجدته خيرًا من أخى النسب[5]

وقال مهدى بن سابق -رحمه الله-:

تكثر من الإخوان ما استطعت فإنهم ... عماد إذا استنجدتهم وظهور[6]

١٣- أن أُخوتك ومصاحبتك لأهل الخير سبب فى دخولك ضمن الذين لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون، وكذلك هو ضمان لاستمرار الصحبة وعدم انقطاعها، كما قال -تعالى-: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧، ٦٨].

١٤- أنك تنتفع بدعائهم لك بظهر الغيب فى حياتك وبعد مماتك، فإن من عادة أهل الخير دعاء بعضهم لبعض، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «دعوة المرء

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٠).
(٢) الإخوان (ص/ ١٢٤).
(٣) المتحابين فى الله (ص/ ٣٠).
(٤) أدب الدنيا والدين (ص/ ١٦٨).
(٥) (٦) روضة العقلاء (ص/ ٩٣، ٩٤).

المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»(١).

قال عبيد الله بن الحسن -رحمه الله- لرجل: «استكثر من الصديق -يعني الصالح-، فإن أيسر ما تصيب أن يبلغه موتك فيدعو لك»(٢) ومن طريف ما يُروى ما ذكره الخطيب البغدادي -رحمه الله- في تاريخه في ترجمة الطيب بن إسماعيل -رحمه الله-، وهو أحد القراء المشهورين- من أنه كان له صحيفة مكتوب فيها ثلاثمائة من أصدقائه، وكان يدعو لهم كل ليلة، فتركهم ليلة فنام، فقيل له في نومه: يا أبا حمدون -وهي كنيته- لم تسرج مصابيحك الليلة!! فقعد فأسرج، وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتى فرغ»(٣).

١٥- أن مجالس أهل الخير يهابها شياطين الجن والإنس، فمجالستهم حصن حصين من وساوس الشياطين وأذاهم، بخلاف مجالس الأشرار فإنها مقرّ هذه الشياطين، وكذلك إذا كان المرء معتزلاً فإنه عُرضة للوساوس الرديئة والأفكار المنحرفة التي يُلقيها الشيطان. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: **«عليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»**(٤).

١٦- أن المجالسة والمصادقة والزيارة في الله سبب لمحبة الله تعالى، كما في الحديث القدسي، قال رسول الله ﷺ: **قال الله تبارك وتعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»**(٥). ورواه أحمد -رحمه الله- من حديث عمرو بن عبسة -رضي الله عنه- بلفظ: **«قد حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وقد حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وقد حقت**

(١) صحيح: رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٤).

(٢) الإخوان (ص/ ١١٣).

(٣) تاريخ بغداد (٩/ ٣٦١).

(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (١/ ٣٧)، والنسائي (٢/ ١٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/ ١٨٤).

(٥) صحيح: رواه مالك (٢/ ٩٥٣) وصححه النووي والمنذري والألباني.

محبتي للذين يتباذلون من أجلي وقد حقت محبتي للذين يتصادقون من أجلي»[1] وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله -عز وجل-، قال «فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[2].

١٧- أن مجالس الصالحين ذكر لله عز وجل، وقد قال ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله -عز وجل- إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[3]. وقال عليه الصلاة والسلام أيضًا: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ولا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بُدلت سيئاتكم حسنات»[4].

١٨- أن المرء بزيارته لإخوانه في الله يطيب بنفسه، ويطيب ممشاه، ويتبوأ منازل عظيمة في الجنة. كما قال ﷺ: «من عاد مريضًا أوزار أخًا له في الله، ناداه مناد: أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»[5].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد أتى أخاه يزوره في الله إلا ناداه مناد من السماء: أن طبت وطابت لك الجنة، وإلا قال الله في ملكوت عرشه: عبدي زار فيّ وعليّ قراه -يعني ضيافته- فلم يرض له بثواب دون الجنة»[6]. وعن أنس -أيضًا- أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم برجالكم في الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله فقال: «النبي في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلا لله في الجنة»[7].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه المنذري والدمياطي.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤/ ١٩٨٨). (٣) صحيح: رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤).

(٥) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٤٢) وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢١٠).

(٥) حسن: رواه الترمذي (٤/ ٣٦٥)، وحسنه الألباني.

(٦) صحيح: رواه البزار (٢/ ٣٨٨)، وأبو يعلى (٧/ ١٦٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٧٣): «رواه البزار وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان وهو ثقة».

(٧) حسن: رواه الطبراني في الصغير (١/ ٤٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٠٤).

١٩- وبالجملة فالجليس الصالح منفعة لك من كل وجه فى دينك ودنياك كما قال ﷺ: «مثل المؤمن مثل النخلة ما أخذت منها من شىء نفعك»(١).

٢٠- ومن ثمرات مجالسة الصالحين أنها تؤدى إلى محبتهم فى الله، فكما أن المحبة تثمر المجالسة فكذلك المجالسة تثمر المحبة. والحب فى الله له ثمرات عظيمة وآثار جليلة على النفوس، وقد رتب الله عليه الأجور العظيمة والثواب الجزيل(٢).

***

(١) صحيح: رواه الطبرانى [٣/ ٢٠٤/ ١]، وصححه الألبانى فى الصحيحة [٢٢٨٥].

(٢) من تجالس (ص/ ١٧) بتصرف.

• العلم •

مواقف الصالحين

- لم يكن عند أمي ما أشتري به الأوراق
- لا يستطاع العلم براحة الجسد
- زد من الضرب وزد من الحديث
- لا تدعو باللحم المشئوم
- رائحة الولد
- قد جعلت لك الليل وحدك
- الأجر رحمكم الله
- كدت أصافح الموت
- من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة
- فقيه خراسان يرعى الجمال
- ما أضحكك؟
- لا أكتمك أمري

العلم

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، لأن شرفه ينم على صاحبه، وفضله ينمى على طالبه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. فمنح سبحانه المساواة بين العالم والجاهل، كما قد خص به العالم من فضيلة العلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرًا، أو يفهم منه زجرًا.

قال مصعب بن الزبير لابنه: تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالا، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً. وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بنى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطًا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم. وقال بعض الحكماء: العلم شرف من لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه. وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف. وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنه يقومك ويسددك صغيرًا، ويقدمك ويسودك كبيرًا، ويصلح زيفك -يعنى الرداءة- وفاسدك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوم عوجك وميلك، ويصحح همتك وأملك، وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل، لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم. وهذا أبلغ فى فضله، لأن فضله لا يُعلم إلا به. فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله، واسترذلوا أهله، وتوهموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة، والطرف المشتهاة، أولى أن يكون إقبالهم عليها، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها. وقد قال ابن المعتز: العالم يعرف الجاهل، لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم، لأنه لم يكن عالمًا.

وهذا صحيح، ولأجله انصرفـوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين، وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعـاندين، لأن من جهل شيئًا عـاداه. قال ابن لنكك أنشدني ابن دريد:

جـهلت فـعـاديت العلوم وأهلهـا ... كذاك يعـادى العلم من هو جاهله

ومن كان يهـوى أن يرى متـصدرًا ... ويكره لا أدرى أصـيـبت مـقـاتله

وقيل لبزرجـمهر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم. قـيل: فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل العلم.

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى: تصـدقوا علينا بما لا يتعب ضرسًا، ولا يسقم نفـسًا. فأخرج له طعـامًا ونفقة. فـقال: فاقتى إلى كـلامكم، أشد من فاقتى إلى طعامكم، إنى طالب هدى لا سائل ندى. فأذن له العالم وأفاده من كل ما سأل عنه فخرج جذلاً فرحًا، وهو يقول: علم أوضح لبسًا، خير من مال أغنى نفسًا.

فضل العلم والعلماء:

من الأدلة على فضـل العلم أن الله عز وجل أمر نبـيه ﷺ أن يسـأله مزيدًا من العلم وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وكفى بهذا شرفًا للعلم أن أمر الله نبيه أن يسأله المزيد منه.

ومن الأدلة كذلك على فـضل العلم: أن الله عز وجل أخبر عن رفـعه درجات لأهل العلم والإيمان فـقال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ومن الأدلة كذلك على فضل العلم وأهله أن الله عز وجل أخبر أن أهل العلم هم أهل خشيته، بل خصهم من بين العباد بذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. قال ابن مسعود رضى الله عنه: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار جهلاً، والعلم خشية الله عز وجل والعالم من يخشى الله. قيل للشعبى: يا عالم قال: إنما العالم من يخشى الله.

ومن الأدلة كذلك على فضل العلم وشرفه أن الله عز وجل شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيرًا كثيرًا فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة إصابة الحق والعمل به، وهى العلم النافع والعمل الصالح.

ومن الأدلة كذلك على شرف العلم والعلماء ما ورد فى الصحيحين من حديث معاوية رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين**»(١).

ومن الأدلة كذلك قوله ﷺ: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم**»(٢).

ومن الأدلة كذلك ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**»(٣).

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن**

(١) صحيح: رواه البخارى (١/ ١٦٤)، ومسلم (١٣/ ٦٧)، والترمذى (١٠/ ١١٤).

(٢) حسن: رواه أبو داود (١٠/ ٧٢)، والترمذى (١٠/ ١٥٤)، وابن ماجه (٢٢٣)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١/ ٣٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧/ ١٢).

العلماء ورثة الإنسان وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا، فبلغهُ كما سمعه فرب مُبلَّغ أوعى من سامع»[2].

حاجة الناس إلى العلم:

تشتد الحاجة إلى العلم فى هذا الزمان لعدة أسباب منها:

١- انتشار الأفكار الضالة التى تريد النيل من دين الإسلام وتقويض بنيانه تحت شعارات براقة، ظاهرها الرحمة وفى باطنها العذاب.

٢- ظهور رؤوس الضلال فى المجتمعات الإسلامية تتحدث باسم الإسلام والحرص عليه، وفى نفس الوقت تطعن فى أحكامه، وتشكك فى صلاحية تشريعه!

٣- ظهور الجهل بالإسلام بصورة لم يسبق لها مثيل.. مما أدى إلى ظهور جيل مزعزع الثقة فى إسلامه، واهن الصلة بأحكامه! وأسباب هذا الضعف يرجع إلى عدة أمور:

الأول: غياب تأثير المسجد: فالمسجد الآن غاب دوره الذى بُنى من أجله، واقتصر على الأذان وصلاة الجمعة والجماعة: وغابت عنه حلَقُ العلم، وحلقات تحفيظ القرآن، ومجالس الفقه! فأنبت هذا التقصير جيلاً هزيلاً، لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من المصحف إلا رسمه.

الثانى: تقصير العلماء، مما أدى إلى ظهور المعاصى وانتشار البدع، وسيطرة الأهواء.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذى (٢٦٨٢)، وابن ماجه (١/٨١)، وصححه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجه (١/٤٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/٤٣٧)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذى (٢٦٥٧)، وابن ماجه (١/٨٤). وصححه العلامة أحمد شاكر فى تحقيق المسند (٦/٩٦).

الثالث: الانهماك فى الدنيا، وهذا ما كان يخشاه النبى ﷺ.. ففى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

أهمية طلب العلم فى الصغر:

الأطفال هم المستقبل: وهذا الشعار حقيقة لا مجاز، واقع لا خيال، فمن ثم ينبغى أن يُصرف الهمُّ الأكبر إلى تهيئتهم ليكونوا مؤتمنين على مستقبل أمة الإسلام، وينبغى أن نتخلى عن نظرتنا إلى هؤلاء البراعم على أنهم لُعبة ملهية نتسلى بها، وننسى أن تربية الأطفال تبدأ مبكرًا جدًا، وما أحسن ما قال بعضهم:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا ... على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن ... يعوده التدين أقربوه

ورحم الله من قال:

قد ينفع الأدب الأولاد فى صغر ... وليس ينفعهم من بعده أدب
إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت ... ولا يلين ولو لينته الخشب

وقال ابن خلدون: التعليم فى الصغر أشد رسوخًا، وهو أصل لما بعده. ويتأكد الاهتمام بهذه التربية فى زماننا الذى تتناوش فيها أطفالنا وأبناءنا فتن من كل صوب، يذكى لهيبها دعاة على أبواب جهنم، من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، همهم كل همهم أن يخرجوا من أصلابنا أجيالاً من الملاحدة الذين يرضون بالعالمانية ربًا، ودينًا، ومنهاج حياة، فإن لم يتدارك الآباء أبناءهم بالتربية الإسلامية القويمة؛ افترستهم العالمانية الملحدة، وضمتهم إلى صفوفها ليحاربوا الله ورسوله والمؤمنين كما هو مشاهد فى البلدان التى سبقت إلى اعتناق هذا الدين «اللادينى» المخرب.

لقد اشتد حرص السلف على مباشرة هذه المهمة الجسيمة، حتى أن المنصور بعث إلى من فى الحبس من بنى أمية، يقول لهم: «ما أشد ما مرّ بكم فى هذا المحبس؟»، فقالوا: «ما فقدنا من تربية أولادنا». واشتد نكيرهم على من يصرف همه إلى الكبار فقط، ويهمل الصغار، وما ذاك إلا لأن الأمة محتاجة إليهم، وهم الأعمدة التى تبنى لتحمل ثقل البناء فيما بعد:

قال عمرو بن العاص لحلقة قد جلسوا إلى جانب الكعبة، فلما قضى طوافه. جلس إليهم وقد نحوا الفتيان عن مجلسهم، فقال: «لا تفعلوا! أوسعوا لهم، وأدنوهم، وألهموهم، فإنهم اليوم صغار قوم يوشك أن يكونوا كبار قوم آخرين، قد كنا صغار قوم أصبحنا كبار آخرين». وقد علق الإمام ابن مفلح رحمه الله على هذه العبارة قائلاً: «وهذا صحيح لا شك فيه، والعلم فى الصغر أثبت، فينبغى الاعتناء بصغار الطلبة لا سيما الأذكياء المتيقظين الحريصين على أخذ العلم، فلا ينبغى أن يجعل على ذلك صغرهم أو فقرهم وضعفهم مانعًا من مراعاتهم والاعتناء بهم».

وكان الإمام الشاشى محمد بن الحسين الفقيه الشافعى رحمه الله ينشد:

تكلم يا فتى والعود أحمد   وطينك لين والطبع قابل

نظر الحطيئة إلى ابن عباس يتكلم فى مجلس عمر، فقال: من هذا الذى نزل عن الناس فى سنه، وعلاهم فى قوله؟»، فقال ابن مسعود: «لو بلغ أسناننا ما عشره منا رجل». يعنى لو كان فى السن مثلنا، ما بلغ أحد منا عُشر علمه».

وأدخل على الرشيد صبى له أربع سنين، فقال له: ما تحب أن أهب لك؟ قال: حسن رأيك.

الطريق إلى القمة ورعاية الأذكياء:

النابغون الفائقون من أبناء الأمة يختصهم الله سبحانه وتعالى بمواهب واستعدادات فطرية، وخصائص ذاتية متميزة، فهم ليسوا مجرد أشخاص ماهرين

فى أداء الاختبارات، ولا مجرد أشخاص ممتازين فى أداء بعض المهارات فحسب، بل لديهم خصائص شخصية واجتماعية وبدنية طيبة تفوق ما عند أقرانهم العاديين.

ومن أهم الخصائص: سلامة البدن، وقوة الذاكرة، وسرعة التعلم، والتفوق فى التحصيل الدراسى، وحب الاستطلاع، والدافعية للإنجاز، والثقة بالنفس، والاستقلالية، والمثابرة، والتفوق فى القيمة النظرية، وفى الميول العلمية، والنضوج الاجتماعى، والنشأة فى ظروف اجتماعية طيبة.

إن المرء لا يولد عالمًا، وإنما تربية جماعة، وتصنعه بيئة، وتتعهده بالرعاية والتعليم، حتى يمتلك ناصية العلم الذى يطلبه. والأمة التى تهتم بالنابغين، تصنع بهم مستقبلها المشرف، لأنهم يصلحون أمرها، ويسهمون فى ازدهارها، والأمة التى تهمل رعاية نابغيها سوف تشقى حين يتولى أمورها جهلة قاصرون يوردونها المهالك، أو مرضى نفسيون معقدون يسومونها سوء العذاب، أو سفلة أصحاب نفوس دنيئة وهمم خسيسة يبيعونها لأعدائها بثمن بخس.

ومع كون المواهب استعدادات فطرية فإنها لا تؤدى إلى النبوغ إلا إذا توفرت لأصحابها الظروف البيئية المناسبة والتربة الصالحة اللازمة لتنميتها وصقلها. وتعد الأسرة -وبخاصة الوالدان أو من يقوم مقامهما- أهم عناصر البيئة تأثيرًا فى إظهار النبوغ، وزراعة الهمة العالية فى قلوب الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وهذا ما قد يفسر لنا سر اتصال سلسلة النابغين من أبناء أسر معينة؛ كآل تيمية مثلاً -حيث اجتمعت الاستعدادات الفطرية الموروثة، والقدرات الإبداعية، مع البيئة المساعدة التى تكشف هذه المواهب مبكرًا، وتنميها، وتوجهها إلى الطريق الأمثل.

فرب أم ذكية محبة للعلم، أو أب عالم مشهود بعلمه، كان سببًا فى تيسير السبيل إلى العلم، ومجالسة العلماء، مما كان له أثر بليغ فى تنمية نبوغ أبنائهم. فهذا سفيان الثورى الإمام الجليل، والعلم الشامخ كان ثمرة أم صالحة غذته بلبانها

وحاطته بكنفها، حتى صار إمام المسلمين، وأمير المؤمنين فى الحديث، قالت له أمه وهو صغير: يا بنى: اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلى.

وهذا الإمام الثقة الثبت أبو عمرو الأوزاعى نشأ يتيمًا فى حجر أمه، التى تنقلت به من بلد إلى بلد، وربته تربية عجزت الملوك وأبناؤها عنها، حتى استفتى فى الفقه وله ثلاث عشرة سنة.

وكذا فعلت أم الإمام ربيعة بن أبى عبد الرحمن شيخ الإمام مالك، فقد كان ثمرة تربية أم فاضلة أنفقت عليه أمه ثلاثين ألف دينار خلَّفها زوجها عندها، وهى حامل به، وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة.

وها هى أم الإمام مالك إمام دار الهجرة تؤزه على طلب العلم، وتلبسه ثياب العلم، وتقول له: اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه.

ومات والد الإمام الشافعى وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها، وأشرفت عليه بحكمتها، وتنقلت به من غزة إلى مكة مستقر أخواله، فربته بينهم هنالك. ونشأ الإمام الشافعى يتيمًا فقيرًا، ولم تستطع أمه دفع أجر معلمه، إلا أن المعلم قبل أن يعلمه بدون أجر، وتعهده بالرعاية، وجعل له منزلة خاصة بين التلاميذ، لما لمسه فيه من نباهة، وسرعة فى الحفظ.

قال الشافعى -رحمه الله: كنت يتيمًا فى حجر أمى، ولم يكن معها ما تعطى المعلم، وكان المعلم قد رضى أن يعلمنى بدون أجر، وأن أخلفه فى الدرس إذا قام.

وهذا إمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخارى رحمه الله مات أبوه إسماعيل وهو صغير، فنشأ يتيمًا فى حجر أمه، وكانت امرأة عابدة صاحبة كرامات.

وتأمل كيف اكتشف والد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله نضوجه الاجتماعى المبكر، فراح ينمى ثقته بنفسه، ويصقل مواهبه، ويُعده لتحمل

المسئوليات، فقد كتب فى ذلك إلى صاحب له فقال رحمه الله: تحققت أنه بلغ الاحتلام قبل إكمال سن اثنتى عشرة سنة على التمام، ورأيته أهلاً للصلاة بالجماعة والائتمام، فقدمته لمعرفته بالأحكام، وزوجته بعد البلوغ مباشرة، ثم طلب منى الحج إلى بيت الله الحرام، فأجبته بالإسعاف إلى ذلك المرام، فحج وقضى ركن الإسلام.

ويحكى الشيخ حسن البنا -طيب الله ثراه- عن أثر تشجيع شيوخه فى تقدمه العلمى فيقول -نوَّر الله قبره-: إن مدرسة المعلمين حينذاك قد جمعت نخبة من فضلاء الأساتذة- مثل أستاذنا عبد العزيز عطية ناظر مدرسة المعلمين بالإسكندرية الآن ورئيس الإخوان بها، وأستاذنا الشيخ فرحات سليم رحمه الله، وأستاذنا الشيخ عبد الفتاح أبو علام، وأستاذنا الحاج على سليمان، وأستاذنا الشيخ البسيونى جزاهم الله خيرًا -امتازوا بالصلاح والخير وتشجيع طلابهم على البحث والدرس وكانت لى بحضراتهم صلة روحية كنت أجد فيها الكثير من التشجيع. ولا زلت أذكر أن الأستاذ عبد العزيز عطية، وقد كان يدرس لنا التربية العملية، وقد أجرى لنا اختبارًا شهريًا فأعجبته إجابتى فكتب على الورقة أحسنت جدًا ولو كان هناك زيادة على النهاية لأعطيتك. وحجز الورقة بيده عند توزيع الأوراق، ثم طلبنى وسلمها إلى وزودنى بكثير من عبارات النصح والتشجيع والحث على القراءة والدرس والمطالعة، واختصنى بتصحيح بعض «بروفات» كتابه «المعلم» فى التربية الذى كان يطبع إذ ذاك بمطبعة المستقبل بدمنهور. كان لهذه العوامل أثرها فى نفسى فحفظت وأنا فى هذه المرحلة من التعليم خارج المناهج المدرسية كثيرًا من المتون فى العلوم المختلفة، فحفظت ملحة الإعراب للحريرى ثم الألفية لابن مالك والياقوتية فى المصطلح والجوهرة فى التوحيد والرحبية فى الميراث وبعض متن السُّلم فى المنطق، وكثيرًا من متن القدورى فى فقه أبى حنيفة ومن متن الغاية والتقريب لأبى شجاع فى فقه الشافعية، وبعض منظومة ابن عامر فى مذهب المالكية. ولست أنسى أبدًا توجيه الوالد لى بالعبارة المأثورة «من حفظ المتون حاز الفنون» ولقد كان

أثرها فى نفسى عميقًا إلى درجة أنى حاولت حفظ متن الشاطبية فى القراءات مع جهلى التام بمصطلحاتها، وحفظت مقدماتها فعلاً ولا زلت أحفظ بعضها إلى الآن.

وبغير هذا النضوج الاجتماعى المبكر والتربية الواعية التى تنمى الملكات، وتغرس الثقة فى النفس، وتحررها من التواكل والتبعية والطفولية لا نستطيع أن نفسر ظاهرة ارتحال العلماء فى سن الصبا والشباب المبكر فى أقطار الدنيا طلبًا للعلم، وقد فارقوا الأهل والأوطان، وكابدوا المخاطر والمشاق دون كلل ولا ملل ولا تبرم.

وقد تكون البيئة المترفة عائقًا بليغ الإعاقة عن المضى فى طريق المجد، ومع ذلك يترفع عليها صاحب الهمة العالية، ويسخرها لإنجاز المطالب الجسيمة، كحال الإمام أبى محمد على بن حزم رحمه الله الذى نشأ نشأة مترفة، ولكنه انصرف عن مطامح الدنيا ومطامعها فى سبيل طلب العلم، فقد جرت مناظرة بين الإمامين ابن حزم وأبى الوليد الباجى رحمهما الله، فلما انقضت قال الباجى لابن حزم: تعذرنى فإن أكثر مطالعاتى كانت على سُرُج الحُراس، فأجابه ابن حزم: وتعذرنى أيضًا فإن أكثر مطالعاتى كانت على منائر -أى: مصابيح- الذهب والفضة».

قال ياقوت الحموى: أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر. وعلق الشيخ محمد أبو زهرة -عفا الله عنه- على اعتذار الإمامين قائلاً: يرى ابن حزم أن كثرة المال وطيب العيش تسُدُّ مسالك العلم إلى النفوس، فلا تتجه إلى العلم، فإن الجدة قد تُسهل اللهو، وتفتح بابه، وإذا انفتح باب اللهو سُدَّ بابُ النور والمعرفة، فلذائذ الحياة وكثرتها تطمس نور القلب، وتعمى البصيرة، وتذهب بحدة الإدراك.

أما الفقير -وإن شغله طلب القوت- قد سُدَّت عليه أبواب اللهو، فأشرقت النفس، وانبثق نور الهداية، هذا نظر ابن حزم.

أما نظر الباجى فإنه متجه إلى الأسباب المادية من حيث تُسهل الحياة المادية، من غير نظر إلى الأسباب المادية النفسية التى تضمن أن الغنى يكون فى كثير من الأحوال معه الانصراف عن العلم إلى اللهو، وقد توفرت ذرائعه.

وربما نشأ كبير الهمة فى بيئة معدمة قاسية تكون كفيلة بإطفاء همته، والقضاء على نبوغه، فييسر الله له من الأسباب ما يأخذ بيده، أو يقيض له من ينمى مواهبه، ويتكفل بأمره:

نشأ المتنبى شاعر العرب الفحل فى أسرة فقيرة غير متعلمة، لكن الله قيض له فرصة التعليم المجانى فى كُتّاب خاص بأبناء أشراف الكوفة، وشجعه أصحاب المكتبات على قراءة الكتب دون مقابل.

ويروى أن وراقًا كان يلازمه قال: كان اليوم عندى -أى المتنبى- وقد أحضر رجل كتابًا فى نحو ثلاثين ورقة لبيعه، فأخذه أبو الطيب، ونظر فيه طويلاً، فقلت له: ما هذا؟ أريد بيعه، وقد قطعتنى عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون فى شهر إن شاء الله، فقال المتنبى: إن كنت حفظته هذه المدة؟ قلت: أهب لك الكتاب، قال: اسمعها منى، فأخذت الدفتر من يده، وأقبل يتلوه حتى انتهى إلى آخره.

ومن أشهر من كان يُعنى بالتفتيش عن النابغين، ويستنقذهم من ظروفهم القاسية ويأخذ بأيديهم فى طلب العلم الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى، فقد حرص الإمام أبو حنيفة -عندما تولى حلقة الدرس بعد شيخه حماد- على رعاية تلاميذه النابغين، فقد كان يواسيهم من ماله الخاص، ويعينهم على نوائب الدهر، حتى أنه كان يزوج من كان فى حاجة إلى الزواج وليست عنده مؤنته، ويرسل لكل تلميذ حاجته، قال شريك أحد تلامذته: كان يُغنى من يعلمه، وينفق عليه وعلى عياله، فإذا تعلَّم قال له: لقد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال من الحرام، وكان ينظر إلى نفوس تلاميذه، ويتعهدها بالرعاية والنصيحة، فإذا وجد من أحدهم إحساسًا بالعلم يمازجه الغرور، أزال عنه درن الغرور ببعض الاختبارات التى تثبت له أنه ما زال فى حاجة إلى مزيد من العلم.

وذكر الكردرى فى مناقبه بسنده إلى أبى يوسف رحمه الله تعالى، قال: كنت أطلب الحديث وأنا مقل المال، فجاء إلىَّ أبى وأنا عند الإمام، فقال لى: يا بنى لا تمدن رجلك معه، فإن خبزه مشوى وأنت محتاج، فقعدت عن كثير من الطلب، واخترت طاعة والدى، فسأل عنى الإمام، وتفقدنى، وقال حين رآنى: ما خلفك عنا؟ قلت: طلب المعاش، فلما رجع الناس، وأردت الانصراف دفع إلىّ صرة فيها مائة درهم، فقال: أنفق هذا، فإذا تمَّ أعلمنى، والزم الحلقة، فلما مضت مدة دفع إلىَّ مائة أخرى، وكلما تنفد كان يعطينى بلا إعلام كأنه كان يُخبر بنفادها، حتى بلغت حاجتى من العلم، أحسن الله مكافأته، وغفر له.

وذكر الكردرى أيضًا أن الحسن بن زياد كان فقيرًا، وكان يلازمه -أى الإمام- وكان أبوه يقول له: لنا بنات، وليس لنا ابن غيرك، فاشتغل بهن، فلما بلغ الخبر الإمام أجرى عليه رزقًا، وقال: الزم الفقه، فإنى ما رأيت فقيهًا معسرًا قط.

وربما لمح شخصًا عالى الهمة، تلوح من محياه أمارات النبوغ فضن بموهبته أن تنفق فى طلب الدنيا، وشجعه على طلب العلم.

قال أبو حنيفة رحمه الله: مررت يومًا على الشعبى وهو جالس، فدعانى، وقال: إلام تختلف؟ فقلت: أختلف إلى فلان، قال: لم أعن إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال: لا تفعل، وعليك بالنظر فى العلم، ومجالسة العلماء، فإنى أرى فيك يقظة وحركة، قال: فوقع فى قلبى من قوله، فتركت الاختلاف -أى إلى السوق- وأخذت فى العلم، فنفعنى الله تعالى بقوله.

وعن مكى بن إبراهيم -أحد شيوخ البخارى- قال: كنت أتجر، فقدمت على أبى حنيفة قدمة، فقال لى: يا مكى! أراك تتجر، التجارة إذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كثير، فلم لا تتعلم العلم، ولم لا تكتب؟ فلم يزل بى حتى أخذت فى

العلم وكتابته وتعلمه، فرزقنى الله منه شيئًا كثيرًا، فلا أزال أدعو لأبى حنيفة فى دبر كل صلاة وعندما ذكرته، لأن الله ببركته فتح لى باب العلم.

وربما كان لتجربة الإمام أبى حنيفة مع شيخه الإمام حماد أثر عظيم فى مسلكه هذا، فقد اكتشف حماد نبوغ أبى حنيفة وعلو همته، فخصه برعايته، وقربه من مجلسه مؤملاً أن يكون حسنة من حسناته يهديها إلى الأمة.

انخرط أبو حنيفة النعمان فى التعليم على يد شيخه حَمَّاد بالمسجد الجامع بالكوفة، وعندما لمس فيه النجابة، وسرعة الحفظ، وسلامة التفكير، أجلسه بإزائه، واحترم رأيه، وشجعه على الاجتهاد والاستقلال بالرأى، ولم يتبرم من كثرة أسئلته واستفساراته، لما فيها من عمق ودقة. فمما يُروى أن أبا حنيفة انصرف من مجلس حماد، بعد أن سأله عدة أسئلة، وألحَّ فى الجدل حتى احمّر وجه حماد، الذى قال لجاره واصفًا صلاح تلميذه: هذا على ما ترى منه -أى من كثرة الأسئلة- يقوم الليل كله ويحييه». واستمر أبو حنيفة ملازمًا أستاذه ثمانى عشرة سنة، ولم يستقل بالدرس والتمحيص إلا بعد وفاة حماد.

وربما كانت نصيحة عابرة من عالم مخلص بداية نقطة تحول فى حياة أحد النابغين إلى انتفاع عموم الأمة به، كذلك الإمام الذى لقى نابغة كبير الهمة وقد جاور فى الحرم المكى الشريف، وخلى مكانه فى التعليم والدعوة فى بلده، فأرشده إلى تصحيح مساره بقوله: ليس هذا مكانك.

وكان سبب أخذ الشافعى فى العلم ما حكاه مصعب بن عبد الله الزبيرى قال: كان الشافعى رحمه الله فى ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب، ثم أخذ فى الفقه بعد. قال: وكان سبب أخذه فى العلم أنه كان يومًا يسير على دابة له وخلفه كاتب لأبى، فتمثل الشافعى ببيت شعر فقرعه كاتب أبى بسوطه، ثم قال له: مثلك يذهب بمروءته فى مثل هذا؟ أين أنت من الفقه؟ فهزه ذلك، فقصد مجالسة الزنجى مسلم بن خالد، وكان مفتى مكة، ثم قدم علينا فلزم مالك بن أنس.

ولما رحل الشافعى من مكة إلى المدينة قاصـداً الأخذ عن أبى عبد الله مالك بن أنس رحمـه الله، وفى رحلته مصنف مشـهور مسمـوع، فلما قدم عليه قـرأ عليه الموطأ حفظًا، فأعجبته قراءته ولازمه، وقال له مالك: اتق الله، واجتنب المعاصى، فإنـه سيكون لك شـأن، وفى رواية أخرى أنه قـال له: إن الله عز وجل قـد ألقى على قلبك نوراً فـلا تطفه بالمعاصـى، وكان للشافـعى رحمه الله حـين أتى مالكًا ثلاث عشرة سنة.

وحكى ابن العلامة القـرآنى الإمام محمد الأمين الشنقيطى رحـمه الله تعالى أن أمارات النبـوغ، وعلو الهمة لما لاحت على والده فى طفـولته، قال له شيـخه: يا بنى إن العلماء يقولون: إن من وجد من نفسه استعداداً وموهبة تؤهله للإمامة تعين عليه طلبها، وإن طلب الإمامة فى الدين متعين عليك، فلا تضيع نفسك.

هذا غيض من فيض من عـجائب النماذج الناجحة فى زراعة الهـمة العالية فى الأطفال.

ومن الجدير بالذكر أن رعاية النابغين أُهملت فى أوربا وأمريكا حتى بداية القرن العشرين، بسبب سوء فهم هذه المجتـمعات للنابغين، ولعل سبب ذلك كان كتاب "Man of Genius" أى: «الرجل العـبـقـرى»، لمؤلفـه "Lambroso" وكـتـاب "Insanity of Genius" أى: «جنون العبقرية» لمؤلفه "Nisbet"، وقد نشر الكتابان فى لندن ونيويورك فى أواخر القرن التـاسع عشر، وأثبتا فيهما الـعلاقة الوثيقة بين العبقرية والجنون، وقدَّما البراهين على أن النابغين مجانين.

ثم بدأت فكرة الغربيين عن النابغين تتحسن بعد أن نشر "Tenman" كتابه "The gif Ted children grown up" أى: «الطفل النابغة يرشد» سنة ١٩٤٧، وقـدم فيه البراهين على أن الأطفال الأذكياء أصحاء نفسيًا، وجـسميًا، واجتماعيًا، مما ساعد على تكويـن «رأى عـام» مع النابغين. وحـتى منتـصـف القـرن العـشـرين كـان الأمريكيون يعتبرون رعاية النابغين ترفًا تربويًا، ولم يبذلوا جهوداً جادة فى الكشف

عنهم إلا بعد أن أطلق الروس أول مـركبة فضاء سنة ١٩٥٧، وشـعروا بالخطر من تفوق الـروس عليهم، فاتجـهوا إلى رعـاية النابغين، واعتـبروها «مـسألة حـياة أو موت»، وجندوا علماء التربية وعلم النفس والاجتماع، وعقدوا المؤتمرات والندوات لتخطيط وتنظيم رعـاية فئات النابغين، وتشـجيعها على إظـهار نبوغها فـى جميع المجالات، وأنشـأت كل ولاية العديد من المعاهد والفصـول المتخصصـة فى رعاية النابغين فى جمـيع المجالات، حتـى بلغ عدد المعاهد حـوالى ٧٠٠ معهـد تشرف عليها حوالى ٣٠٠ جامعة فى أمريكا، كما أسهمت المؤسسات التجارية والصناعية والعلمية فى تمويل برامج الكشف عن النابغين ورعايتهم.

التشجيع وأثره فى النهوض بالنابغين:

رفع الإسلام شأن التشجيع إلى حد أنه جعله فريضة على غير القادر على إقامة فروض الكفـايات مثل الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، وطلب العلم، والولاية والإمامة، وعبـارة الفقهاء فى مثل هذه الفروض: «أنهـا واجب على الكفاية، فإن قام بها البعض سـقط الوجوب عن الآخرين، وإن لم يقم بها أحد أثموا جـميعًا، القادر: لأنه قصر، وغير القادر: لأنه قصَّر فيما يستطيعه، وهو التفتيش عن القادر وحمله على العـمل، وحثه وتشجـيعه، وإعـانته على القيام به، بل إجـباره على ذلك.

ولقد تسابق فى شتى العصور على تشجيع الموهوبين وكبيرى الهمة، بكافة صور التشـجيع، فكانوا ينفقـون الأموال الجزيلة لنفقـة النابغين من طلاب العلم، الذين حبسـوا أنفسهم على طلبه، كى يغنوهم عن سؤال الناس، أو الاشـتغال عن العلم بطلب المعاش.

وهذا الإمام أبو حيان مـحمد بن يوسفى الغرناطى، قال فـيه الصفدى: لم أره قط إلا يسمع أو يكتب أو ينظر فى كتاب، ولم أره على غير ذلك، وكان له إقبال على أذكياء الطلبة يعظمهم وينُوه بقدرهم.

وكـان المعلمون فى الكـتاتيب والمسـاجد والأزهر الـشريف إذا لمسـوا فى طفل النجابة وسرعة التعلم، احـتضنوه، وساعدوه على طلب العلم، وزودوه بالمال من مالهم الخاص، أو من الأوقاف.

وكان فى طليـعة المشـجعين لطلبة العلم الخـلفاء والأمراء، روى البـخارى فى صحـيحه أن أمـير المؤمنين عمـر بن الخطاب رضى الله عنه كان يُدخل ابن عـباس رضى الله عنهـما -وهو غـلام حدث- مع أشـياخ بدر، قـال ابن عبـاس: فكأن بعضهم وجد فى نفسه، فقـال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فـدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رؤيـت أنه دعانى يومئذ إلا ليـريهم، قـال: ما تقـولون فى قـول الله تعـالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]؟. فـقال بعضـهم: أمرنا أن نحـمد الله ونستـغفره إذا نُصـرنا، وفُتح علينا». وسكت بعـضهم فلم يقل شيـئًا، فقـال لى: أكذلك تقول يا ابن عـباس؟ فقلت: لا، قال: فـما تقول؟»، قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعـلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

وهكذا كان أمير المؤمنين يقوِّى ثقته بنفـسه، ويغذى همته، ويربأ به عن احتقار الذات أو الشعور بالدونية والنقص، وقد روى البخارى فى صحيحه أيضًا أنه رضى الله عنه سأل بعض الصـحابة عن آية فى القرآن الكريم فلم يعرفـوا الإجابة، وكان بينهم عبد الله بن عبـاس، وهو صغير السن، فقال: فى نفـسى منها شىء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخى قل، ولا تحقر نفسك، فأجابه.

وعلى هذا السنن سار ابن عباس منذ طفولته، غير مبال بتثبيط من هو أقصر منه همة، قال رضى الله عنه: لما قـبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصـحاب رسول الله ﷺ، فإنهم الـيوم كثيـر، فقال: واعجـبًا لك يا ابن عباس: أترى النـاس يفتقرون إليك، وفى الناس من أصـحاب رسول الله ﷺ من

فيهم؟ قال: فتركت ذاك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ، وإن كان يبلغنى الحديث عن الرجل فآتى بابه وهو قائل، فأتوسد ردائى، يسفى الريح علىّ من التراب، فيخرج فيرانى فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلىّ فآتيك؟، فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك فأسأله عن الحديث، فعاش هذا الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى يسألوننى، فيقول: هذا الفتى كان أعقل منى.

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد حدا بك حادى الشوق فاطو المراحلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ودعه فإن العزم يكفيك حاملا

وقد كان ابن شهاب رحمه الله يشجع الأولاد الصغار، ويقول لهم: لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان فاستشارهم يتبع حدة عقولهم.

وكان الخليفة هارون الرشيد رحمه الله يغدق العطايا والصلات لطلبة العلم والعلماء، حتى قال ابن المبارك: فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات فى أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم فى زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر فى الفقه والعلم ويروى الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وقد بلغ حب بعض الأمراء للعلم والعلماء إلى الحد الذى جعله يعتبر العلماء فى رعايته الخاصة، من هؤلاء الأمراء «المعز بن باديس» أحد أمراء دولة الصنهاجيين فى المغرب الإسلامى -كان لا يسمع بعالم جليل إلا أحضره إلى حضرته، وجعله من خاصته، وبالغ فى إكرامه، وعوّل على آرائه، ومنحه أسمى الرواتب..

وكذلك فعل الخليفة الموحدى الثالث «المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن» الذى أنشأ بيت الطلبة، وأشرف عليه بنفسه، وعندما بلغه حسد بعض

حاشيتـه على موضع الطلبة النابغين عنده، فزع منهم، وخاطبهم قـائلاً: يا معشر الموحدين أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فـزع إلى قبيلته.. وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا، فمهما نابهم من أمر فأنا ملجأهم، إليَّ فزعهم، وإليَّ يُنسبون.

وقد بلغت عناية المنصـور بالطبيب أبى بكر بن زهر حدًا عـجيبًا؛ فـقد كان أبو بكر يقـيم عند الخليفـة مددًا طويلة، ولا يرخص له بالسـفر إلى أهله، حـتى قال شعرًا فى شوقه إلى ولده الصغير، فلما سمع المنصور هذا الشعر، أرسل المهندسين إلى أشبيـلية، وأمرهم بدراسة بيت أبى بكر وحـارته، وتشييد مـثله فى مراكش، ففعلوا مـا أمرهم، ونقلوا عيال أبى بكر إليه فلـما رآها ابن زهر اندهش، وحصل عنده من السرور ما لا مـزيد عليه، ولا يستطاع التعبيـر عنه، فهل سُمع بمثل هذا فى إكرام العلم والعلماء؟!

وفى القرن السـادس عشر قـامت محاولـة ناجحة فى عـهد الخلافـة العثمـانية لتجميع النابغين من جميع الأمصـار والقرى، وتوفير الرعاية التى جعلت كل نابغة يعطى مـا عنده من فن وعلم، مما ساعـد على ازدهار الدولة العـثمـانية حضـاريًا وعسكريًا حتى باتت تهدد بغزو أوروبا.

يقول الأستاذ على الـطنطاوى أحسن الله عاقبته: قرأت مـرة أن مجلة إنكليزية كـبيـرة سألت الأدبـاء عن الأمر الذى يتـوقف عليـه نمو العلوم وازدهار الآداب، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمـة، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت: إنه التشجيع!، وقـالت: إنها فى تلك السن، بعد تلك الشهرة والمكانة، تدفـعها كلمة التشجيع حتى تمضى إلى الأمام، وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير.

***

مواقف الصالحين

الموقف الأول

لم يكن عند أمي ما أشتري به الأوراق

قال الشافعي -رحمه الله-: حفظت القرآن، وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين. فلما ختمت القرآن، دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشترى به قراطيس! فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح، آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمًا. وقال أيضًا -رحمه الله-: لم يكن لى مال، وكنت أطلب العلم فى الحداثة -أى: فى مستهل عمره، وكانت سنه أقل من ثلاث عشرة سنة- وكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور- أى: ظهور الأوراق المكتوب عليها -فأكتب فيها[1].

الموقف الثانى

لا يُستطاع العلم براحة الجسد

قال الذهبى -رحمه الله-: قال على بن أحمد الخوارزمى، قال ابن أبى حاتم: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ ونقابل، فأتينا يومًا أنا ورفيق لى: شيخًا فقالوا: هو عليل -مريض-، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام، وكادت تُنتن، فأكلناها نيئة لم نتفرغ نشويها، ثم قال: لا يُستطاع العلم براحة الجسد»![2].

لولا ثلاث قد شغفت بحبها ... ما عبت فى حوض المنية موردى
وهى الرواية للحديث وكتبه ... والفقه فيه وذاك حب المهتدى

(١) علو الهمة (ص/١٤٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٦٥)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٨٣٠).

الموقف الثالث

زد من الضرب.. وزد من الحديث

قال الحافظ صالح جزرة: سمعت هشام بن عمار يقول: دخلت على مالك بن أنس، فقلت له: حدثني، فقال: اقرأ، فقلت: لا، بل حدثني فقال: اقرأ، فلما راددته، قال: يا غلام، تعال اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر، قال فذهب بي، فضربني خمس عشرة درة، ثم جاء بي إليه، فقال: قد ضربته، فقلت: قد ظلمتني! ضربتني خمس عشرة درة بغير جُرم، لا أجعلك في حل، فقال مالك: فما كفارته؟ قلت: كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثًا، قال: فحدثني بخمسة عشر حديثًا، فقلت له: زد من الضرب، وزد من الحديث، فضحك مالك وقال: اذهب[1].

الموقف الرابع

لا تدعو باللحم المشئوم

قص الإمام أبو حاتم -رحمه الله تعالى- شيئًا مما لقيه أثناء رحلته في طلب العلم، فقال: لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري صرنا إلى الجار، وركبنا البحر وكنا ثلاثة أنفس: أبو زهير المروزي شيخ، وآخر نيسابوري، فركبنا البحر، وكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا من الزاد، وبقيت بقية، فخرجنا إلى البر فجعلنا نمشي أيامًا على البر، حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يومًا وليلة لم يأكل أحد منا شيئًا، ولا شربنا، واليوم الثاني كمثل، واليوم الثالث، كل يوم نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساء صلينا، وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ

(١) معرفة القراء (١/ ١٩٦).

مغشيًا عليه، فجئنا نحركه، وهو لا يعقل، فتركناه، ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قدر فرسخ أو فرسخين، فضعفت، وسقطت مغشيًا علي، ومضى صاحبي، وتركني، فلم يزل هو يمشي، إذ بصر من بعيد قومًا قد قربوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى ﷺ، فلما عاينهم لوَّح بثوبه إليهم، فجاءوه معهم الماء في إدواة فسقوه، وأخذوا بيده، فقال لهم: رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشيًا عليهم»، فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي، ففتحت عيني، فقلت: «اسقني»، فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئًا يسيرًا، وأخذ بيدي، فقلت: «ورائي شيخ ملقى»، قال: «قد ذهب إلى ذاك جماعة»، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي، ويسقيني شيئًا بعد شيء، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم، وأتوا برفيقي الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا أهل السفينة، فبقينا أيامًا حتى رجعت إلينا أنفسنا، ثم كتبوا لنا كتابًا إلى مدينة يقال لها «راية» إلى واليهم، وزودونا من الكعك والسويق والماء، فلم نزل نمشي حتى نفد ما كان معنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعًا عطاشًا على شط البحر، حتى وقعنا إلى سلحفاة قد رمى به البحر مثل الترس، فعمدنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهر السلحفاة، فانفلق ظهره، وإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر، فنتحساه حتى سكن عنا الجوع والعطش، ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة «الراية»، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم، فأنزلنا في داره، وأحسن إلينا، وكان يقدم إلينا كل يوم القرع، ويقول لخادمه: «هات لهم باليقطين المبارك»، فيقدم إلينا ذاك اليقطين مع الخبز أيامًا، فقال واحد منا بالفارسية: «لا تدعو باللحم المشئوم؟» وجعل يسمع الرجل صاحب الدار، فقال: «أنا أحسن بالفارسية: فإن جدتي كانت هروية»، فأتانا بعد ذلك باللحم، ثم خرجنا من هناك، وزودنا إلى أن بلغنا مصر»[٤].

---

(١) علو الهمة (ص/ ١٦٢). الجرح والتعديل (١/ ٣٦٤).

الموقف الخامس

رائحـــة الولـد

قال ابن القاسم المصرى: أنخت بباب مالك سبع عشرة سنة، ما بعت فيها ولا اشتريت شيئًا، قال: فبينما أنا عنده، إذ أقبل حاج مصر، فإذا شاب متلثم دخل علينا، فسلَّم على مالك، فقال: أفيكم ابن القاسم؟ فأشير إلىَّ، فأقبل يقبل عينى، ووجدت منه ريحًا طيبة، فإذا هى رائحة الولد، وإذا هو ابنى» وكان ابن القاسم ترك أمه حاملاً به، وكانت ابنة عمه، وقد خيرها عند سفره لطول إقامته، فاختارت البقاء»(١).

الموقف السادس

قد جعلت لك الليل وحدك

كان أسد بن الفرات، قاضى القيروان وتلميذ الإمام مالك ومدوِّن مذهبه، وأحد القادة الفاتحين، فتح صقلية واستشهد بها سنة ٢١٣هـ، كان قد خرج من القيروان إلى الشرق سنة ١٧٢هـ، فسمع «الموطأ» على مالك بالمدينة، ثم رحل إلى العراق، فسمع من أصحاب أبى حنيفة وتفقه عليهم، وكان أكثر اختلافه إلى محمد بن الحسن الشيبانى، ولما حضر عنده قال له: «إنى غريب قليل النفقة، والسماع منك نزر، والطلبة عندك كثير، فما حيلتى؟». فقال له محمد بن الحسن: «اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتبيت عندى وأسمعك»، قال أسد: وكنت أبيت عنده وينزل إلى، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء، ثم يأخذ فى القراءة، فإذا طال الليل ونعست، ملأ يده ونضح وجهى بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبى، حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه». وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نفدت، وأعطاه مرة ثمانين دينارًا حين رآه يشرب من الماء السبيل، وأمده بالنفقة حين أراد الانصراف من العراق(٢).

(١) علو الهمة (ص/ ١٦٦).

(٢) علو الهمة (ص/ ١٦٥).

الموقف السابع

الأجر رحمكم الله

وهذا الإمام بقى بنى مخلد الأندلسى، الذى رحل إلى بغداد ماشيًا على قدميه، وكان جلٰ بغيته أن يلقى إمام أهل السنة أحمد بن حنبل -رحمه الله-، ليأخذ عنه العلم، حُكى عنه أنه قال: لما قربت من بغداد اتصل بى خبر المحنة التى دارت على أحمد بن حنبل، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه، فاغتممت بذلك غما شديدًا، فاحتللت الموضع، فلم أعرج على شىء بعد إنزالى متاعى فى بيت اكتريته فى بعض الفنادق أن أتيت المسجد الجامع الكبير، وأنا أريد أن أجلس إلى الخلف وأسمع ما يتذاكرونه. فدُفعتُ إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يكشف عن الرجال، فيُضعِّفُ ويُقوِّى، فقلت: «من هذا؟ لمن كان قربى، فقال: هذا يحيى بن معين، فرأيت فرجة قد انفرجت قربه، فقمت إليه فقلت له: أبا زكريا رحمك الله، رجل غريب نائى الدار، أردت السؤال فلا تستخفنى»، فقال لى: قل، فسألته عن بعض من لقيت من أهل الحديث، فبعضًا زكَّى، وبعضًا جرَّح. فسألته فى آخر السؤال عن هشام بن عمار، وكنت قد أكثرت من الأخذ منه، فقال: أبو الوليد هشام بن عمار، صاحب صلاة، دمشقى ثقة وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبر وتقلد كبرًا ما ضرَّه شيئًا لخيره وفضله»، فصاح أهل الحلقة: «يكفيك رحمة الله عليك، غيرك له سؤال. فقلت: وأنا واقف على قدمى: أكشفك عن رجل واحد: أحمد بن حنبل؟ فنظر إلىَّ يحيى بن معين كالمتعجب وقال لى: ومثلنا نحن يكشف عن أحمد بن حنبل؟! إن ذاك إمام المسلمين، وخيرهم، وفاضلهم. ثم خرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل، فدللت عليه، فقرعت بابه، فخرج إلىَّ وفتح الباب، فنظر إلى رجل لم يعرفه، فقلت: يا أبا عبد الله رجل غريب الدار، هذا أول دخولى هذا البلد، وأنا طالب حديث ومُقيِّد سنَّة أى: جامع سنة، ولم تكن رحلتى إلا إليك، فقال لى: ادخل الأسطوان، ولا تقع عليك عين. فقال لى: وأين موضعك؟ قلت: المغرب الأقصى، فقال لى: إفريقية؟ فقلت: أبعدُ من ذلك، أجوز من بلدى البحر إلى إفريقية، الأندلس، فقال لى: إن موضعك

لبعيد، وما كان شيء أحبَّ إليَّ من أن أُحسن عون مثلك على مطلبه، غير أنى فى حينى هذا ممتحن بما لعله قد بلغك، فقلت له: بلى قد بلغنى وأنا قريب من بلدك مقبل نحوك.

فقلت له: أبا عبد الله هذا أول دخولى، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أذنت لى أن آتى فى كل يوم فى زىّ السُّؤَّال، فأقول عند باب الدار ما يقولون، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثنى فى كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه كفاية، فقال لى: نعم، على شرط أن لا تظهر فى الخلق، ولا عند أصحاب الحديث، فقلت: شرطك. فكنت آخذ عودًا بيدى، وألُف رأسى بخرقة، وأجعل كاغدى - أى ورقى- ودواتى فى كمى، ثم آتى بابه فأصيح: الأجر رحمكم الله، والسُّؤَّالُ هنالك كذلك، فيخرج إلىَّ، ويغلق باب الدار، ويحدثنى بالحديثين والثلاثة والأكثر.

فالتزمت ذلك، حتى مات الممتحنُ له، وولِّىَ بعده من كان على مذهب السُّنَّة، فظهر أحمد بن حنبل، وسَمَا ذكره، وعظُمَ فى عيون الناس، وعلت إمامته، وكانت تُضرب إليه آباط الإبل، فكان يَعرفُ لى حقَّ صبرى.

فكنت إذا أتيت حلقته فسح لى وأدنانى من نفسه، ويقول لأصحاب الحديث: هذا يقع عليه اسم طالب العلم، ثم يقص عليهم قصتى معه، فكان يناولنى الحديث مناولة، ويقرأه علىَّ، وأقرأه عليه. فاعتللتُ، ففقدنى من مجلسه فسأل عنى، فأُعلم بعلتى، فقام من فوره مقبلاً إلىَّ عائدًا لى بمن معه، وأنا مضطجع فى البيت الذى كنت اكتريت، ولبدى تحتى، وكسائى على، وكتبى عند رأسى. فسمعت الفندق قد ارتج بأهله وأنا أسمعهم يقولون: هو ذاك، أبصروه، هذا إمام المسلمين مقبلاً، فبدر إلىَّ صاحبُ الفندق مسرعًا فقال لى: أبا عبد الرحمن! هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مقبلاً إليك عائدًا لك. فدخل، فجلس عند رأسى، وقد احتشى البيت من أصحابه، فلم يسعهم، حتى صارت فرقة منهم فى الدار وقوفًا وأقلامهم بأيديهم، فما زادنى على هذه الكلمات؛ فقال لى: «يا أبا عبد الرحمن أبشر بثواب الله، أيام الصحة لا سقم فيها، وأيام السقم لا صحة

فيهـا، أعلاك الله إلى العافية، ومسح عنك بيمينه الشافية، فرأيت الأقلام تكتب لفظه. ثم خرج عنى، فأتانى أهل الفندق يلطفون بى، ويخدموننى ديانة وحسبة، فواحد يأتى بفراش، وآخر بلحاف، وبأطايب من الأغذية، وكانوا فى تمريضى أكثر من تمريض أهلى لو كنت بين أظهرهم، لعيادة الرجل الصالح[1].

الموقف الثامن

كدت أصافح الموت

قال ابن النجار: قرأت بخط أبى بكر عبد الله بن حمزة التيمى: سمعت الشيخ عبد القادر[*] يقول: بلغت بى الضائقة فى الغلاء إلى أن بقيت أيامًا لا آكل طعامًا، بل أتبع المنبوذات، فخرجت يومًا إلى الشط فوجدت قد سبقنى الفقراء، فضعفت وعجزت عن التماسك فدخلت مسجدًا وقعدت وكدت أصافح الموت، ودخل شاب أعجمى ومعه خبز وشواء وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما دفع لقمة أن أفتح فمى، فالتفت فرآنى فقال: بسم الله، فأبيت، فأقسم على، فأكلت مقصرًا، وأخذ يسألنى، ما شغلك ومن أين أنت؟ فقلت: متفقه من جيلان، قال: وأنا من جيلان، فهل تعرف لى شابًا جيلانيًا اسمه عبد القادر يُعرف بسبط أبى عبد الله الصومعى الزاهد؟ فقلت: أنا هو، فاضطرب لذلك وتغير وجهه، وقال: والله يا أخى لقد وصلت إلى بغداد ومعى بقية نفقة لى، فسألت عنك فلم يرشدنى أحد إلى أن نفدت نفقتى، وبقيت بعدها ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتى إلا من مالك، فلما كان هذا اليوم الرابع قلت: قد تجاوزتنى ثلاثة أيام وحلّت لى الميتة، فأخذت من وديعتك ثمن هذا الخبز والشواء، فكل طيبًا فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن، فقلت: وما ذاك؟ قال: أمك وجهت معى ثمانية دنانير والله ما خنتك فيها إلى اليوم، فسكنته وطيبت نفسه، ودفعت إليه شيئًا منها[2].

---

(١) علو الهمة (ص/ ١٧٤).

(*) هو الإمام أبو محمد عبد القادر الجيلانى.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٤٤).

الموقف التاسع

من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة

قال يوسف بن أحمد الشيرازى: لما رحلت إلى شيخنا رحلة الدنيا -يعنى كثير الرحلات- ومسند العصر أبى الوقت قدر الله لى الوصول إليه فى آخر بلاد كرمان فسلمت عليه وقبَّلته وجلست بين يديه، فقال لى: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: كان قصدى إليك، ومعولى بعد الله عليك وقد كتبت ما وقع إلىَّ من حديثك بقلمى، وسعيت إليك بقدمى لأدرك بركة أنفاسك، وأُحظى بعلو إسنادك. فقال: وفقك الله وإيانا لمرضاته وجعل سعينا له وقصدنا إليه، ولو كنت عرفتنى حق معرفتى لما سلَّمت علىَّ، ولا جلست بين يدى، ثم بكى بكاء طويلاً، وأبكى من حضر، ثم قال: اللهم استرنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا، يا ولدى تعلم أنى رحلت أيضًا لسماع الصحيح ماشيًا مع والدى من هراة إلى الداوودى ببوشنج ولى دون عشر سنين، فكان والدى يضع على يدىَّ حجرين، ويقول: احملهما، فكنت من خوفه أحفظهما بيدىّ، وأمشى وهو يتأملنى فإذا رآنى قد عييت أمرنى أن ألقى حجرًا واحدًا، فألقى ويخفُّ عنى، فأمشى إلى أن يتبين له تعبى فيقول لى: هل عييت؟ فأخافه وأقولاً: لا، فيقول: لم تقصر فى المشى؟ فأسرع بين يديه ساعة ثم أعجز، فيأخذ الآخر فيلقيه، فأمشى حتى أعطب، فحينئذ كان يأخذنى ويحملنى، وكنا نلتقى جماعة الفلاحين وغيرهم فيقولون: يا شيخ عيسى ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج، فيقول: معاذ الله أن نركب فى طلب أحاديث رسول الله ﷺ، بل نمشى وإذا عجز أركبته على رأسى إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ ورجاء ثوابه، فكان ثمرة ذلك من حسن نيته أنى انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أقرانى أحد سواى حتى صارت الوفود ترحل إلىَّ من الأمصار. ثم أشار إلى صاحبنا عبد الباقى بن عبد الجبار الهروى أن يُقدم لى حلواء فقلت: يا سيدى قراءتى لجزء أبى الجهم أحب

إلىَّ من أكل الحلواء، فتبسم وقال: إذا دخل الطعام خرج الكلام وقدم لنا صحنا فيه حلواء الفانيذ، فأكلنا. وأخرجت الجزء وسألته إحضار الأصل فأحضره وقال: لا تخف ولا تحرص فإني قد قبرت ممن سمع عليَّ خلقًا كثيرًا، فسل الله السلامة، فقرأت الجزء وسررت به، وييسر الله سماع الصحيح وغيره مرارًا، ولم أزل في صحبته وخدمته إلى أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة ودفناه بالشونيزية، قال لي: تدفنني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية. ولما احتضر سندته إلى صدري وكان مستهترًا بالذكر -أي يكثر من الذكر- فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي، وأكب عليه وقال: يا سيدي قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» فرفع طرفه إليه وتلا: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة، وقال: الله الله الله، وتوفي وهو جالس على السجادة(١).

الموقف العاشر

فقيه خراسان يرعى الجمال

ومن ذلك ما روى عن الإمام أبي المظفر السمعاني أنه حج على البرِّية أيام انقطع الركب، فأُخذ هو وجماعة، فصبر إلى أن خلَّصه الله من الأعراب، وحج وصحب الزنجاني، كان يقول: أسرونا، فكنت أرعى جمالهم فاتفق أن أميرهم أراد أن يزوج بنته فقالوا: نحتاج إلى أن نرحل إلى الحضر لأجل من يعقد لنا، فقال رجل منا: هذا الذي يرعى جمالكم فقيه خراسان، فسألوني عن أشياء فأجبتهم وكلمتهم بالعربية فخجلوا واعتذروا، فعقدت لهم العقد وقلت الخطبة ففرحوا، وسألوني أن أقبل منهم شيئًا فامتنعت، فحملوني إلى مكة وسط العام(٢).

(١) سير الذهبي (٢٠/ ٣٠٧).

(٢) سير الذهبي (١٩/ ١١٥).

الموقف الحادى عشر

ما أضحكك؟

ومن أخبار المعاناة فى طلب العلم ما روُى عن الإمام محمد بن طاهر أنه قال: أقمت بتنيس مدة على أبى محمد بن الحداد ونظرائه فضاق بى فلم يبق معى غير درهم، وكنت أحتاج إلى حبر وكاغد -يعنى ورق- فترددت فى صرفه فى الحبر أو الكاغد أو الخبز، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعم فيها، فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت فى نفسى: لو كان لى اليوم كاغد لم يمكنى أن أكتب من الجوع، فجعلت الدرهم فى فمى وخرجت لأشترى خبزًا فبلعته، ووقع علىَّ الضحك، فلقينى صديق وأنا أضحك، فقال: ما أضحكك؟ قلت: خير، فألحَّ علىَّ وأبيت أن أخبره، فحلف بالطلاق لتصدقنى، فأخبرته فأدخلنى منزله وتكلف أطعمة، فلما خرجنا لصلاة الظهر اجتمع به بعض وكلاء عامل تنيس ابن قادوس، فسأله عنى، فقال: هو هذا، فقال: إن صاحبى منذ شهر أمر بى أن أوصل إليك كل يوم عشرة دراهم قيمتها ربع دينار، وسهوت عنه، فأخذ منه ثلاثمائة وجاء بها[1].

الموقف الثانى عشر

لا أكتمك أمرى

ومن ذلك ما ذكره الحافظ عبد الرحمن بن أبى حاتم قال: سمعت أبى يقول: بقيت بالبصرة فى سنة أربع وعشرين ومائتين ثمانية أشهر، وكان فى نفسى أن أقيم سنة، فانقطعت نفقتى فجعلت أبيع ثياب بدنى شيئًا بعد شىء حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لى إلى المشيخة، وأسمع منها إلى المساء، فانصرف رفيقى ورجعت إلى بيت خالٍ، فجعلت أشرب الماء من الجوع، ثم

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٦٧).

أصبحت من الغـد وغدا علىَّ رفيقى فـجعلت أطوف معه فى سـماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عنى وانصرفت جائعًـا، فلما كان من الغد غدا علىَّ فقال: مُرَّ بنا إلـى المشايخ، قلت: أنا ضـعيف لا يمكننى، قـال: ما ضعـفك؟ قلت: لا أكتمك أمرى قد مضى علىَّ يومان ما طعمت فيـهما شيئًا، فقال لى: قد بقى معى دينار فأنا أواسيك بنصـفه ونجعل النصف الآخر فى الكراء، فخـرجنا من البصرة، وقبضت منه النصف دينار[1].

***

(١) الجرح والتعديل (١/ ٣٦٣).

التوبة

مواقف الصالحين

- اتركيني أخرج ولك المائة دينار
- اذكروا صاحب الرغيف
- هذا كان سبب توبتي
- عيب عليك يا والدي اتق الله
- بكيت على أيامي الضائعة
- والله لأجتهد أن لا أعصي الله أبداً
- دعيني أتعب قليلاً لعلي أستريح طويلاً
- قد منا على رب كريم أباحنا الجنة

التوبة

الرجوع من معصية الله تعالى إلى طاعته. قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

هذا هو الطريق.. توبة نصوح.. توبة تنصح القلب وتخلصه، ثم لا تغشه ولا تخدعه. توبة عن الذنب والمعصية، تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهى بالعمل الصالح والطاعة، فهى عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصى وعكارها؛ وتحضه على العمل الصالح بعدها. فهذه هى التوبة النصوح. التوبة التى تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب.

فإذا كانت هذه التوبة فهى مرجوة إذن فى أن يكفر الله بها السيئات. وأن يدخلهم الجنات. فى اليوم الذى يخزى فيه الكفار. ولا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه وإنه لإغراء مطمع، وتكريم عظيم، أن يضم الله المؤمنين إلى النبى ﷺ فيجعلهم معه صفًا يتلقى الكرامة فى يوم الخزى، ثم يجعل لهم نوراً «يسعى بين أيديهم وبأيمانهم». نوراً يعرفون به فى ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب. ونوراً يهتدى به فى الزحام المريج. ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة فى نهاية المطاف! وهم فى رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدى الله: «يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا، إنك على كل شىء قدير» وإلهامهم هذا الدعاء فى هذا الموقف الذى يلجم الألسنة ويسقط القلوب، هو علامة الاستجابة. فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب. فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور.

شرائط التوبة:

الشرط الأول: الإخلاص لله، بأن يكون قصد الإنسـان بتوبته وجه الله عز وجل وأن يتوب الله عليه، ويتجاوز عما فـعل من المعصية. لا يقصد بذلك مُراءاة الناس والتقرب إليهم، ولا يقصد بذلك دفاع الأذية من السلطان وولى الأمر.

وإنما يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة وأن يعفو الله عن ذنوبه.

الشرط الـثانى: الندم على ما فـعل من المعصـية، لأن شعـور الإنسان بالندم هو الذى يدل على أنه صادق فى التـوبة، يعنى أن يتحسر على ما سـبق منه، وينكسر من أجله ولا يرى أنه فى حل منه حتى يتوب منه إلى الله.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب الذى هو فيه، وهذا من أهم شروطه. والإقلاع عن الذنب إن كان الذنب ترك واجب، فالإقلاع عـنه بفعل مثل أن يكون شخص لا يُزكى فأراد أن يتوب إلى الله، فلابد من أن يخرج الزكاة التى مضت ولم يؤدها. إذا كان الإنسان مقصراً فى بر الوالدين فإنه يجب عليه أن يقوم ببرهما.

إذا كان مـقصراً فى صلـة الرحم فإنه يجب عليه أن يـصل الرحم. وإن كانت المعصية بفعل محرم فالواجب أن يُقلع عنه فوراً ولا يبقى فيه ولا لحظة.

إذا كان مـثلاً من آكلى الربا فـالواجب أن يتخلص من الربا بتـركه والبُـعد عنه وإخراج ما اكتسبه عن طريق الربا.

إذا كانت المعصية بالغش والكذب على الناس وخيانة الأمانة، فالواجب أن يُقلع عن ذلك، وإذا كان اكتسب مالاً عن هذا الطريق المحرم فالواجب عليه أن يرده إلى صاحبه أو يستحله منه.

إذا كانت غيبة فالواجب أن يقلعِ عن غيبة الناس و التكلُّم فِي أعراضهم، أما أنه يقول إنه تائب إلـى الله وهو مُصرٍ على ترك الواجب أو مُـصرٍ على فـعل المحرم، فإن هذه التوبة غـير مقبولة. بل إن هـذه التوبة كالاستهـزاء بالله عز وجل، كيف

تتوب إلى الله عز وجل وأنت مُصرٌّ على معصيته؟! لو أنك تعامل بشرًا من الناس، تقول أنا تبت إليك وأنا نادم لا أعود ثم فى نيتك وقلبك ستعود وعُدت فإن هذه سُخرية بالرجل فكيف بالله رب العالمين؟! فالإنسان التائب حقيقة هو الذى يُقلع عن الذنب.

من الغريب أن بعض الناس تجلس إليه، وتجده يتأوه من وجود الربا وهو فى نفسه يرابى والعياذ بالله!! أو يتأوه من الغيبة وأكل لحوم الناس وهو من أكثر الناس غيبة نسأل الله العافية!! أو يتأوه من الكذب وضياع الأمانة عند الناس، وهو من أكذب الناس وأضيعهم للأمانة!! على كل حال الإنسان لابد أن يُقلع عن الذنب الذى تاب منه فإن لم يقلع فتوبته مردودة ولا تنفعه عند الله عز وجل. والإقلاع عن الذنب إما أن يكون إقلاعًا عن ذنب يتعلق بحق الله عز وجل فهذا يكفى أن تتوب بينك وبين ربك، ولا ينبغى بل قد نقول لا يجوز أن تحدث الناس بما صنعت من المحرم أو ترك الواجب. لأن هذا بينك وبين، الله فإذا كان الله قد منَّ عليك بالستر، وسترك عن العباد فلا تحدث أحدًا بما صنعت إذا تبت إلى الله. وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: **«كل أمتى معافى إلا المجاهرين»**(١) ومن المجاهرة كما جاء فى الحديث: **«وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله»**.

إلا أن بعض العلماء قال: إذا فعل الإنسان ذنبًا فيه حد فإنه لا بأس أن يذهب إلى الإمام الذى يقيم الحدود مثل الأمير ويقول إنه فعل الذنب الفلانى ويريد أن يطهره منه، ومع ذلك فالأفضل أن يستر على نفسه.

يعنى يباح له أن يذهب إلى ولى الأمر إذا فعل معصية فيها حدٌّ كالزنا مثلاً فيقول إنه فعل كذا وكذا يطلب إقامة الحد عليه لأن الحد كفارة للذنب.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

أمَّا المعاصي الأخرى فاسترها على نفسك كما سترها الله وكذلك الزنا وشبهه استره على نفسك -بالنسبة لغير ولى الأمر- لا تفضح نفسك.

ما دمت أنك تبت فيما بينك وبين الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. أما إذا كان الذنب بينك وبين الخلق فإن كان مالاً فلابد أن تؤديه إلى صاحبه ولا تقبل التوبة إلا بأدائه. مثل أن تكون سرقت مثلاً من شخص وتبت من هذا فلابد أن توصل المسروق إلى المسروق منه.

جحدت حقًا لشخص كأن يكون فى ذمتك دين لإنسان وأنكرته ثم تبت، فلابد أن تذهب لصاحب الدين الذى أنكرته عليه وتقرُّ عنده وتعترف حتى يأخذ حقه. فإن كان قد مات فإنك تعطيه ورثته فإن لم تعرفه أو غاب عنك هذا الرجل ولم تعرف له مكانًا فتصدق به عنه تخلصًا منه والله سبحانه وتعالى يعلمه ويؤديه إليه، أمَّا إذا كانت المعصية التى فعلتها مع البشر ضربًا وما أشبهه، فاذهب إليه ومكِّنه من أن يضربك مثل ما ضربته إن كان على الظَّهر فعلى الظهر وإن كان على الرأس فعلى الرأس أو فى أى مكان ضربته فليقتص منك لقول الله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠]. ولقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤]. وإن كان بقول أى أذيَّة بالقول، مثل أن تكون قد سببته بين الناس ووبخته وعيَّرته فلابد أن تذهب إليه وتستحل منه بما تتفقان عليه. حتى لو قال لا أسمح لك إلا بكذا وكذا من الدراهم فأعطه. وإما أن يكون الحق غيبة، يعنى أنك تكلمت به فى غيبته وقدحت فيه عند الناس وهو غائب. فهذه اختلف فيها العلماء فمنهم من قال لابد أن تذهب إليه تقول له يا فلان إنى تكلمت فيك عند الناس فأرجوك أن تسمح عنى وتحللنى. وقال بعض العلماء: لا تذهب إليه بل فيه تفصيل إن كان قد علم بهذه الغيبة فلابد أن تذهب إليه وتستحله. وإن لم يكن علم فلا تذهب إليه واستغفر له وتحدث بمحاسنه فى المجالس التى كنت تغتابه فيها فإن الحسنات يذهبن السيئات، وهذا القول أصح وهو أن الغيبة إذا كان صاحبها لا يعلم بأنك اغتبته فإنه يكفى أن تذكر بمحاسنه

فى المجالس التى اغتبته فيها وأن تستغفر له تقول: «اللهم اغفر له» فلابد فى التوبة من أن تصل الحقوق إلى أهلها.

الشرط الرابع: فهو العزم على أن لا تعود فى المستقبل إلى هذا العمل. فإن كنت تنوى أن تعود إليه عندما تسمح لك الفرصة فإن التوبة لا تصح مثل: رجل كان والعياذ بالله يستعين بالمال على معصية الله. يشترى به المسكرات، يذهب إلى البلدان من أجل الزنا والعياذ بالله والسكر!! فأصيب بفقر وقال: اللهم إنِّى تبت إليك وهو كاذب، وهو فى نيته أنه إذا عادت الأمور إلى مجاريها الأولى فعل فعله الأوَّل، فهذه توبة عاجز، تُبت أم لم تتب لست بقادر على فعل المعصية لأنه يوجد بعض الناس يصاب بفقر فيقول تركت الذنوب، لكن يحدث قلبه أنه لو عاد إليه ما افتقده لعاد إلى المعصية مرة ثانية فهذه توبة غير مقبولة.

الشرط الخامس: أن تكون فى زمن تقبل فيه التوبة فإن تاب فى زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة. وذلك على نوعين:

النوع الأول: باعتبار كل إنسان بحسبه.

والنوع الثانى: باعتبار العموم.

أما الأول: فلابد أن تكون التوبة قبل حلول الأجل -يعنى الموت- فإن كانت بعد حلول الأجل فإنها لا تنفع التائب لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾ [النساء: ١٨]. هؤلاء ليس لهم توبة! وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

فالإنسان إذا عاين الموت وحضره الأجل فهذا يعنى أنه ليس من الحياة فتكون توبته فى غير محلها! بعد أن يئس من الحياة وعرف أنه لا بقاء له يذهب فيتوب! هذه توبة اضطرار فلا تنفعه ولا تقبل منه لابد أن تكون التوبة سابقة.

النوع الثانى: هو العموم فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن «الهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تنفع أحدًا توبة. قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وهذا البعض هو طلوع الشمس من مغربها كما فسر ذلك النبى عليه الصلاة والسلام. إذًا فلابد أن تكون التوبة فى وقت تقبل فيه التوبة فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان. ثم اختلف العلماء -رحمهم الله- هل تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره أولاً؟ فى هذا ثلاثة أقوال لأهل العلم:

١- منهم من قال: إنها تصح التوبة من الذنب وإن كان مصرًا على ذنب آخر، فتقبل توبته من هذا الذنب ويبقى الإثم عليه فى الذنب الآخر بكل حال.

٢- ومنهم من قال: لا تقبل التوبة من الذنب مع الإصرار على ذنب آخر.

٣- ومنهم من فصَّل فقال: إن كان الذنب الذى أصر عليه من جنس الذنب الذى تاب منه فإنه لا تُقبل، وإن لا قبلت! مثال ذلك: رجل تاب من الرِّبا ولكنه يزنى والعياذ بالله أو يشرب الخمر ولنقل إنه يشرب الخمر، تاب من الربا ولكنه مصر على شرب الخمر. فهنا من العلماء من قال إن توبته من الربا لا تقبل، كيف يكون تائبًا إلى الله وهو مُصِرٌ على معصيته؟ وقال بعض العلماء: بل تقبل لأن الربا شىء وشرب الخمر شىء آخر، وهذا هو قول الإمام النووى -رحمه الله- وقال إنها تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره عند أهل الحق. فهذا فيه الخلاف، أما إذا كان من جنس مثل أن يكون الإنسان والعياذ بالله مُبتلى بالزنا ومبتلى بالاطلاع على النساء والنظر إليهن بشهوة وما أشبه ذلك فهل تقبل توبته من الزنا وهومُصرٌ على النظر إلى النساء لشهوة؟ أو بالعكس؟

هذا فيه أيضًا خلاف، فمنهم من يقول: تصح، ومنهم من يقول: لا تصح التوبة. ولكن الصحيح فى هذه المسألة أن التوبة تصحُّ من كل ذنب مع الإصرار على غيره، لكن لا يُعطى الإنسان اسم التائب على سبيل الإطلاق ولا يستحق المدح الذى يُمدح به التائبون لأن هذا لم يتب توبة تامة بل توبة ناقصة. تاب من هذا الذنب فيرتفع عنه إثمه، لكنه لا يستحق أن يُوصف بالتوبة على سبيل الإطلاق فهذا هو القول الذى تطمئن إليه النفس أنه لا يعطى الوصف على سبيل الإطلاق ولا يحرم من التوبة التى تابها من هذا الذنب.

علامات صحة التوبة وقبولها:

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين.

فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]، قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته. فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفًا، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء. ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هى أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدى ربه طيعًا ذليلاً خاشعًا، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده. فأُخذ فأحضر بين يديه. ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًا ولا عنه غناء. ولا منه مهربًا. وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه. وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته. هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه. وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع. ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها. وما أقربه بها من سيده! فليس شىء أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال «أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى، أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك. هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير. وليس لى سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين. وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبه».

يا منِ ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناسُ عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليستهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى!

وما عالج الصادق بشىء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فوائد التوبة ولطائفها:

اعلم أن صاحب البصيرة إذ صدرت منه خطيئة فله نظر إلى ثلاثة أمور:

أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة والإقرار على النفس بالذنب.

الثانى: أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفًا وخشية بحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه منها؛ فيحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ومغفرته وحلمه وكرمه، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها ألبتة، ويعلم ارتباط الخلق والأمر والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها فى الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه متعلِق به لابد منه.

هذا المشهد بأسمائه يطلعه على رياض مُونقة من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

- فمنها: أن يعرف عزة الله فى قضائه وهو أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما يشاء وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه وجعله مريداً شائيًا لما شاء فيه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، وغاية المخلوق أن يتصرف فى بدنك وظاهرك، وأما جعلك مريداً شائيًا لما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة، فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه وتمكن شهوده منه كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

- ومن معرفة عزته فى قضائه: أن يعرف أنه مُدَبَّر مقهور ناصيته بيد غيره لا عصمة له إلا بعصمته ولا توفيق له إلا بمعونته فهو ذليل حقير فى قبضة عزيز حميد.

- ومن شهود عزته أيضًا فى قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد والغناء التام والعزة كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ازداد شهوده لعزة الله وكماله وحمده وغناه، وكذلك بالعكس فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

- ومنها: أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه، وهذا من كمال بره ومن أسمائه «البر» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم، فيذهل عن ذكر الخطيئة فيبقى مع الله سبحانه وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته وشهود ذل معصيته، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه هو المطلب الأعلى والمقصد الأسنى. ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقًا، بل فى هذه الحال فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة وذكر الجناية، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

- ومنها: شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة ولكنه الحليم الذى لا يعجل بالعقوبة فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب أحب إلى الله وأصلح للعبد وأنفع من فوقها ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

- ومنها: معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بالتوبة لا بالاحتجاج بالقدر فإنه مخاصمة ومحاجة، فيقبل عذره فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده. والواقع شاهد بذلك فعبودية التوبة بعد الذنب لون وهذا لون آخر.

- ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته فإن المغفرة فضل من الله وإلا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلاً محمودًا، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك، فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة وإنابة وفرحًا وابتهاجًا به ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة وتعبدًا بمقتضاها وهذا أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة.

- ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية، ولو قدرت لقالت مثل قول فرعون، ولكنه قدر فأظهر وغيره عجز فأضمر، إنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية وهو أربع مراتب.

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السماوات والأرض جميعًا محتاجون إليه فقراء إليه وهو وحده الغني عنهم.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة والعبودية، وهو ذل الاختيار وهذا خاص بأهل طاعته وهو سر العبودية.

المرتبة الثانية: ذل المحبة فإن المحب ذليل بالذات وعلى قدر محبته يكون ذله كما قيل:

مساكين أهل الحب حتى قبورهم ... عليها تراب الذل بين المقابر

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية:

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم إذ يذل له خوفًا وخشية ومحبة وإنابة وطاعة وفقرًا وفاقة.

- ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها فاسم «السميع البصير» يقتضي مسموعًا ومبصرًا واسم «الرزاق» يقتضي مرزوقًا واسم «الرحيم» يقتضي مرحومًا، وكذلك أسماء «الغفور والعفو والتواب» يقتضي من يغفر له ويتوب عيه ويعفو عنه، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات إذ هي

أسماء كمال ونعوت جلال، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»(١).

فإذا فرضت أن المعصية والخطيئة منتفية عن العالم فلمن يغفر وعمن يعفو وعلى من يتوب ويحلم، وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت والعبيد أغنياء معافون فأين السؤال والتضرع والابتهال والإجابة وشهود الفضل والمنة والتخصيص بالإنعام والإكرام، فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات ودلهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

- ومنها: السر الأعظم الذى لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، وينادى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد فازدادت به معرفة لربها ومحبة له وطمأنينة به وشوقًا إليه ولهجًا بذكره وشهودًا للطفه وكرمه وإحسانه ومطالعة لسر العبودية وإشرافًا على حقيقة الإلهية، وهو ما ثبت فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلة بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»(٢).

وقد بين النبى ﷺ محبة الرب جل وعلا للتوبة فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يقدر من الفرح، ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من فرحة هذا الواجد لمادة حياته وبلاغه فى سفره بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده راحلته وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشىء وغاب عنه ثم وجده وصار طوع يده فلا فرحة

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧/ ٦٤)، والترمذى (٩/ ٥٢٣).

(٢) صحيح: مسلم (١٧/ ٦٣).

أعظم من فرحتــه به. فما الظن بمحبوب لك تحــبه حبًا شديدًا أســره عدوك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العــدو سيسومــه سوء العذاب ويعرضــه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منه، وهو غـرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عــدوه ووافاك على غيــر ميعاد، فلم يفــجأك إلا وهو على بابك يتملقــك ويترضاك ويستــعينك ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به وقد اختــصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على سواه. هذا ولست الذى أوجدته وخلقتــه وأسبغت عليه نعمك والله عز وجل هو الذى أوجد عبده وخلقه وكــونه وأسبغ عليه نعمه وهو يحب أن يتمها عليــه فيصير مظهراً لنعمه قابلاً لــها شاكرًا لها محبًا لوليهــا ومطيعًا له عابدًا معــاديًا لعدوه ومبغــضًا له عاصــيًا له، وفى التوبة من ذلك أوفــر نصيب، فكانت بذلك التــوبة من أحب العــبـادات إلى الله تعـــالى، نســأل الله أن يرزقــنا توبة نصوحًا(١).

***

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالى، مختصر منهاج القــاصدين لابن قدامة، شرح رياض الصالحين للعثيمين، البحر الرائق أحمد فريد، مواقف المصرى.

مواقف الصالحين

الموقف الأول

اتركينى أخرج ولك المائة دينار

عن الحسن، قال: كانت امرأة بغى، لها ثلث الحسن، لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار. وإنه أبصرها عابد فأعجبته. فذهب فعمل بيديه وعالج[1] فجمع مائة دينار. ثم جاء إليها، فقال: إنك أعجبتنى فانطلقت فعملت بيدى، وعالجت حتى جمعت مائة دينار. فقالت له: ادخل. فدخل، وكان لها سرير من ذهب، فجلست على سريرها، ثم قالت له: هلم. فلما جلس منها مجلس الختان[2] ذكر مُقامه بين يدى الله، فأخذته رعدة. فقال لها: اتركينى أخرج ولك المائة دينار. قالت: ما بدا لك وقد زعمت أنك رأيتنى فأعجبتك فذهبت فعالجت وكددت حتى جمعت مائة دينار، فلما قدرت علىّ فعلت الذى فعلت؟ فقال: فرقًا[3] من الله ومن مقامى بين يديه، وقد بغضت إلىّ، فأنت أبغض الناس إلىّ. فقالت: إن كنت صادقًا فمالى زوج غيرك، فقال: دعينى أخرج فقالت: لا، إلا أن تجعل لى أن تزوج بى، قال: لا، حتى أخرج. قالت: فلى عليك إن أتيتُك أن تتزوجنى؟ قال لعل. فتقنع[4] بثوبه، ثم خرج إلى بلده. وارتحلت تائبة نادمة على ما كان منها حتى قدمت بلده فسألت عن اسمه ومنزله، فدلت عليه. فقيل له: إن الملكة قد جاءتك. فلما رآها شهق شهقة فمات وسقط فى يدها. وقالت: أما هذا فقد فاتنى، فهل له من قريب؟ قالوا: أخوه رجل فقير. قالت: فإنى أتزوجه حبًا لأخيه. فتزوجته[5].

---

(١) عالج: زاول.

(٢) الختان: موضع القطع من الذكر والأنثى، ومنه الحديث المروى: «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل» وهما موضع القطع من ذكر الغلام وفرج الجارية.

(٣) فرقًا: خوفًا. (٤) تقنع بثوبه: تستر به أو وضعه على رأسه.

(٥) كتاب التوابين (ص/ ٩٥٧)

الموقف الثانى

اذكروا صاحب الرغيف

عن أبى بردة قال: لما حضرت أبا موسى الوفاة قال: يا بنى! اذكروا صاحب الرغيف، كان رجل يتعبد فى صومعة[١] أُراهُ سبعين سنة لا ينزل إلا فى يوم واحد. قال: فشبه أو شب[٢] الشيطان فى عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام أو سبع ليالٍ، ثم كُشف عن الرجل غطاؤه، فخرج تائبًا. وكان كلما خطا خطوة صلى وسجد فآواه الليل إلى دكان عليه اثنا عشر مسكينًا. فأدركه العياء، فرمى بنفسه بين رجلين منهم. وكان ثم راهب يبعث إليهم كل ليلة أرغفة فيعطى كل إنسان رغيفًا، فجاء صاحب الرغيف، فأعطى كل إنسان رغيفًا، ومرّ على ذلك الرجل الذى خرج تائبًا فظن أنه مسكين فأعطاه رغيفًا، فقال له المتروك: مالك لم تعطنى رغيفى؟ فقال: تراني أمسكت[٣] عنك؟ سل هل أعطيت أحدًا منكم رغيفين؟ قالوا: لا. فقال: والله لا أعطيك الليلة شيئًا! فعمد التائب إلى الرغيف الذى دفعه إليه فدفعه إلى الرجل الذى تُرك، فأصبح التائب ميتًا، قال: فوزنت السبعون بالسبع ليالٍ فرجحت الليالى. فوزن الرغيف بالسبع ليال فرجح الرغيف. فقال أبو موسى: يا بنى! اذكروا صاحب الرغيف[٤].

الموقف الثالث

هذا كان سبب توبتى

روى عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته، فقال: كنت شرطيًا وكنت منهمكًا على شرب الخمر. ثم إننى اشتريت جارية نفيسة، ووقعت منى أحسن موقع، فولدت لى بنتًا. فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت فى قلبى حبًا، وألفتنى وألفتها. قال: فكنت إذا وضعت المسكر بين يدىَّ جاءت إلىَّ

(١) الصومعة: بيت للنصارى.
(٢) الشب: ارتفاع كل شىء.
(٣) أمسك: حبس.
(٤) العائدون إلى الله (ص/١٠١).

وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت؛ فأكمدني حزنها. فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بت ثملا من الخمر؛ ولم أصلِّ فيها عشاء الآخرة. فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبُعثرت القبور، وحُشر الخلائق، وأنا معهم. فسمعت حسًا من ورائي، فالتفت، فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعًا نحوي. فمررت بين يديه هاربًا فزعًا مرعوبًا. فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة؛ فسلمت عليه فرد السلام فقلت: أيها الشيخ! أجرني من هذا التنين أجارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه. فوليت هاربًا على وجهي، فصعدت على شرف من شُرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها، وكدت أهوى فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها! فاطمأننت إلى قوله ورجعت، ورجع التنين في طلبي فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ! سألتك أن تجيرني[1] من هذا التنين فلم تفعل. فبكى الشيخ، وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك. قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى[2] مخرمة[3] وستور[4] معلقة على كل خوخة[5] وكوة مصراعان من الذهب الأحمر، مفصلة باليواقيت مكوكبة بالدر، على كل مصراع ستر من الحرير. فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربًا والتنين من ورائي؛ حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا! فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه. فإذا الستور قد رُفعت والمصاريع قد فتحت، فأشرف عليّ من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار. وقرب التنين مني، فتحيرت في أمري. فصاح بعض الأطفال: ويحكم! أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه. فأشرفوا فوجًا بعد فوج، وإذا أنا

(١) تجيرني: أجار: أنقذ وأعاذ.
(٢) الكوى: الخروق في الحائط.
(٣) مخرمة: مشققة.
(٤) الستارة: ما يستر به.
(٥) الخوخة: كوة تؤدي الضوء إلى البيت ومخترق ما بين كل دارين ما عليه باب.

بابنتى التى ماتت قد أشرفت علىّ معهم. فلما رأتنى بكت. وقالت: أبى والله! ثم وثبت فى كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدىّ. فمدت يدها الشمال إلى يدى اليمنى فتعلقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هاربًا. ثم أجلستنى وقعدت فى حجرى وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتى، وقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. فبكيت وقلت: يا بنية! وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت! نحن أعرف به منكم. قلت: فأخبرينى عن التنين الذى أراد أن يهلكنى. قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك فى نار جهنم. قلت: فأخبرينى عن الشيخ الذى مررت به فى طريقى. قالت: يا أبت! ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء. قلت: يا بنية! وما تصنعون فى هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أُسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم. قال مالك: فانتبهت فزعًا وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية وتبت إلى الله عز وجل. وهذا كان سبب توبتى.

الموقف الرابع

عيب عليك يا ولدى.. اتق الله

كان يقطن مدينة الرياض.. يعيش فى ضياع ولا يعرف الله إلا قليلاً. منذ سنوات لم يدخل المسجد، ولم يسجد لله سجدة واحدة.. ويشاء الله عز وجل أن تكون توبته على يد ابنته الصغيرة! يروى القصة فيقول: كنت أسهر حتى الفجر مع رفقاء السوء فى لهو ولعب وضياع تاركًا زوجتى المسكينة وهى تعانى الوحدة والضيق والألم.. ما الله به عليم، لقد عجزت عنى تلك الزوجة الصالحة الوفية، فهى لم تدخر وسعًا فى نصحى وإرشادى ولكن دون جدوى.

وفى إحدى الليالى، جئت من إحدى سهراتى العابثة، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، فوجدت زوجتى وابنتى الصغيرة وهما تغطان فى سبات عميق،

فاتجهت إلى الغرفة المجاورة لأكمل ما تبقى من ساعات الليل فى مشاهدة بعض الأفلام الساقطة من خلال جهاز الفيديو.. تلك الساعات، التى ينزل فيها ربنا عز وجل، فيقول: «هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه سؤاله؟». وفجأة.. فُتح باب الغرفة، فإذا هى ابنتى الصغيرة التى لم تتجاوز الخامسة.. نظرت إلىَّ نظرة تعجب واحتقار، وبادرتنى قائلة: عيب عليك يا والدى اتق الله «رددتها ثلاث مرات»، ثم أغلقت الباب وذهبت.. أصابنى ذهول شديد، فأغلقت جهاز الفيديو، وجلست حائرًا وكلماتها لا تزال تتردد فى مسامعى وتكاد تقتلنى.. فخرجت فى إثرها فوجدتها قد عادت إلى فراشها. أصبحت كالمجنون، لا أدرى ما الذى أصابنى فى ذلك الوقت، وما هى إلا لحظات حتى انطلق صوت المؤذن من المسجد القريب ليمزق سكون الليل الرهيب، مناديًا لصلاة الفجر. توضأت، وذهبت إلى المسجد، ولم تكن لدى رغبة شديدة فى الصلاة، وإنما الذى كان يشغلنى ويقلق بالى كلمات ابنتى الصغيرة.

وأقيمت الصلاة.. وكبر الإمام، وقرأ ما تيسر له من القرآن، وما إن سجد وسجدت خلفه ووضعت جبهتى على الأرض حتى انفجرت ببكاء شديد لا أعلم له سببًا، فهذه أول سجدة أسجدها لله عز وجل منذ سبع سنين.

كان ذلك البكاء فاتحة خير لى، لقد خرج مع ذلك البكاء كل ما فى قلبى من كفر ونفاق وفساد، وأحسست بأن الإيمان بدأ يسرى بداخلى. وبعد الصلاة جلست فى المسجد قليلاً ثم رجعت إلى بيتى فلم أذق طعم النوم حتى ذهبت إلى العمل، فلما دخلت على صاحبى استغرب حضورى مبكرًا، فقد كنت لا أحضر إلا فى ساعة متأخرة بسبب السهر طوال ساعات الليل، ولما سألنى عن السبب أخبرته بما حدث فى البارحة.. فقال: احمد الله أن سخر لك هذه البنت الصغيرة التى أيقظتك من غفلتك، ولم يرسل إليك ملك الموت ليقبض روحك على تلك الحالة.

ولما حان وقت صلاة الظهر كنت مرهقًا، حيث لم أنم منذ وقت طويل، فطلبت من صاحبى أن يتسلم عملى، وعدت إلى بيتى لأنال قسطًا من الراحة، وأنا فى

شوق لرؤية ابنتـى الصغيـرة التى كانت سببـًا فى هدايتى ورجـوعى إلى الله قال: ورجعت إلى البيت وأنـا فى شوق شديد لرؤية تلك الابنة المباركـة. . فكنت أشعر بأن أقدامى تسابق الريح. فلما وصلت البيت وجدت زوجتى واقفة أمام باب المنزل -على غـير عـادتها- وصرخـت فى وجهى وقـالت: أين كنت؟ قلت: كنت فى العمل. قالت: اتصلنا بك كثيرًا فلم نجدك فأين كنت؟ قال: كنت فى المسجد الذى فى مكان العمل. . . فما الذى حدث ومـا الذى جعلك تقفين أمام الباب فى تلك الساعة؟

قالت: لقد ماتت ابنتك.

قال الرجل: لم أتمالك نفسى من هول الصدمة فانفجرت فى البكاء، ولم أتذكر إلا كلمتها: «عيب عليك يا والدى اتق الله. . . عيب عليك يا والدى اتق الله».

قال: اتصلت على صـاحبى وقلت له: لقد مـاتت ابنتى التى جعلها الله سببـًا لخروجى من الظلمات إلى النور.

فجاء صاحبـه إليه مسرعًا. . ودخل الرجل فغسَّل ابنته وكـفنها وذهبوا بها إلى المسجد فصلوا عليها ثم ذهبوا إلى المقبرة فـقال له صاحبه: خذ ابنتك وضعها تحت التراب.

فكـل باكٍ فـسُـيـبكى ... وكـل ناعٍ فـسـيُـنعى
وكل مـذخـور سـيفـنى ... وكل مـذكـور سـينسى
ليـس غـيـر الله يـبـقى ... مـن عـلا فـالله أعلى

فأخـذ الرجل ابنته ودفنها وهو يقول لـلناس من حوله: والله أنا لا أدفن ابنتى، وإنما أدفن النور الذى أضاء لى الـطريق إلى الله جلا وعلا، هذه البنت جـعلها الله سببًا لهدايتى، وأنا أسأل الله أن يجمعنى بها فى جنته.

فبكى الناس من حوله بكاءً مريراً حتى كادت قلوبهم أن تتقطع حُزنًا على تلك الابنة المباركة. وهكذا أيها الإخوة الكرام... لا يدرى الإنسان متى يأتيه ملك الموت.. الموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً. قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]. فلنسرع الخطا إلى الله ولنعلنها توبة صادقة عساها أن تكون آخر ساعة فى العمر ويكون الجزاء فى جنة الرحمن[1].

الموقف الخامس

بكيت على أيامى الضائعة

بدت أختى شاحبة الوجه نحيلة الجسم.... ولكنها كعادتها تقرأ القرآن الكريم.. تبحث عنها تجدها فى مصلاها.. راكعة ساجدة رافعة يديها إلى السماء... هكذا فى الصباح وفى المساء وفى جوف الليل لا تفتر ولا تمل.. كنت أحرص على قراءة المجلات الفنية والكتب ذات الطابع القصصى.. أشاهد الفيديو بكثرة لدرجة أننى عُرفت به.. ومن أكثر من شيء عُرف به.. لا أؤدى واجباتى كاملة ولست منضبطة فى صلواتى... بعد أن أغلقت جهاز الفيديو وقد شاهدت أفلامًا متنوعة لمدة ثلاث ساعات متواصلة.. ها هو الأذان يرتفع من المسجد المجاور.. عدت إلى فراشى.. تنادينى من مصلاها.. نعم ماذا تريدين يا نورا؟ قالت لى بنبرة حادة: لا تنامى قبل أن تصلى الفجر.. أوه.. بقى ساعة على صلاة الفجر وما سمعتيه كان الأذان الأول.. بنبرتها الحنونة -هكذا هى حتى قبل أن يصيبها المرض الخبيث وتسقط طريحة الفراش..نادتنى..تعالى يا هناء بجانبى. لا أستطيع إطلاقًا رد طلبها.. تشعر بصفائها وصدقها لا شك طائعًا ستلبى.. ماذا تريدين.. اجلسى.. ها قد جلست ماذا لديك.. بصوت عذب رحيم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران: ١٨٥]. سكتت برهة.. ثم سألتنى.. ألم تؤمنى بالموت؟ بل مؤمنة.. ألم تؤمنى بأنك ستحاسبين

(١) مواقف من حياة الأنبياء (ص/ ١٢٣).

على كل صغيرة وكبيرة؟ بلى ولكن الله رحيم.. والعمر طويل.. يا أختي.. ألا تخافين من الموت وبغتته.. انظري «هند» أصغر منك وتوفيت في حادث سيارة.. وفلانة.. وفلانة.. الموت لا يعرف العمر.. أجبتها بصوت الخائف حيث مُصلاها المُظلم.. إنني أخاف من الظلام وأخفتيني من الموت.. كيف أنام الآن.. كنت أظن أنك وافقت على السفر معنا هذه الإجازة.. فجأة.. تحشرج صوتها واهتز قلبي.. قالت: لعلي هذه السنة أسافر سفراً بعيداً.. إلى مكان آخر.. ربما يا هناء.. الأعمار بيد الله.. وانفجرت بالبكاء.. تفكرت في مرضها الخبيث وأن الأطباء أخبروا أبي سراً أن المرض ربما لن يمهلها طويلاً.. ولكن من أخبرها بذلك.. أم أنها تتوقع هذا الشيء.. ما لك تفكرين؟ جاءني صوتها القوي هذه المرة؟ هل تعتقدين أني أقول هذا لأنني مريضة؟ كلا.. ربما أكون أطول عمراً من الأصحاء.. وأنت إلى متى ستعيشين.. إنها ساعات معدودة.. ثم ماذا.. لمعت يدها في الظلام وهزتها بقوة.. لا فرق بيننا كلنا سنرحل وسنغادر هذه الدنيا، إما إلى جنة أو إلى نار.. ألم تسمعي قول الله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. تصبحين على خير.. هرولت مسرعة وصوتها يطرق أذني.. هداك الله.. لا تنسى الصلاة الثامنة صباحًا.. أسمع طرقًا على الباب.. هذا ليس موعد استيقاظي.. بكاء.. وأصوات.. ماذا جرى.. لقد تردّت حالة نورا.. وذهب بها أبي إلى المستشفى.. إنا لله وإنا إليه راجعون. لا سفر هذه السنة.. مكتوب عليَّ البقاء هذه السنة في بيتنا.. بعد انتظار طويل.. عند الساعة الواحدة ظهراً.. اتصل أبي من المستشفى.. تستطيعون زيارتها الآن هيا بسرعة.. أخبرتني أمي أن حديث أبي غير مطمئن وأن صوته متغير.. عباءتي في يدي.. أين السائق.. ركبنا على عجل.. أين الطريق الذي كنت أذهب لأتمشى مع السائق فيه، فيبدو قصيراً.. ما له اليوم طويل.. وطويل جداً.. أين ذلك الزحام المحبب إلى نفسي كي ألتفت يمنة ويسرة.. زحام أصبح قاتلاً ومملاً.. أمي بجواري تدعو لها.. إنها بنت صالحة ومطيعة.. لم أرها تضيع وقتها أبدًا.. دلفنا من الباب

الخارجي للمستشفى.. هذا مريض يتأوه.. وهذا مصاب بحادث سيارة، وثالث عيناه غائرتان.. لا تدرى هل هو من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة.. منظر عجيب لم أره من قبل.. صعدنا درجات السلم بسرعة.. إنها فى غرفة العناية المركزة.. وسآخذكم إليها.. ثم واصلت الممرضة.. إنها بنت طيبة وطمأنت أمى أنها فى تحسن بعد الغيبوبة التى حصلت لها.. ممنوع الدخول لأكثر من شخص واحد.. هذه هى غرفة العناية المركزة.. وسط زحام الأطباء وعبر النافذة الصغيرة التى فى باب الغرفة أرى عينى أختى نورا تنظر إلىَّ وأمى واقفة بجوارها.. بعد دقيقتين خرجت أمى التى لم تستطع إخفاء دموعها.. سمحوا لى بالدخول والسلام بشرط أن لا أتحدث معها كثيرًا.. دقيقتين كافيتين لك.. كيف حالك يا نورا؟ لقد كنت بخير مساء البارحة.. ماذا جرى لك؟ أجابتنى بعد أن ضغطت على يدى: وأنا الآن ولله الحمد بخير.. الحمد لله ولكن يدك باردة.. كنت جالسة على حافة السرير ولامست ساقها.. أبعدتها عنى.. آسفة إذ ضايقتك.. قالت: كلا ولكنى تفكرت فى قول الله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠]. عليك يا هناء بالدعاء لى، فربما أستقبل عن قريب أول أيام الآخرة. سفرى بعيد وزادى قليل. سقطت دمعة من عينى بعد أن سمعت ما قالت وبكيت .. لم أع أين أنا.. استمرت عيناى فى البكاء.. أصبح أبى خائفًا علىَّ أكثر من نورا.. لم يتعودوا هذا البكاء والانطواء فى غرفتى.. مع غروب شمس ذلك اليوم الحزين.. ساد صمت طويل فى بيتنا.. دخلت علىَّ ابنة خالتى.. ابنة عمتى.. أحداث سريعة.. كثر القادمون.. اختلطت الأصوات.. شىء واحد عرفته.. نورا ماتت.. نورا ماتت... نورا ماتت. لم أعد أميز من جاء.. ولا أعرف ماذا قالوا.. يا الله.. أين أنا وماذا يجرى.. عجزت حتى عن البكاء.. فيما بعد أخبرونى أن أبى أخذ بيدى لوداع أختى الوداع الأخير.. وأنى قبلتها.. لم أعد أتذكر إلا شيئًا واحدًا.. حين نظرت إليها مسجاة.. على فراش الموت.. تذكرت قولها ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾

عرفت حقيقة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠] لم أعرف أنني عدت إلى مصلاها إلا تلك الليلة.. وحينها تذكرت من قاسمتني رحم أمي فنحن توأمين.. تذكرت من شاركتني همومي.. تذكرت من نفست عني كربتي.. من دعت لي بالهداية.. من ذرفت دموعها ليالي طويلة وهي تحدثني عن الموت والحساب.. الله المستعان. هذه أول ليلة لها في قبرها. اللهم ارحمها ونوّر لها قبرها. هذا هو مصحفها.. وهذه سجادتها.. وهذا.. وهذا. بل هذا هو الفستان الوردي الذي قالت لي: سأخبئه لزواجي.. تذكرتها وبكيت على أيامي الضائعة.. بكيت بكاءً متواصلاً.. ودعوت الله أن يرحمني ويتوب عليّ ويعفو عني.. دعوت الله أن يثبتها في قبرها كما كانت تحب أن تدعو.. فجأة سألت نفسي ماذا لو كانت الميتة أنا؟ ما مصيري..؟ لم أبحث عن الإجابة من الخوف الذي أصابني.. بكيت بحرقة.. الله أكبر.. ها هو أذان الفجر قد ارتفع..ولكني ما أعذبه هذه المرة.. أحسست بطمأنينة وراحة وأنا أردد ما يقوله المؤذن.. لففت ردائي وقمت واقفة أصلي صلاة الفجر.. صليت صلاة مودع.. كما صلتها أختي من قبل وكانت آخر صلاة لها.. إذا أصبحت لا أنتظر المساء.. وإذا أمسيت لا أنتظر الصباح[1].

الموقف السادس

والله لأجتهدن أن لا أعصى الله أبداً

كان الفضيل يقطع الطريق وحده. فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلاً، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يُقال له: الفضيل. قال: فسمع الفضيل، فأُرعد -أخذته رعدة-، فقال: يا قوم: أنا الفضيل، جوزوا، والله لأجتهدن أن لا أعصى الله أبدًا! فرجع عما كان عليه.

(١) الزمن القادم (ص/٤).

وروى من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليـلة؛ وقال: أنتم آمنون من الفضيل وخرج يرتاد -يطلب- لهم علفًا؛ ثم رجع فـسمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. قـال: بلى والله قد آن. فكان مبـتدأ توبته[١].

الموقف السابع

دعني أتعب قليلاً لعلي أستريح طويلاً

روى أن رجلاً كان يُعرف بـ«دينار العيار»، كانت له والدة تعظه ولا يتعظ، فمرّ فى بعض الأيام بمقبرة كثيرة العظام، فأخـذ منها عظمًا نخرًا فانفت فى يده، ففكر فى نفسه، وقال لنفسه: ويحك! كأنى بك غدًا قد صار عظمك هكذا رُفاتًا والجسم ترابًا، وأنا اليـوم أقدم على المعـاصى، فندم وعـزم على التوبة، ورفع رأسـه إلى السماء وقال: إلهى! إليك ألقيت مقاليـد أمرى، فاقبلنى وارحمنى. ثم مضى نحو أمه مـتغير اللـون، منكسر القلب، فقـال: يا أماه! ما يُصنع بالعـبد الآبق -يعنى الهارب- إذا أخذه سيده؟ فقالت: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يده وقدمه. فقال: أريد جبـة من صوف وأقـراصًا من شعـير، وتفـعلين بى كما يُفـعل بالآبق، لعل مولاى يرى ذُلى فيرحمنى. فـفعلت ما طلب. فكان إذا جنه الليل أخذ فى البكاء والعويـل، ويقول لنفـسه: ويحك يا دينار! ألك قـوة على النار؟ كيف تعـرّضت لغـضب الجبـار؟ وكذلك إلى الصـباح، فـقالـت له أمه فى بعض الليـالى: ارفق بنفسك، فـقال: دعينـى أتعب قليلاً لعلى أستـريح طويلاً؛ يا أمى! إن لى موقـفًا طويلاً بين يدى رب جـليل، ولا أدرى أيؤمـر بى إلى الظل الظـليل، أو إلى شـر مقـيل؛ إنى أخاف عناءً لا راحة بعـده، وتوبيخًا لا عـفو معـه، قالت: فاسـترح قليلاً، فقال: الراحة أطلب؟ أتضمنـين لى الخلاص؟ قال: فمن يضمنه لى؟ قال: فدعينى ومـا أنا عليه؛ كأنك يا أماه غدًا بالخلائق يسـاقون إلى الجنة وأنا أُساق إلى

(١) كتاب التوابين (ص/١٥٩).

النار! فمرت به فى بعض الليالى فى قراءته: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] ففكر فيها. وبكى وجعل يضطرب كالحية حتى خر مغشيًا عليه، فجاءت أمه إليه ونادته، فلم يجبها، فقالت: قُرة عينى! أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف: إن لم تجدينى فى عرصة القيامة فاسألى مالكًا -أى خازن النار- عنى، ثم شهق شهقة مات فيها. فجهزته وغسلته، وخرجت تنادى: أيها الناس! هلموا إلى الصلاة على قتيل النار! فجاء الناس؛ فلم يُرَ أكثر جمعًا ولا أغزر دمعًا من ذلك اليوم.

الموقف الثامن

قدمنا على رب كريم أباحنا الجنة

وقال على بن الحسين: كان لنا جار من المتعبدين قد برز فى الاجتهاد، فصلى حتى تورمت قدماه وبكى حتى مرضت عيناه، فاجتمع إليه أهله وجيرانه فسألوه أن يتزوج، فاشترى جارية وكانت تغنى وهو لا يعلم، فبينا هو ذات يوم فى محرابه يصلى، رفعت الجارية صوتها بالغناء، فطار عقله، فرام -يعنى طلب- ما كان عليه من العبادة فلم يطق، فأقبلت الجارية عليه، فقالت: يا مولاى! لقد أبليت شبابك ورفضت لذات الدنيا أيام حياتك، فلو تمتعت بى! فمال إلى قولها واشتغل باللذات عمّا كان فيه التعبد. فبلغ ذلك أخًا له كان يوافقه على العبادة؛ فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من الناصح الشفيق، والطبيب الرفيق، إلى من سُلب حلاوة الذكر، والتلذذ بالقرآن، والخشوع والأحزان، بلغنى أنك اشتريت جارية بعت بها من الآخرة حظك؛ فإن كنت بعت الجزيل بالقليل والقرآن بالقيان، فإنى محذرك هادم اللذات ومنغص الشهوات وموتم الأولاد، فكأنه قد جاء على غرة فأبكم منك اللسان، وهدم منك الأركان، وقرب منك الأكفان، واحتوشك[1] الأهل والجيران، وأُحذرك من الصيحة إذا جثت[2] الأمم لهول ملك جبار: فاحذر يا

(١) احتوش القوم على فلان: جعلوه وسطهم.

(٢) جثا: جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه.

أخى ما يحل بك من ملك غضبان. ثم طوى الكتاب وأنفذه إليه. فوافاه الكتاب وهو فى مجلس سروره، فغص بريقه وأذهله ذلك، فنهض مبادرًا من مجلس سروره وكسر آنيته وهجر جاريته، وآلى[1] أن لا يطعم الطعام ولا يتوسد المنام[2].

قال الذى وعظه: فلما مات رأيته فى المنام بعد ثلاث، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: قدمنا على رب كريم أباحنا الجنة. وقال:

الله عوضنى ذو العرش جارية ... حوراء تسقينى طورًا وتهنينى
تقول لى اشرب بما قد كنت تأملنى ... وقرَّ عينًا مع الولدان والعين
يا من تخلى عن الدنيا وأزعجه ... عن الخطايا وعيد فى الطواسين[3]

***

(١) آلى: أقسم.

(٢) الوساد: المتكأ والمخدة.

(٣) الطواسين والحواميم بذوات تضاف إلى واحد فيقال ذوات طسم وذوات حواميم، وهى السور المفتتحة بهاك: طس، وطسم، وحم.

الدعوة إلى الله تعالى

مواقف الصالحين

- نذر نفسه للدعوة إلى الله
- هل تريد شيئًا؟
- لا تضيعوا أعماركم مثلى
- عاهدت الله أن أبذل النصيحة لكل مسلم
- فتاة تدعو أختها للالتزام بدين الله
- انصرى أختاه هذا الدين
- أتوجه إلى كل معلمة ألا تتهاون فى إسداء النصح
- الدعوة فى المقاهى
- أين الناس؟!
- طالبة تدعو معلمتها إلى الاستقامة
- لابد من إنقاذهما قبل فوات الأوان
- الأعمال بالخواتيم

الدعوة إلى الله تعالى

الدعوة إلى الله تعالى هى وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل فى أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته، لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبى ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثًا، وتبليغ سنته إلى الأمة، أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم فى أممهم، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، ويكفى فى هذا قول النبى ﷺ لعلى ولمعاذ أيضًا: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» (١).

وقوله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» (٢).

ومن أعظم ما يهتم به الداعية هداية قومه، وبلوغ الجهد فى النصح لهم، كما يتضح ذلك جليًا لمن تدبر سورة نوح على سبيل المثال، وكذا قصص سائر المرسلين، حتى خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ، وكذا أتباعهم كمؤمن آل فرعون الذى لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

وكحبيب النجار الذى حمل همَّ دعوة قومه فى الحياة، وأبلغ فى النصح لهم بعد الاستشهاد: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٣٦، ٣٧].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧/ ٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤).

إذا تأملت قوائم عظماء رجالات الإسلام من الرعيل الأول فمن بعدهم لرأيت أن «علو الهمة» هو القاسم المشترك بين كل هؤلاء الذين اعتزوا بالإسلام، واعتز بهم الإسلام، ووقفوا حياتهم لحراسة الملة وخدمة الأمة، سواء كانوا علماء أو دعاة أو مجددين أو مجاهدين أو مربين أو عُباد صالحين، ولو لم يتحلوا بعلو الهمة لما كان لهم موضع فى قوائم العظماء، ولما تربعوا فى قلوب أبناء ملتهم، ولا تزينت بذكرهم صحائف التاريخ، ولا جعل الله لهم لسان صدق فى الآخرين.

وأسوتهم فى حمل هَمِّ الأمة -بل فى كل باب من أبواب الخير- هو الصادق المصدوق ﷺ، الذى شارك المسلمين آلامهم، وكان فى حاجتهم حتى حطمه الناس ﷺ. فعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة رضى الله عنها: «أكان نبى الله ﷺ يصلى جالسًا؟» قالت: «بعد ما حطمه[١] الناس». رواه مسلم.

ومن أمثلة حمل هم الأمة قول حذيفة رضى الله تعالى عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى». رواه البخارى.

فإن سياق الحديث يشى بحرص حذيفة على تعميم الانتفاع بالإرشاد النبوى فى زمن الفتنة إلى جميع المسلمين من بعده.

وتأمل استنكاره ﷺ دعاء الأعرابى: «اللهم ارحمنى ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا» وقوله له: «لقد حجَّرت واسعًا» رواه البخارى. وكذا قوله ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»[٢].

وقوله ﷺ فى وصف أهل الجنة: «ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم» رواه مسلم.

والداعية إلى الله الكبير الهمة يقدر تبعات هذا المقام الرفيع، فهو يظمأ حيث يروى الناس، ويسهر حيث ينامون، ويجوع حيث يشبعون، ويتعب حيث

(١) يقال: حطم فلانًا أهله، إذا كبر فيهم، كأنهم بما حمَّلوه من أثقالهم صيَّروه شيخًا محطومًا.

(٢) حسن: رواه الطبرانى وحسنه الألبانى (رقم/ ٦٠٢٦).

يستريحـون، ويقدم حيث يحجمـون: عن علىّ رضى الله عنه قال: «كنا إذا احمرَّ البأس، ولقى القومُ القومَ، اتقينا برسـول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم» رواه أحمد.

وعن البراء رضى الله عنه قال: «كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقى به، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به ﷺ». رواه مسلم.

وعن عبـد الكريم أبى أميـة قال: «لأن أردَّ رجلاً عن رأى سـيئ أحب إلىَّ من اعتكاف شهـر». واعتادت أم الشيخ مـحمد رشيد رضـا رحمه الله أن تراه مهـتمًا لأحوال المسلمين إذا ألّـت بهم أو بأحدهم نائبة، ورأته ذات يـوم على هذه الحال، فقـالت له: «مالك؟ هل مات مـسلم بالصين؟». وهذا شاعـر الدعوة الإسلامـية المعاصرة عـمر بهاء الدين الأميرى، وهو فى جناح طب القلب، مـوصول الصدر إلى جهـاز المراقبة الإلكترونى بأسـلاك تفل من حركتـه، يُحقن فى البطن كل يوم مـرات بإبر لإماعـة الدم، وقـد جاء الطبـيب، يسـأل القائم عـلى التمـريض عن استراحة شاعرنا، فيرد عليه باستغراب، وبفهم يختلف عن فهمه، فيقول:

كـــــلا رويدك يا طـبـــــيب ... وقـد سـألت: أمـا اسـتـراح؟
هل يســـتـــريح الحُــرُ يـوقــد ... صـــــــدره العـبء الـرزاح؟

وعن شجاع بن الوليـد قال: «كنت أخرج مع سفيان الثورى، فـما يكاد لسانه يفتـر عن الأمر بالمعروف والنهـى عن المنكر ذاهبًا وراجعًـا». وكان الفقـيه الواعظ أحمد الغزالى، شقيق أبى حامد الغزالـى رحمهما الله كان يدخل القرى والضياع، ويعظ لأهل البوادى، تقربًـا إلى الله». أما الشيخ أبو إسحاق الفـزارى رحمه الله: فقد «كان رجـل عامة، وهو الذى أدب أهل الثغور الإسلامـية التى فى أعالى بلاد الشام والجزيرة تجاه الروم، وعلَّمهم سنن النبى ﷺ، وكان يأمر وينهى، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه».

ومن نماذج حرصهم على تعليم الناس العلم الشريف: ما رواه عثمان بن عطاء عن أبيه قال: «إن أوثق عملى فى نفسى نشرى العلم».

وقال عمر بن عبد العزيز فى كلام له: «فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدى، وكل سنة ينعشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى، كان فى الله يسيرا». إنه يعلم أن طريق الدعوة طويل وشاق، مملوء بالأشواك والصعاب، لا تتحمله إلا نفوس الرجال، ولا تقوم به إلا همم الصادقين الأبطال، ولاتقدر على مواصلة السير فيه النفوس المريضة المترهلة ممن أصابها وهن العزيمة ونضب وقود الإيمان فيها.. هذا الطريق هو طريق الأنبياء، فيه تعب آدم، وناح لأجله نوح، ورُمى فى النار الخليل، وأخرج للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، وقاسى المرض أيوب، وكذا سيرة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

إن من خصائص الداعية الكبير الهمة أنه لا يترخص فى السكوت عند قوة أهل الفجور وأذاهم، لأنه يرى أن الترخيص هنا من شأن العامة من المستضعفين، وأما الدعاة، والقادة، والعلماء، فيتمسكون بالعزيمة، ويصدعون بالحق، وإن لحقهم الأذى والعذاب والموت، وقد تجسد هذا المعنى جليًا فى موقف إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الشيبانى رحمه الله تعالى من محنة القول بخلق القرآن، وهاك طرفًا منها كما يحكيه ابنه صالح: قال أبى: «لما جىء بالسياط نظر إليها المعتصم، وقال: ائتونى بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا، فجعل يتقدم إلىَّ الرجل منهم فيضربنى سوطين، فيقول له: شد، قطع الله يدك!، ثم يتنحى، ويقوم الآخر، فيضربنى سوطين، وهو يقول فى كل ذلك: شد، قطع الله يدك!، فلما ضربت تسعة عشر سوطًا قام إلىَّ، يعنى المعتصم: وقال: يا أحمد علام تقتل نفسك؟ إنى والله عليك لشفيق، قال: فجعل عُجيف ينخسنى بقائمة سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك، الخليفة على رأسك قائم!، وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، دمُه فى عنقى، اقتله!، وجعلوا يقولون: يا أمير

المؤمنين، أنت صائم، وأنت فى الشمس قائم!، فقال لى: ويحك يا أحمد، ما تقول؟، فأقول: أعطونى شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به، فرجع وجلس، وقال للجلاد: تقدم وأوجع، قطع الله يدك!، ثم قام الثانية، فجعل يقول: ويحك يا أحمد، أجبنى»، فجعلوا يقبلون علىّ ويقولون: يا أحمد، إمامك على رأسك قائم!» وجعل عبد الرحمن يقول: «من صنع من أصحابك فى هذا الأمر ما تصنع؟ وجعل المعتصم يقول: ويحك، أجبنى إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أُطلق عنك بيدى»، فقلت: «يا أمير المؤمنين، أعطونى شيئًا من كتاب الله»، فيرجع، وقال للجلادين: «تقدموا»، فجعل الجلاد يتقدم ويضربنى سوطين ويتنحى، وهو فى خلال ذلك يقول: «شد، قطع الله يدك!» قال أبى: فذهب عقلى، فأفقت بعد ذلك فإذا الأقياد قد أُطلقت عنى، فقال لى رجل ممن حضر: «إنا كبيناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك بارية ودُسناك!» قال أبى: فما شعرت بذلك، وأتونى بسويق فقالوا لى: «اشرب وتقيأ»، فقلت: «لا أُفطر»، ثم جئ بى إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سماعة فصلّى، فلما انفتل من الصلاة قال لى: «صليت والدم يسيل فى ثوبك؟»، فقلت: «قد صلى عمر وجرحه يثعب دمًا». قال صالح: ثم خُلى عنه فصار إلى منزله، وكان مكثه فى السجن، منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخُلى عنه، ثمانية وعشرين شهرًا. ولقد أخبرنى أحد الرجلين اللذين كانا معه، قال: يا ابن أخى، رحمة الله على أبى عبد الله، ما رأيت أحدًا يشبهه، ولقد جعلت أقول له فى وقت ما يُوَجه إلينا بالطعام: «يا أبا عبد الله، إننى صائم، وأنت فى موضع تقية»، ولقد عطش فقال لصاحب الشراب: «ناولنى»، فناوله قدحًا فيه ماء وثلج، فأخذه ونظر إليه هنيَّة، ثم ردَّه ولم يشرب! فجعلت أعجب من صبره على الجوع والعطش، وهو فيما هو فيه من الهول، وعلق الإمام أبو الفرج بن الجوزى على موقف الإمام أحمد رحمه الله قائلاً: «هذا رجل هانت عليه نفسه فى الله تعالى فبذلها، كما هانت على بلال نفسه، وقد روينا عن سعيد بن المسيب: «أنه كانت

نفسه عليه فى الله تعالى أهون من نفس ذباب»، وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمحهم العواقب، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل، لا إلى الحال، وشدة ابتلاء - الإمام- أحمد دليل على قوة دينه، لأنه قد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «يبتلى المرء على حسب دينه» فسبحان من أيده وبصَّره وقواه ونصره».

نحن عصبة الإله ... دينه لنا وطن
نحن جند مصطفاه ... نستخف بالمحن

الداعية المسلم: لا أرض تحده، ولا العذاب يرهبه.

إنه يعمل أنَّى هاجر وطرد، لا يعشق ترابًا، ولا يضيق ضمن حدود أوهم الاستعمار غيرهم أنها حدودهم، ويتآخى مع كل بنى الإسلام، فإن لم تكن الهجرة وكان السجن، كان سجنه سياحة لروحه وفكره، وإذا شنق كان هبوط الحبل به علوا ينقله إلى منزل جميل كريم.

خذوا كل دنياكم واتركوا ... فؤادى حرًا وحيدًا غريبًا
فإنى أعظمكم دولة ... وإن خلتمونى طريدًا سليبًا

يقول الراشد: أعرف أخًا أمريكيًا من أصل أسبانى ممن أسلم لله وحسن إسلامه يعيش مع زوجته الأمريكية التى أسلمت أيضًا فى مدينة «نيويورك»، وقد انتدب نفسه للدعوة إلى الله، فيخرج هو وزوجته، ويقفان أمام الكنيسة، ليلتقط روادها من الرجال، ويدعوهم إلى الإسلام، وكذلك تفعل زوجته مع النساء، وذلك كل أحد.

ويقول أيضًا: وقد كنت فى الأيام الخوالى ألاطف إخوانى فأفتش عن أحذيتهم، ليس على نظافتها، وصبغها، ورونقها، كالتفتيش العسكرى، بل على استهلاكها، وتقطعها، والغبار الذى عليها، وأقلبها فأرى النعل، فمن كان أسفل حذائه متهرئًا تالفًا فهو الناجح، وأقول له: «شاهدك معك: حذاؤك يشهد لك أنك تعمل،

وتغدو في مـصالح الدعوة وتروح، وتطبق قـاعدة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وبكثرة حركـتك تلف حذاؤك، فأنت المجتاز المرضى عندى.

ولئن كان سـعى الدعاة وحركـتهم في نصرة الدين من آثار علو همـتهم، ولئن كان نشر مناقـبهم وإذاعة أخبـارهم من أسباب إيقاظ الغافلين، فـإنه قد ينضم إلى هذه الأسباب تقريع النائمين والسادرين في الغـفلة بأن نذكر لهم حركة أهل الباطل في الانتصـار لباطلهم، وبذلهم في سبيل إطفـاء نور الإسلام، وهيهات هـيهات: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

هذا «هيوستن» يقف في حدود سنة ١٨٣٠ أمام الكونجرس الأمريكي، ويخطب خطبة بليغة لم يستعمل فيها كلمة مرتين، فسحر ألباب الرجال الذين أمامه، وكان قد نجح لتوِّه في تسكين ثائرة الهنود الحمر وجلبهم إلى توقيع اتفاقات مع الحكومة، فاستدعاه الرئيس الأمريكي آنذاك وقال له: «إن تكسـاس تتبع المكسيك، ومستقبل أمريكا متعلق بها، ولابد من ضمِّها، وأُريدها منك».

فقال هيوستن: نعم أنا لها، زودني بمال ورجال.

قال الرئيس: «لـو كان عندى مال ورجـال ما دعوتك، بل تذهـب منفردًا وبلا دولار واحد، وأبعث معك حارسًا حتى تعبر نهر المسيسبي، وتعود».

ومع ذلك قبل المهمة، وودَّعه الحارس على ضـفة النهر، واندفع نحو تكساس، فلما دخل أول مدينة بهـا فتح له مكتب محاماة، فـكان المدعى في المحكمة يخرج متهمًا والمتهم بريئًا، لبلاغته وقوة لسانه، حتى انبهر به الناس، فلاثوا به، فتلاعب بمفاهيمهم وأخـيلتهم، وغرس فيهم معنى ضرورة الاسـتقلال عن المكسيك، وأنشأ حركة أتمت الاستـقلال، ثم غرس معنى وجوب الانضمـام إلى الولايات المتحدة، فانضـمت طواعية بالقناعـات التي غرسهـا هيوستن، وجاء بعـد سنوات قليلة إلى الرئيس الأمريكي، وسلمه مفتاح تكسـاس، إذ لم تطلق طلقة أمريكية ولم يصرف

دولارًا واحد، فشكره الرئيس، وخلَّدوا عمله بإطلاق اسـمه على مدينة «هيوستن» التى هى الآن من أهم مدن أمريكا، وعاصمة النفط فيها.

وهاك مثالاً آخـر حكاه الدكتور توفيق الواعى حـفظه الله، قال: أرسلت الدولة اليابانية فى بدء حـضارتها بعوثًا دراسية إلـى ألمانيا كما بعثت الأمة العـربية بعوثًا، ورجعت بعوث اليابان لتحضر أمتها، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض!!

فما هو السر؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة.

يقول الطالب اليابانى «أوساهير» الذى بعثته حكومته للدراسة فى ألمانيا: لو أننى اتبعت نصـائح أستاذى الألمانى الذى ذهبت لأدرس عليـه فى جامعة هامـبورج لما وصلت إلى شىء، كانت حكومتى قد أرسلتـنى لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم، كـيف أصنع محركًا صـغيرًا؟ كنت أعـرف أن لكل صناعة وحدة أساسـية أو ما يسمى «مـوديل» هو أساس الصناعة كلها، فـإذا عرفت كيف تصنع، وضعت يدك على سر هذه الصناعـة كلها، وبدلاً من أن يأخذنى الأساتذة إلى معمل، أو مركـز تدريب عملى، أخذوا يعطوننى كتبًـا لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكننى ظللت أمـام المحرك، أيًا كانت قوته وكأنى أقف أمـام لغز لا يُحل، وفى ذات يـوم، قرأت عن مـعرض مـحـركات إيطاليـة الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معى راتبى، وجـدت فى المعرض محركًا قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبى كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك، وكان ثقيـلاً جدًا، وذهبت إلى حجـرتى، ووضعتـه على المنضدة، وجـعلت أنظر إليه، كـأننى أنظر إلى تاج من الجـوهر، وقلت لنفـسى: هذا هو سـر قـوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركًا كهـذا لغيرت تاريخ اليابان، وطاف بذهنى خاطر يقول: إن هذا المحـرك يتـألف من قطع ذات أشكال وطبـائع شـتى: مغناطـيس كحـذوة الحصـان، وأسلاك، وأذرع دافـعة، وعـجلات، وتروس ومـا إلى ذلك، لو أننى استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك، وأعيـد تركيبها بالطريقة نفسـها التى ركبوها بها، ثم شـغَّلتُه فـاشتغل، أكـون قد خطوت خطوة نحـو سر «موديـل» الصناعة

الأوروبية، وبحثت فى رفوف الكتب التى عندى، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقًا كثيرًا، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل، رسمت المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذى يحمل أجزاءه، ثم جعلت أفككه، قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة، وأعطيتها رقمًا، وشيئًا فشيئًا فككته كله، ثم أعدت تركيبه، وشغلته فاشتغل، كاد قلبى يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل فى اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكننى من مواصلة العمل.

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: «حسنًا ما فعلت، الآن لابد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل، وعليك أن تفككه، وتكشف موضع الخطأ وتصححه، وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل»، وكلفتنى هذه العملية عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاث من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعت غيرها بيدى، صنعتها بالمطرقة والمبرد، بعد ذلك قال رئيس البعثة الذى كان يتولى قيادتى روحيًا... قال: «عليك الآن أن تضع القطع بنفسك، ثم تركبها محركًا، ولكى أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألومنيوم، بدلاً من أن أعد رسالة الدكتوراة كما أراد منى أساتذتى الألمان، تحولت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء وأقف صاغرًا إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم، حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أننى من أسرة ساموراى، ولكننى كنت أخدم اليابان وفى سبيل اليابان يهون كل شىء، قضيت فى هذه الدراسات والتدريبات ثمانى سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة فى اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة.

وعلم «الميكادو» «الحاكم اليابانى» بأمرى فأرسل لى من ماله الخاص، خمسة آلاف جنيه إنجليزى ذهبًا، اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة، وأدوات وآلات، وعندما أردت شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت، فوضعت راتبى

وكل ما ادخرته، وعندما وصلت إلى «نجازاكى» قيل لى: إن «الميكادو» يريد أن يرانى، قلت: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً، استغرق ذلك تسع سنوات، وفى يوم من الأيام حملت مع مساعدى عشرة محركات «صنع فى اليابان»، قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ودخل «الميكادو» وانحنينا نحييه وابتسم، وقال: «هذه أعذب موسيقى سمعتها فى حياتى، صوت محركات يابانية خالصة، هكذا ملكنا «الموديل» وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان، ونقلنا اليابان إلى الغرب. وحدث من عايش الطلاب اليابانيين الذين يبتعثون إلى أمريكا عن أحوالهم فقال: ربما يلبثون فى مكتبة الجامعة إلى نصف الليل، وربما نام أحدهم وهو جالس على كرسيه، ويواصل الدراسة فى اليوم الثانى من غير ذهاب للبيت.

وقال د. عبد الودود شلبى فى كتابه «فى محكمة التاريخ»: أذكر أننى ترددت كثيراً جدًا على مركز من مراكز إعداد المبشرين فى مدريد، وفى فناء المبنى الواسع وضعوا لوحة كبيرة كتبوا عليها: أيها المبشر الشاب: نحن لا نعدك بوظيفة أو عمل أو سكن أو فراش وثير، إننا ننذرك بأنك لن تجد فى عملك التبشيرى إلا التعب والمرض، كل ما نقدمه إليك هو العلم والخبز وفراش خشن فى كوخ فقير، أجرك كله ستجده عند الله إذا أدركك الموت، وأنت فى طريق المسيح كنت من السعداء. وهذه الكلمات حركت كثيراً من جند الشيطان المبشرين بالنيران، من حملة الشهادات فى الطب والجراحة والصيدلة وغيرها من التخصصات للذهاب إلى الصحارى القاحلة التى لا توجد فيها إلا الخيام، والمستنقعات المليئة بالنتن والميكروبات، والمكوث هناك السنين الطوال دون راتب، ودون منصب، ولو أراد أحدهم العمل بمؤهله لربح مئات الآلاف من الدولارات، ولكنه ضحى بكل هذا من أجل الباطل الذى يعتقد صحته.

وحكى لى بعض الشباب المسلمين فى «ألمانيا» أنه منذ الصباح الباكر ينتشر دعاة فرقة «شهود يهوه» فى الشوارع وينطلقون إلى البيوت، ويطرقون الأبواب للدعوة

إلى عقيدتهم، وحدثنى أحدهم أن فتاة ألمانية منهم طرقت بابه فى السادسة صباحًا، فلما علم أن غرضها دعوته إلى عقيدتها، بين لها أنه مسلم، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يستمع منها، فظلت تجادله وتلح عليه أن يمنحها ولو دقائق «من أجل المسيح»!

فلما رأى إصرارها أوصد الباب فى وجهها، ولكنها أصرت على تبليغ عقيدتها، ووقفت تخطب أمام الباب المغلق قرابة نصف ساعة تشرح له عقيدتها، وتغريه باعتناق دينها!! فما بالنا معشر المسلمين يجلس الواحد منا شبعان متكئًا على أريكته، إذا طُلب منه نصرة دين الحق، أو كُلِّف بأبسط المهام، أو عوتب لاستغراقه فى اللهو والترفيه، انطلق كالصاروخ مرددًا قوله ﷺ: «يا حنظلة ساعة وساعة» كأنه لا يحفظ من القرآن والسنة غيره.

لكن رغم الفساد فإن الداعية المسلم لن يتخلى عن محاولة انتشال العباد، وإن كل وساوس اليأس من الإصلاح لن تلبث أن تتبدد أمام لحظة انتباه إيمانى تُريه مكانته المتوسطة لموكب الإيمان السائر، أخذ عن السلف، ولابد أن يسوق له قدر الله خلفًا يستلم الأمانة منه، ذلك وعد الله، وإنه لموكب لن ينقطع أبدًا، مضى به القول على لسان النبى ﷺ حين قال: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك» رواه مسلم.

لكن هناك أمورًا يجب أن يراعيها كل داع إلى الله جل وعلا: أهمها أن ينظر إلى أهل المعاصى بعين الرحمة والشفقة وأن يخشى عليهم من النار وأن يتذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤].

فمن هنا يجب أن تتذكر نعمة الله عليك وتعلم أن الفضل فى هدايتك إنما هو محض فضل الله عليك... وهذا يقودك إلى كراهية عمل المعصية والإشفاق على أهلها فإن كراهية المؤمن لهم ممزوجة بالألم من أجلهم، والإشفاق عليهم، وتمنى الخير لهم، والدعاء لهم بالتوفيق والهداية.

وكذلك فإن الذى يدعو إلى الله لابد أن يعمل أولاً بما يدعو إليه وإلا فلن تثمر الدعوة، ولذا قال الحق جل وعلا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ولابد أن تعلم يا أخى الحبيب أنك بمظهرك الإسلامى وأخلاقك الطيبة دعوة إلى الله وإن لم تتكلم.. ولذلك فإن الإسلام فى أشد الحاجة إلى مسلمين يراهم الناس ويلمسوا أخلاقهم فيرون الإسلام من خلالهم، فتلك والله دعوة عظيمة ونحن لا نقول إن الدعوة لا تكون إلا فى المساجد، بل على الموظف أن يدعو فى وظيفته والعامل فى مصنعه، وعلينا جميعًا أن ننظر إلى الناس بعين الرحمة وأن لا ننسى أن الهداية لها وقع عظيم فى نفوس الناس، فبها تتألف قلوب الناس ونتمكن من دعوتهم إلى الله جل وعلا. وهناك أمران فى عقيدة المسلم يجعلانه مع استمساكه بدينه، وثباته على إيمانه أشد الناس تسامحًا مع المخالفين له، والكافرين بدعوته.

أولهما: أن المسلم يعتقد اعتقادًا جازمًا أن من مقتضيات الإرادة الإلهية التى لا تخلو من الحكمة اختلاف الناس فى الدين والإيمان: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وإذا كانت مشيئة الله نافذة -ومشيئته تعالى مرتبطة بحكمته- فكيف يقاوم المؤمن مشيئة الله، أو ينكر حكمة الله؟

وثانيهما: أن الله قد أمر نبيه المصطفى أن يتجنب اللجاجة فى الجدل مع المخالفين، وأن يكل أمرهم إلى الله، ويعلنهم أن يوم الفصل بين المختلفين إنما هو

يوم القيامة، فلا داعى للجدال الذى يثير الفتن، والمراء الذى يوغر الصدر. قال تعالى لرسوله: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩].

ويقول: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]. ذلك هو المؤمن بعقيدة الإسلام: أحب الوجود كله، أحب الله...، أحب الحياة والموت، أحب القدر حلوه ومره، أحب الناس جميعًا، وإذا كره -ولابد- فإنما يكره الشيطان، ويكره حزب الشيطان، كُرهًا مقرونًا بالرحمة والإشفاق وحب الخير للناس جميعًا، إن هذا الحب هو دليل إيمانه بربه، وقائده إلى جنته[(١)].

***

(١) انظر الإيمان والحياة (ص/ ١٨٢)، إنا عرضنا الأمانة (ص/ ١٢٠)، علو الهمة (ص/ ٢٥٥)، المنطلق (ص/ ١٧٧)، بصائر تربوية (ص/ ١٣٥)، معالم فى الطريق (ص/ ١٦٨)، صناعة الحياة (ص/ ٦٠).

مواقف الصالحين

الموقف الأول

نذر نفسه للدعوة إلى الله

قال صاحب علو الهمة: أعرف أخًا يعيش فى ألمانيا، أحسبه -والله حسيبه- مجتهدًا فى الدعوة إلى الله غاية الاجتهاد، حتى لا يكاد يذوق طعمًا للراحة، وقد استحوذت الدعوة على كل كيانه، حتى أرهق نفسه، وشُغل عن بيته وأهله وولده، فرأى إخوانه أن يمنح عطلة إجبارية، وذهبوا به صحبة أسرته إلى منتجع ناءٍ لا يعرف فيه أحدًا، كى يهنأ ببعض الراحة، ، وواعدوه أن يعودوا لإرجاعه بعد أيام ولما رجعوا إليه وجدوه قد أسس جمعية إسلامية فى هذا المكان قوامها بعض العمال المغاربة وغيرهم ممن انقطعت صلتهم بالدين، ففتش عنهم فى مظان وجودهم، ودعاهم إلى طاعة الله سبحانه، وألَّف بينهم، وأقاموا مسجدًا كان فيما بعد منطلقًا للدعوة إلى الله فى تلك البلدة. إنها الحركة سر شيوع دعوة الإسلام المباركة فى أرجاء الدنيا، ينطلق بها جنود لا يعلمهم إلا الله[1] ﴿ وما يعلمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

الموقف الثانى

هل تريد شيئًا؟

وها هو رجل بسيط لم يتعلم العلم الشرعى ولكن قلبه قد امتلأ بحب الله والرغبة فى نصرة دين الله جل وعلا، فحضر يومًا درسًا لأحد الدعاة وفى أثناء الدرس قال الشيخ: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» رواه البخارى.

فتحرك قلب هذا الرجل البسيط لهذه الكلمات وخرج بعد انتهاء الدرس وقد عزم على أن يدعو إلى الله بهذا الحديث، فبدأ يدخل على البقال ويقول له:

(١) علو الهمة (ص/ ٢٨٣).

«كلمتان خفيفتان على اللسان» ثم يدخل على الجزار.. إلى أن أصبح همه كله أن يُعلِّم الناس جميعًا هذا الحديث. وفي يوم من الأيام يصاب هذا الرجل بمرض خطير... ويدخل غرفة العمليات ويُجرى له الدكتور عملية جراحية خطيرة - وكان هذا الدكتور لا يصلى ولا يعرف طريق المسجد.

وفجأة قام الرجل بعد إجراء العملية ولم يفق بعد من المخدر فقال: يا دكتور! فقال له الدكتور: هل تريد شيئًا؟! فقال له الرجل: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم». ثم مات الرجل!!

فتعجب الدكتور من هذا الرجل الذى قام وهو تحت تأثير المخدر ليقول له هذا الحديث العظيم. فتاب هذا الدكتور بسبب تلك الحادثة وذهب ليطلب العلم الشرعى حتى أصبح الآن من أشهر الدعاة إلى الله تعالى... وكل ذلك فى ميزان حسنات هذا الرجل البسيط الذى لم يتعلم العلم الشرعى ولكنه أخلص فى الدعوة إلى الله تعالى بحديث واحد تعلمه وذهب يدعو به الناس إلى الله تعالى[1].

الموقف الثالث

لا تضيعوا أعماركم مثلى

قال بعضهم: جلسنا يومًا فى المسجد للتعارف، فقال شيخ وقور يُعرِّف نفسه، وقد جاوز السبعين من عمره: اسمى الحاج وحيد الدين، أعمل فى التجارة، وعمرى الآن تسع سنوات!، فاستغربنا، وقلنا له فى دهشة: «تسع سنوات؟!»، قال: نعم، لأننى أحسب عمرى من تاريخ دخولى فى هذه الدعوة، أما قبل ذلك فإنى أعتبر عمرى ضائعًا! وكان هذا الرجل إذا وقف ليلقى موعظته يقول: «لا تضيعوا أعماركم مثلى، واشتغلوا بالدعوة إلى الله تعالى[2].

(١) مواقف فى حياة الأنبياء (ص/ ٦١٣).
(٢) علو الهمة (ص/ ٢٨١).

الموقف الرابع

عاهدت الله أن أبذل النصيحة لكل مسلم

إنها قصة مؤثرة، يرويها أحد الغيورين على دين الله، يقول:

خرجت ذات يوم بسيارتى لقضاء بعض الأعمال، وفى إحدى الطرق الفرعية الهادئة قابلنى شاب يركب سيارة صغيرة، لم يرنى، لأنه كان مشغولاً بملاحقة بعض الفتيات فى تلك الطريق الخالية من المارة. كنت مسرعًا فتجاوزته، فلما سرت غير بعيد قلت فى نفسى: أأعود فأنصح ذلك الشاب؟ أم أمضى فى طريقى وأدعه يفعل ما يشاء؟ وبعد صراع داخلى دام عدة ثوان فقط اخترت الأمر الأول. عُدت ثانية، فإذا به قد أوقف سيارته وهو ينظر إليهن ينتظر منهن نظرة أو التفاتة، فدخلن فى أحد البيوت.

أوقفت سيارتى بجوار سيارته، نزلت من سيارتى واتجهت إليه، سلمت عليه أولاً، ثم نصحته فكان مما قلته له: تخيل أن هؤلاء الفتيات أخواتك أو بناتك أو قريباتك فهل ترضى لأحد من الناس أن يلاحقهن أو يؤذيهن؟ كنت أتحدث إليه وأنا أشعر بشىء من الخوف، فقد كان شابًا ضخمًا ممتلئ الجسم، كان يستمع إلىَّ وهو مطرق الرأس، لا ينبس ببنت شفة ثم ودعته، لكنه استوقفنى، وطلب منى أن أكتب له رقم هاتفى وعنوانى، وأخبرنى أنه يعيش فراغًا نفسيًا قاتلاً، فكتبت له ما أراد.

وبعد أيام جاءنى فى البيت، لقد تغير وجهه وتبدلت ملامحه، فقد أطلق لحيته وقد شع نور الإيمان من وجهه. جلست معه، فجعل يحدثنى عن تلك الأيام التى قضاها فى «التسكع» فى الشوارع والطرقات وإيذاء المسلمين والمسلمات، فأخذت أسليه، وأخبرته بأن الله سبحانه واسع المغفرة، وتلوت عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣]. فانفرجت أسارير وجهه، واستبشر خيرًا، ثم

ودعنى وطلب منى أن أرد الزيارة، فهو فى حاجة إلى من يعينه على السير فى الطريق المستقيم، فوعدته بالزيارة. مضت الأيام، وشُغلت ببعض مشاغل الحياة الكثيرة، وجعلت أسوِّف فى زيارته. وبعد عدة أيام، وجدت فرصة وذهبت إليه.. طرقت الباب، فإذا بشيخ كبير يفتح الباب، وقد ظهرت عليه آثار الحزن والأسى، إنه والده. سألته عن صاحبى، أطرق برأسه إلى الأرض، وصمت برهة، ثم قال بصوت خافت: يرحمه الله ويغفر له، ثم استطرد قائلاً: حقًا إن الأعمال بالخواتيم. ثم أخذ يحدثنى عن حاله وكيف أنه كان مفرطًا فى جنب الله بعيدًا عن طاعة الله، فمنَّ الله عليه بالهداية قبل موته بأيام، لقد تداركه الله برحمته قبل فوات الأوان. فلما فرغ من حديثه عزيته ومضيت، وقد عاهدت الله أن أبذل النصيحة لكل مسلم(١).

الموقف الخامس

فتاة تدعو أختها للالتزام بدين الله

تقول هذه الفتاة: أنا طالبة فى المرحلة الثانوية، أعيش فى دولة «الإمارات العربية» ولها معزة خاصة عندى، ففى هذا البلد وفقنى الله إلى طريق الهداية. منذ قدومى إلى هذا البلد الشقيق وأنا قد أقمت حلفًا مع حضرة الأستاذ الموقر «التليفزيون» كنت لا أفارقه لحظة!! كنت لا أترك مسلسلاً ولا برنامج أطفال ولا أغنية ولا تمثيلية إلا وأشاهدها! فإذا جاء برنامج دينى أو ثقافى فسرعان ما أغلق الجهاز فتسألنى أختى لما فعلت ذلك؟ فأجيبها بخبث محتجة بكثرة الواجبات المدرسية والمنزلية، فتقول لى: الآن تذكرتى الواجبات؟ أين كنت عند مشاهدتك لتلك المسلسلات والأغانى والبرامج التافهة؟ وقد كانت أختى هذه على عكسى تمامًا، منذ أن علمتها أمى الصلاة لم تتركها إلا لعذر، أما أنا فلا أواظب عليها بل لا أكاد أصليها فى الأسبوع إلا مرة أو مرتين، لقد كانت أختى تتجنب التلفاز بقدر الإمكان، وقد أحاطت نفسها بصديقات صالحات يساعدنها فى فعل الخير.

(١) العائدون إلى الله (ص/٦٩).

كانت دائمًا تذكرني بالله وتعظني، فما أزداد إلا استكباراً وعنادًا بل كانت ساعات جلوسي أمام التلفاز تزداد يومًا بعد يوم. والتلفاز يتفنن في عرض أنواع المسلسلات التافهة، والأفلام الهابطة، والأغاني الماجنة التي لم أدرك خطورتها إلا بعد أن هداني الله عز وجل، فله الحمد والشكر. كنت أفعل ذلك كله وأنا في قرارة نفسي على يقين تام من أن ذلك حرام! وأن طريق الهداية واضح لمن أراد أن يسلكه، فكانت نفسي كثيرًا ما تلومني، وضميري يعذبني بشدة، لا سيما أن الأمر لم يكن مقتصراً على ارتكاب المعاصي بل تعداه إلى ترك الفرائض، لذا كنت دائمًا أتجنب الجلوس بمفردي، حتى عندما أخلد إلى النوم والراحة فإني أحاول أن أشغل نفسي بكتاب أو بمجلة، حتى لا أدع مجالاً لتوبيخ النفس أو تأنيب الضمير. وظللت على هذا الحال مدة خمس سنوات حتى جاء اليوم الذي وفقني الله فيه إلى طريق الهداية، كنا في إجازة نصف العام وأرادت أختي أن تلتحق بدورة لتحفيظ القرآن الكريم في إحدى الجمعيات الإسلامية فعرضت عليّ أن أذهب معها، فوافقت أمي ولكنني رفضت بل رفضت بشدة، وأقمت الدنيا وأقعدتها وقلت بأعلى صوتي: لا أريد، وكنت عازمة في قرارة نفسي على العكوف على هذا الجهاز الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتي العابثة، فمالي وما لحلقات تحفيظ القرآن!!

وحضر أبي فشكوت له ما حدث، فقال لهم: دعوها ولا تجبروها على الذهاب واتركوها على راحتها، وكانت لي عند أبي معزة خاصة؛ لأني ابنته الوسطى، فليس لي سوى أختي الكبرى وأخي الذي يصغرني بكثير، وقد قال ذلك وهو يظن أني محافظة على صلاتي، ولم يكن يعلم أن الأمر مختلف جدًا. صحيح لم أكن أكذب عليه حين يسألني أصلّيتي؟ فأقول: نعم؛ فقد كنت أقوم وأصلي أمامه عندما يكون موجودًا فإذا ذهب إلى عمله تركت الصلاة. وكان أبي يمكث في عمله من ثلاثة إلى أربعة أيام، وذات يوم طلب أبي مني أن أرافق أختي ولو لمرة واحدة، فإن أعجبني الحال وإلا فلتكن المرة الأولى والأخيرة، فوافقت لأني أحب

أبى ولا أردّ له طلبًا. وانطلقت إلى روضة القرآن... هناك رأيت وجوهًا متوضئة مشرقة بنور الإيمان، وأعين باكية لم تدمن النظر إلى الحرام مثلما كنت أفعل، فتمالكنى شعور فياض لا أستطيع له وصفًا، شعور بالسعادة والرهبة، يخالطه إحساس بالندم والتوبة. وأحسست بأننى قريبة من الله عز وجل، فرق قلبى وانهمرت دموعى ندمًا على الأوقات التى ضيعتها فى غير مرضات الله عز وجل أمام شاشة التلفاز، أو فى مجالس اللغو مع رفيقات السوء اللاتى لا همّ لهن إلا القيل والقال. كم كنت غافلة عن تلك المجالس النورانية التى تحفها الملائكة وتغشاها السكينة والرحمة، والتى ذقت فيها من نعم الله ما لم أذق قط فى حياتى. عشت فى جنات القرآن هادئة النفس مطمئنة السريرة قريرة الضمير، وانتهيت إلى يقين جازم حاسم أنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ولا رفعة ولا طهارة، إلا بالرجوع إلى الله. إن الحياة فى ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، نعم لقد هدانى الله عز وجل، وقد كنت أبارزه بالعصيان، وأقدم ما يرضى نفسى على ما يرضيه سبحانه، وما يأمرنى به الشيطان على ما يأمرنى به الرحمن!! باختصار لقد كنت غافلة فأيقظنى القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]. واليوم أتساءل كيف كنت سألقى ربى لو لم يهدنى؟ حقًا إننى خجلة من نفسى وقبل ذلك من ربى وصدق القائل:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

أتوب إليك ربى وأستغفرك، إنك أنت التواب الرحيم. أختى الحبيبة حلقات القرآن فى انتظارك، فلا تترددى فى الالتحاق بها والله يحفظك ويرعاك[1].

(١) العائدون إلى الله (ص/٦٣).

الموقف السادس

انصرى أختاه هذا الدين

سوزى مظهر لها أكثر من عشرين عامًا فى مجال الدعوة إلى الله، ارتبط اسمها بالفنانات التائبات، لها دور دعوى بينهن روت قصة توبتها فقالت: تخرجت من مدارس الماردييه، ثم فى قسم الصحافة فى كلية الآداب، عشت مع جدتى والدة الفنان أحمد مظهر فهو عمى، كنت أجوب طرقات حى الزمالك وأرتاد النوادى، وكأننى أستعرض جمالى أمام العيون الحيوانية بلا حرمة تحت مسميات التحرر والتمدن! وكانت جدتى العجوز لا تقوى علىَّ وحتى أبى وأمى.. فأولاد الذوات هكذا يعيشون كالأنعام بل أضل سبيلاً إلا من رحم الله. حقيقة كنت فى غيبوبة عن الإسلام إلا عن بعض حروفه، لكن برغم المال والجاه كنت أخاف من شىء ما، أخاف من مصادر الغاز والكهرباء، وأظن أن الله سيحرقنى جزاء ما أنا فيه من معصية. وكنت أقول فى نفسى إذا كانت جدتى مريضة وهى تصلى، فكيف أنجو من عذاب الله غدًا؟ فأهرب بسرعة من تأنيب ضميرى بالاستغراق فى النوم أو الذهاب إلى النادى. وعندما تزوجت ذهبت مع زوجى إلى أوروبا لقضاء ما يسمى بشهر العسل، وكان مما لفت نظرى هناك أننى عندما ذهبت إلى «الفاتيكان» فى روما وأردت دخول المتحف البابوى أجبرونى على ارتداء البالطو أو الجلد الأسود على الباب. هكذا يحترمون دياناتهم المحرفة، وهنا تساءلت بصوت خافت، فما بالنا نحن لا نحترم ديننا؟ وفى موج سعادتى الدنيوية المزيفة قلت لزوجى: أريد أن أصلى شكرًا لله على نعمته، فأجابنى: افعلى ما تريدين فهذه حرية شخصية، وأحضرت معى ذات مرة ملابس طويلة وغطاء للرأس، ودخلت المسجد الكبير فى باريس وأديت الصلاة. وعلى باب المسجد أزحت الغطاء وخلعت الملابس الطويلة وهممت أن أضعها فى الحقيبة. وهنا كانت المفاجأة. اقتربت منى فتاة فرنسية ذات عيون زرقاء -لن أنساها طوال عمرى- ترتدى الحجاب أمسكت يدى برفق وربتت على كتفى، وقالت بصوت منخفض: لماذا تخلعين الحجاب؟ ألا تعلمين أنه أمر الله؟ كنت أستمع لها فى ذهول، والتمست منى أن أدخل معها المسجد بضع

دقائق، حاولت أن أفلت منها لكن أدبها الجم، وحوارها اللطيف، أجبرني على الدخول. سألتني: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ أتفهمين معناها؟ إنها ليست كلمات تقال باللسان، بل لابد من التصديق والعمل بها. لقد علمتني هذه الفتاة أقسى درس في الحياة، اهتز قلبي وخضعت مشاعري لكلماتها. ثم صافحتني قائلة: انصري يا أختي هذا الدين. خرجت من المسجد وأنا غارقة في التفكير لا أحس بمن حوالي. ثم صادف هذا اليوم أن صاحبني زوجي في سهرة إلى كباريه -وهو مكان إباحي يتراقص فيه الرجال مع النساء شبه عرايا، ويفعلون كالحيوانات بل إن الحيوانات لتترفع أن تفعل مثلهم، ويخلعون ملابسهم قطعة قطعة على أنغام الموسيقى -كرهتهم وكرهت نفسي الغارقة في الضلال، لم أنظر إليهم ولم أحس بمن حولي، وطلبت من زوجي أن أخرج حتى أستطيع أن أتنفس، ثم عدت فورًا إلى القاهرة. وبدأت أولى خطواتي للتعرف على الإسلام، وعلى الرغم مما كنت فيه من زخرف الحياة الدنيا إلا أنني لم أعرف الطمأنينة والسكينة، ولكني كنت أقترب إليها كلما صليت، أو قرأت في كتاب الله. واعتزلت طريقة الحياة الجاهلية من حولي، واعتكفت على قراءة القرآن ليلاً ونهارًا، وأحضرت كتب ابن كثير وغيرها، كنت أنفق الساعات الطويلة في حجرتي للقراءة بشوق وشغف. قرأت كثيرًا وهجرت حياة النوادي، وسهرات الضلال، وبدأت أتعرف على أخوات مسلمات، ورفض زوجي في البداية حجابي، واعتزالي حياتهم الجاهلية، لم أعد أختلط بالرجال من الأقارب وغيرهم، ولم أعد أُصافح الذكور، وكان امتحانًا من الله، ولكن أولى خطوات الإيمان هي الاستسلام لله، وأن يكون الله ورسوله أحب إلي مما سواهما، وحدثت مشاكل كادت تفرق بيني وبين زوجي. ولكن الحمد لله فرض الإسلام وجوده على بيتنا الصغير، وهدى الله زوجي وأصبح الآن خيرًا مني، داعية مخلصًا لدينه نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله، وبرغم المرض والحوادث الدنيوية، والابتلاءات التي تعرضنا لها، فنحن سعداء ما دامت مصيبتنا في دنيانا وليست في ديننا[1].

(١) العائدون إلى الله (ص/ ٥٠).

الموقف السابع

أتوجه إلى كل معلمة ألا تتهاون فى إسداء النصح

تقول: لا أدرى بأى كلمات سوف أكتب قصتى؟ أم بأى عبارات الذكرى الماضية التى أتمنى أنها لم تكن سوف أسجلها؟ فقد كان إقبالى على سماع الغناء كبيرًا حتى أنى لا أنام، ولا أستيقظ إلا على أصوات الغناء، أما المسلسلات والأفلام فلا تسل عنها فى أيام العطل لا أفرغ من مشاهدتها إلا عند الفجر. فى ساعات يتنزل فيها الرب سبحانه إلى السماء الدنيا فيقول: «**هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه سؤاله**» متفق عليه. وأنا ساهرة على أفلام الضياع، أما زينتى وهيئتى فكهيئات الغافلات أمثالى فى هذا السن قصة غريبة، ملابس ضيقة وقصيرة، أظافر طويلة، تهاون بالحجاب، إلى آخره. وفى الصف الثانى الثانوى دخلت علينا معلمة الكيمياء، وكانت معلمة فاضلة صالحة شدنى إليها حُسن خلقها، وإكثارها ذكر الفوائد، وربطها مادة الكيمياء بالدين. حملتنى أقدامى إليها مرة لا أدرى ما الذى ساقنى إليها؟ لكنها كانت البداية. ثم جلست إليها مرة ومرتين فلما رأت منى تقبلاً واستجابة نصحتنى بالابتعاد عن سماع الغناء ومشاهدة المسلسلات.

قلت لها: لا أستطيع. قالت: من أجلى. قلت: حسنًا من أجلك وصمت قليلاً ثم قلت لها: لا ليس من أجلك بل لله إن شاء الله. وكانت قد علمت منى روح التحدى. فقالت: ليكن تحديًا بينك وبين الشيطان فلننظر لمن ستكون الغلبة. فكانت آخر حلقة فى ذلك اليوم فلا تسل عن حالى بعد ذلك وأنا أسمع من بعيد أصوات الممثلين فى المسلسلات، أأتقدم وأشاهد المسلسل؟ إذًا سيغلبنى الشيطان، من تلك اللحظة تركت سماع الغناء ومشاهدة المسلسلات، ولكن بعد شهر تقريبًا عدت إلى سماع الغناء، واستطاع الشيطان على الرغم من ضعف كيده كما أخبرنا الله أن يغلبنى لضعف إيمانى بالله.

وفى السنة الثالثة وهى الأخيرة دخلت علينا معلمة أخرى كنت لا أطيق حصتها وعبارتها الفصيحة ونصائحها، إنها معلمة اللغة العربية وفى أول امتحان لمادة النحو

فوجئت بالحصول على درجة ضعيفة جدًا، وقد كتبت المعلمة فى ذيل الورقة عبارات عن إخلاص النية فى طلب العلم وضرورة مضاعفتى للجهد، فضاقت بى الأرض بما رحبت فما اعتدت الحصول على مثل هذه الدرجة ولكن وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. ذهبت أحثو الخطى إليها فبأى حق توجه إلىَّ هذه العبارات؟ فأخذت تحدثنى عن إخلاص النية فى طلب العلم و... و...

وفى اليوم التالى أخبرتنى إحدى الأخوات أن المعلمة تريدنى فلم ألق لذلك بالاً. ولكن شاء الله أن أقابلها عند خروجها وهى تحمل فى يدها مصحفًا صغيراً صافحتنى ووضعت المصحف فى يدى، وقبضت على يدى وقالت لى: لا أقول لك هدية، ولكن أمانة، فإن استطعت حملها وإلا فأعيديها إلىَّ. فوقع فى نفسى حديثها، ولكنى لم أستشعر ثقل تلك الأمانة إلا بعد مقابلة إحدى الأخوات الصالحات. فسألتنى: ماذا تريد منك؟ فقلت: إنها أعطتنى المصحف وقالت لى أمانة، فتغير وجه هذه الأخت الصالحة وقالت: أتعلمين ما معنى أمانة؟ تعلمين ما مسئولية هذا الكتاب؟ تعلمين كلام من هذا؟ وأوامر من هذه؟ عندها استشعرت عظم هذه الأمانة. وكان القرآن الكريم أعظم هدية أهديت إلىَّ، فانهمكت فى قراءته، وهجرت وبكل قوة وإصرار الغناء والمسلسلات. إلا أن هيئتى لم تتغير، قصة غربية، وملابس ضيقة، أما تلك المعلمة فقد تغيرت مكانتها فى نفسى، وأصبحت أكن لها كل حب وتقدير واحترام، هذا مع حرصها على الفوائد فى حصتها وربط الدرس بالتحذير مما يريده منا الغرب من التحلل والإباحية ونبذ كتاب الله جانبًا. وفى كل أسبوع كانت تكتب لنا فى إحدى زوايا السبورة آية عن كتاب الله وتطلب منا تطبيق ما فى هذه الآية من الأحكام. وهكذا ظلت توالى من نصائحها، بالإضافة إلى نصائح بعض الأخوات، حتى تركت قصة الشعر الغربية عن اقتناع وأنها لا تليق بالفتاة المسلمة المؤمنة، وأنها ليست من صفات المؤمنين فتحسن حالى ولله الحمد، والتزمت بالحجاب الكامل من تغطية الكفين والقدمين بعد ما كنت أنا وإحدى الصديقات نحتقر لبس الجوارب حتى أننا كنا نلبسه فوق

الحذاء؛ استهزاءً ونضحك من ذلك المنظر. أنهيت الثانوية العامة، والتحقت بجامعة «الإمام محمد بن سعود الإسلامية» وفي يوم من الأيام ذهبت مع إحدى الأخوات إلى مغسلة الأموات؛ فإذا المغسلة تغسل شابة تقارب الثالثة والعشرين من عمرها، ولا أستطيع وصف ما رأيت.. تُقلب يمينًا وشمالاً لتُغسل وتُكفن وهي باردة كالثلج. أمها حولها وأختها وأقاربها أتراها تقوم وتنظر إليهم آخر نظرة وتعانقهم وتودعهم؟ أم تراها توصيهم آخر وصية؟ كلا لا حراك وإذ بأمها تقبلها على خديها وجبينها، وهي تبكي بصوت وتقول: اللهم ارحمها.. اللهم وسع مدخلها.. اللهم اجعل قبرها روضة من رياض الجنة، وتقول لها: قد سامحتك يا ابنتي، ثم يسدل الستار على وجهها بالكفن. ما أصعبه من منظر، وما أبلغها من موعظة، لحظات وستوضع في اللحد ويهال عليها التراب، وتسأل عن كل ثانية من حياتها، فوالله مهما كتبت من عبارات فلن أستطيع أن أحيط بذلك المشهد، لقد غير هذا المشهد أمورًا كثيرة في حياتي، زهدني في هذه الدنيا الفانية. وإني أتوجه إلى كل معلمة وداعية بل إلى كل مسلمة أيًا كان مركزها ألا تتهاون في إسداء النصح، وتقديم الكلمة الطيبة، حتى ولو أُقفلت في وجهها جميع الأبواب، حسبها أن باب الله مفتوح. كما أتوجه إلى كل أخت غافلة عن ذكر الله منغمسة في ملذات الدنيا وشهواتها: عودي إلى الله أُخية. فوالله إن السعادة كل السعادة في طاعة الله، وإلى كل من رأت في قلبها قسوة، أو ما استطاعت ترك ذنب ما أن تذهب إلى مغسلة الأموات وتراهم وهم يغسلون، ويكفنون، فوالله إنها من أعظم العظات، وكفى بالموت واعظًا، أسأل الله لي ولكم حُسن الخاتمة[1].

الموقف الثامن

الدعوة في المقاهي

يقول الإمام حسن البنا -طيب الله ثراه- عرضت على زملائي وأنا طالب بدار العلوم أن نخرج للوعظ في المقاهي فعارضوا.. وكنت أخالفهم في هذه النظرة،

(١) العائدون إلى الله (ص/٥٣).

وكنت أعتقد أن كثيراً من رواد المقاهى فيهم خير. إن العبرة بحسن اختيار الموضوع فلا نتعرض لما يجرح شعورهم. وبطريقة العرض فتعرض بأسلوب شائق جذاب. وبالوقت فلا نطيل عليهم القول. وقمنا بالتجربة فألقيت فى أول ليلة أكثر من عشرين خطبة تستغرق الواحدة منها ما بين خمس دقائق إلى عشر. ولقد كان شعور السامعين عجيبًا، وكانوا دائمًا بعد الخطبة يقسمون أن نشرب شيئًا، فنعتذر لهم بضيق الوقت وبأننا نذرنا هذا الوقت لله. وكان أسوتنا قول كل رسول: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ [الأنعام: ٩٠] ونجحت التجربة مائة فى المائة بفضل الله وتوفيقه[١].

الموقف التاسع

أين الناس؟!

قال الشيخ على الطنطاوى -طيب الله ثراه-: دخلت أحد مساجد مدينة حلب فوجدت شابًا يصلى فقلت: سبحان الله إن هذا الشاب من أكثر الناس فسادًا: يشرب الخمر، ويفعل الزنا، ويأكل الربا، وهو عاق لوالديه، وقد طرداه من البيت، فما الذى جاء به إلى المسجد؟!، فاقتربت منه وسألته: أنت فلان؟!، قال: نعم.. قلت: الحمد لله على هدايتك.. أخبرنى كيف هداك الله؟، قال: هدايتى كانت على يد شيخ وعظنا فى مرقص.. قلت مستغربًا: فى مرقص؟!، قال: نعم... فى مرقص، قلت: كيف ذلك؟!، قال: هذه هى القصة.. فأخذ يرويها، فقال: «كان فى حارتنا مسجد صغير.. يؤم الناس فيه شيخ كبير السن.. وذات يوم التفت الشيخ إلى المصلين وقال لهم: أين الناس؟!.. ما بال أكثر الناس وخاصة الشباب لا يقربون المسجد، ولا يعرفونه؟! فأجابه المصلون: «إنهم فى المراقص والملاهى».. قال الشيخ: وما هى المراقص والملاهى؟! رد عليه أحد المصلين: «المرقص صالة كبيرة فيها خشبة مرتفعة تصعد عليها الفيتات عاريات أو شبه عاريات يرقصن والناس حولهن ينظرون إليهن».. فقال الشيخ: والذين ينظرون إليهن من المسلمين؟، قالوا: نعم.. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.. هيا

(١) مذكرات الدعوة والداعية (ص/ ٥٦).

بنا إلى تلك المراقص ننصح الناس.. قالوا له: يا شيخ.. أين أنت.. تعظ الناس وتنصحهم فى المراقص؟! قال: نعم، حاولوا أن يثنوه عن عزمه، وأخبروه أنهم سيواجهون بالسخرية والاستهزاء، وسينالهم الأذى فقال: وهل نحن خير من محمد ﷺ؟!، وأمسك الشيخ بيد أحد المصلين ليدله على المرقص، وعندما وصلوا إليه سألهم صاحب المرقص: ماذا تريدون؟! قال الشيخ: نريد أن ننصح من فى المرقص، تعجب صاحب المرقص.. وأخذ يمعن النظر فيهم، ورفض السماح لهم.. فأخذوا يساومونه ليأذن لهم، حتى دفعوا له مبلغًا من المال يعادل دخله اليومى، وافق صاحب المرقص.. وطلب منهم أن يحضروا فى الغد عند بدء العرض اليومى قال الشاب: فلما كان الغد كنت موجودًا فى المرقص.. بدأ الرقص من إحدى الفتيات.. ولما انتهت أسدل الستار ثم فتح.. فإذا بشيخ وقور يجلس على كرسى، فبدأ بالبسملة، وحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ، ثم بدأ فى وعظ الناس الذين أخذتهم الدهشة، وتملكهم العجب، وظنوا أن ما يرونه هو فقرة فكاهية.. فلما عرفوا أنهم أمام شيخ يعظهم أخذوا يسخرون منه، ويرفعون أصواتهم بالضحك والاستهزاء، وهو لا يبالى بهم.. واستمر فى نصحه ووعظه حتى قام أحد الحضور، وأمرهم بالسكوت والإنصات حتى يسمعوا ما يقوله الشيخ. قال: وبدأ السكون والهدوء يخيم على أنحاء المرقص حتى أصبحنا لا نسمع إلا صوت الشيخ، فقال كلامًا ما سمعناه من قبل.. تلا علينا آيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية، وقصصًا لتوبة بعض الصالحين، وكان مما قاله: أيها الناس إنكم عشتم طويلاً وعصيتم الله كثيرًا.. فأين ذهبت لذة المعصية؟ لقد ذهبت اللذة، وبقيت الصحائف سوداء ستسألون عنها يوم القيامة، وسيأتى يوم يهلك فيه كل شىء إلا الله سبحانه وتعالى.. أيها الناس.. هل نظرتم إلى أعمالكم إلى أين ستؤدى بكم؟ إنكم لا تتحملون نار الدنيا، وهى جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم فكيف بنار جهنم.. بادروا بالتوبة قبل فوات الأوان قال: فبكى الناس جميعًا.. وخرج الشيخ من المرقص، وخرج الجميع وراءه، وكانت توبتهم على يده، حتى صاحب المرقص تاب، وندم على ما كان منه»(١).

(١) علو الهمة (ص/ ٢٨٥).

الموقف العاشر

طالبة تدعو معلمتها إلى الاستقامة

إن الاهتمام بالحجاب والمحافظة عليه هو الخطوة الأولى فى طريق الالتزام والاستقامة بالنسبة للمرأة، ولست أعنى بالحجاب حجاب العادة والتقليد الذى تلبسه المرأة فتزداد به فتنة فى أعين ذئاب البشر، وإنما أعنى الحجاب الشرعى الكامل الذى يكسب المرأة احترامًا وتقديرًا، كما قال تعالى عن نساء المؤمنين فى آية الحجاب: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. فإذا رأى الناس المرأة المتحجبة الحجاب الشرعى الكامل، عرفوا أنها من النساء العفيفات، فلم يجرؤوا على إيذائها والتعرض لها. وبلادنا -والحمد لله- قد تميزت نساؤها بارتداء الحجاب الكامل الذى يشمل الوجه بالدرجة الأولى، وإن كانت هناك محاولات مستمرة من قبل بعض الأدعياء لإقناع المرأة بنزع غطاء الوجه كخطوة أولى فى طريق طويل لنزع الحجاب بأكمله ليصل الأمر فى نهاية الطريق إلى العرى الكامل والاختلاط فى الأماكن العامة وعلى شواطئ البحار وغيرها كما هو الحال فى كثير من البلاد التى نجح فيها المفسدون فى الوصول إلى مآربهم، ولكن هذه البلاد تختلف عن غيرها، ونساؤها -ولله الحمد- على وعى تام بما يدبره الأعداء، وإن لبسوا لباس الدين، بمظهر الناصحين والمشفقين. والقصة التى أرويها لكم مثال رائع لفتيات هذا البلد المسلم. تقول صاحبة القصة: تعودت -فى بلادى- أن أخرج بلا حجاب.. أرتدى الأزياء المتعارف عليها.. وأحرص على آخر خطوط الموضة. شاء الله -عز وجل- أن أحضر إلى المملكة بعقد عمل مع إحدى الجهات، وفى بداية عملى كان لابد من الالتزام بعادات البلد وتقاليدها، فلبست العباءة والغطاء، وظللت على هذه الحال حتى جاء موعد سفرى لبلدى. وفى المطار خلعت العباءة والحجاب، وفوجئت بإحدى طالباتى مسافرة معى لبلدى لقضاء العطلة. سعدت جدًا برؤية طالبتى، وما إن سلّمت علىّ حتى فاجأتنى بقولها: لم أتوقع يا معلمتى أنك لا تريدين الحجاب، عكس ما كنت أراك فيه أثناء الدراسة..».

سألتـها: لماذا تقولين هذا. . إننــى حريصة على أداء واجـباتى الدينية كـالصلاة وعدم فعل أى منكـر. فأجابت: إن ما أنت عليه الآن هو عين المـنكر. شعرت فى تلك اللحظة بالحرج من طالبتى التى لم تتجاوز السـادسة عشرة من عمرها، وهى التى تنصحنى وتوجهنى إلى طريق الصواب.

حقيقة شعرت بضـآلة وضعى، وتمنيت أن الأرض ابتلعتنى من شدة خجلى من الله سبـحانه وتعـالى. ومن ذلك اليوم قـررت ارتداء الحجاب طاعـة لله سبـحانه وامتثالاً لأمره، وحفظًا لكرامتى ونفسى من عيون الأجانب.

فلله در هذه الطالبة النجـيبة -بنت السادسـة عشر ربيعًا- مـا أروع ما صنعت، وإن المسلم ليفتخر بوجود أمثال هذه الفـتاة المؤمنة فى مجتمعه، ويضرع إلى المولى القدير -عز وجل- أن يحفظ نساء المسلمين وبناتهم من كل مفسد عميل وكل فكر دخيل، إنه ولى ذلك والقادر عليه(١).

الموقف الحادى عشر

لابد من إنقاذهما قبل فوات الأوان

«على حـضرات الركاب المسـافرين على الرحـلة رقم. . . والمتوجـهة إلى. . . التوجه إلى صالة المـغادرة، استعداداً للسفر». دوّى هذا الصـوت فى جنبات مبنى المطار. . أحد الدعاة كان هناك جالسًا فى الصالة، وقد حزم حقائبه، وعزم على السفر إلى بلاد الله الـواسعة للدعوة إلى الله -عز وجل- سـمع هذا النداء فأحس بامتعاض فى قلبـه، إنه يعلم لماذا يسافر كثير من النـاس إلى تلك البلاد، وخاصة الشباب. وفجـأة، لمح هذا الشيخ الجليل شابين فى العشرين من عـمرهما أو تزيد قليلاً، وقد بدا من ظاهرهما ما يدل على أنهما لا يريدان إلا المتعة الحرام من تلك البلاد التى عُرفت بذلك.

لابد من إنقاذهما قبل فوات الأوان قالهـا الشيخ فى نفسه، وعزم على الذهاب إليهـا ونصحهـمـا، فوقف الشيطان فى وجهه، وقـال له: مالك ولهما؟! دعـهما يمضيان فى طريقهما ويرفها عن نفسيهما، إنهما لن يستجيبا لك.

(١) دموع التائبات (ص/ ٧١).

ولكنَّ الشيخ كان قوى العزيمة، ثابت الجأش، عالمًا بمداخل الشيطان ووساوسه، فبصق فى وجه الشيطان، ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء، وعند بوابة الخروج استوقف الشابين بعد أن ألقى عليهما التحية، ووجه إليهما نصيحة مؤثرة، وموعظة بليغة، وكان ما قاله لهما: ما ظنكما لو حدث خلل فى الطائرة، ولقيتما -لا قدر الله- حتفكما وأنتما على هذه النية قد عزمتما على مبارزة الجبار -جل جلاله- فبأى وجه ستقابلان ربكما يوم القيامة؟!

وذرفت عينا هذين الشابين، ورق قلباهما لموعظة الشيخ، وقاما فورًا بتمزيق تذاكر السفر، وقالا: يا شيخ: لقد كذبنا على أهلينا، وقلنا لهم إننا ذاهبان إلى مكة أو جدة، فكيف الخلاص؟ وماذا نقول لهم؟ وكان مع الشيخ أحد طلابه، فقال: اذهبا مع أخيكما هذا، وسوف يتولى إصلاح شأنكما. ومضى الشابان مع صاحبهما وقد عزما على أن يبيتا عنده أسبوعًا كاملاً، ومن ثم يعودان إلى أهلها. وفى تلك الليلة، وفى بيت ذلك الشاب -تلميذ الشيخ- ألقى أحد الدعاة كلمة مؤثرة زادت من حماسهما، وبعدها عزم الشابان على الذهاب إلى مكة لأداء العمرة، وهكذا: أرادا شيئًا، وأراد الله شيئًا آخر، فكان ما أراده الله -عز وجل-. وفى الصباح، وبعد أن أدى الجميع صلاة الفجر، انطلق الثلاثة صوب مكة -شرفها الله- بعد أن أحرموا من الميقات... وفى الطريق.. كانت النهاية.! وفى الطريق.. كانت الخاتمة..! وفى الطريق.. كان الانتقال إلى الدار الآخرة.!

فقد وقع لهم حادث مروع ذهبوا جميعًا ضحيته، فاختلطت دماؤهم الزكية بحطام الزجاج المتناثر، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت الحطام وهم يرددون تلك الكلمات الخالدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك». كم كان بين موتهما وبين تمزيق تذاكر سفرهما لتلك البلاد المشبوهة؟! إنها أيام، بل ساعات معدودة، ولكن الله أراد لهما الهداية والنجاة، ولله الحكمة البالغة سبحانه[1].

(١) العائدون إلى الله (ص/١٣٩).

الموقف الثاني عشر

الأعمال بالخواتيم

عاش هذا الشـاب على المعصية زمـانًا طويلاً. . كان مدمنًا لشـرب الخمر. . لا يصلي. . كان عاقًا لوالديـه. . مؤذيًا لجيرانه. . وفجأة كان على مـوعد مع سعادة الدنيا والآخـرة. . فبينمـا هو يسير ذات يوم وإذا ببعـض الشباب الصالحين أمـامه يبتسمون في وجهه ويدعونه إلى الله -بكل رحمة- فبدأوا يكلمونه عن الجنة والنار فتأثر هذا الشاب وانفتح قلبه ليستقبل هذا النور. وإذا به يسألهم: ماذا أصنع؟ قالوا له: اذهب وتوضأ وتعال إلى بيت الله لتسجـد بين يديه، وسوف يبدل الله سيئاتك كلها إلى حـسنات. نعم والله. . . أليس الله هو القائل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَـمَلاً صَـالِحًـا فَـأُوْلَئِكَ يُبَـدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَـاتِهِمْ حَـسَنَاتٍ وَكَـانَ اللَّهُ غَـفُـوراً رَّحِـيمًـا﴾ [الفرقان: ٧٠].

فذهب هذا الشـاب التائب إلى بيـته فتـوضأ وذهب إلى المسجـد، وإذا بصلاة المغرب قد أقيمت فدخل يصلي، وما إن سجد بين يدي الله جل وعلا حتى فاضت روحه إلى بارئها، ومات هذا الشاب وهو ساجد.

وصدق رسول الله ﷺ: «... وإن الرجل ليعـمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يُختم له عمله بعمل أهل الجنة»[(١)].

فمنذ سـاعة كان مدمنًا لشـرب الخمور، وإذا به يموت ساجـدًا بين يدي الرحيم الغفور. فنسأل الله حسن الخاتمة[(٢)].

***

(١) صحيح: رواه مسلم.
(٢) مواقف من حياة الأنبياء (ص/ ١٤٠).

• بر الوالدين •

مواقف الصالحين

- منعه البر من صحبة النبى ﷺ
- أمرضه وليس لى من ميراثه شىء.
- نموذج رائع للبر
- هل أديت حقها؟
- ما أردت إلى هذا؟
- أخاف أن أكون قد عققتها
- أم تحكى بر ولدها بها
- لأنه كان صديق والدى
- إنى اخترت رضى الوالدة

بر الوالدين

أوصى الله تعالى فى مواضع من كتابه بالإحسان إلى الوالدين، وقرنه بالأمر بعبادته والنهى عن الشرك به، وأمر بالشكر لهما متصلاً بالشكر له، وخص الأم بالذكر فى بعض هذه الوصايا للتذكير بزيادة حقها على حق الأب.

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦] والأمر بالإحسان إلى الوالدين عام مطلق؛ ينضوى تحته ما يرضى الابن ومالا يرضيه من غير احتجاج ولا جدل ولا مناقشة: وهذه نقطة هامة جداً يجب الانتباه إليها لأن أكثر الأبناء يغفلون عنها إذ يحسبون أن البر فيما يروق لهم، ويوافق رغباتهم. والحقيقة على عكس ذلك تماماً.

فالبر لا يكون إلا فيما يخالف أهواءهم وميولهم، ولو كان فيما يوافقهما لما سمى براً.

شروط البر ثلاثة:

الأول: أن يؤثر الولد رضا والديه على رضا نفسه وزوجته وأولاده والناس أجمعين.

الثاني: أن يطيعهما فى كل ما يأمرانه به وينهيانه عنه، سواء أوافق رغباته أم لم يوافقها، ما لم يأمراه بمعصية الله تعالى.

الثالث: أن يقدم لهما كل ما يلحظ أنهما يرغبان فيه من غير أن يطلباه منه عن طيب نفس وسرور، مع شعوره بتقصيره فى حقهما ولو بذل لهما دمه وماله.

ولا يختص بر الوالدين بكونهما مسلمين، بل يبرهما وإن كانا كافرين، ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد، قال تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ [الممتحنة: ٨]. وعن أسماء رضى الله عنها

قالت: «قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت النبي ﷺ، فقلت: «يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ، وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم، صلي أمك»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال عز وجل: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

فإذا أمر الله تعالى بمصاحبة هذين بالمعروف مع هذا القبح العظيم الذى يأمران ولدهما به، وهو الإشراك بالله تعالى، فما الظن بالوالدين المسلمين سيما إن كانا صالحين، تالله إن حقهما لمن أشدِّ الحقوق وآكدها، وإن القيام به على وجهه أصعب الأمور وأعظمها، فالموفق من هُدِي إليها، والمحروم كل المحروم من صرف عنها، وقد جاء فى السنة من التأكيد فى ذلك ما لا تُحصى كثرته، ولا تحد غايته، فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟»، قال: «أمك»، قال: «ثم من؟»، قال: «أمك»، قال: «ثم من؟» قال: «أمك»، قال: «قال ثم من؟»، قال: «ثم أبوك»[2].

وعن المقدام بن معدى كرب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب»[3].

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣/ ١٧)، ومسلم (١٠٠٣)، وأبو داود (١٦٦٨)، وأحمد (٦/ ٣٤٤).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٣/ ٤)، ومسلم (٢٥٤٨).

(٣) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد (٦٠)، وابن ماجه (٣٦٦١)، وغيرهم وصححه الألبانى (١٦٦٦).

وعن أبي رمثة رضي الله عنه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ فسمعته يقول: «بر أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟، قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: «ثم أي؟» قال: «ثم بر الوالدين»، قلت: «ثم أي؟» قال: «ثم الجهاد في سبيل الله» قال: «حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته، لزادني»(٢).

فأخبر ﷺ أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام، ورتب ذلك بـ«ثم» التي تقتضي الترتيب والمهلة.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لرجل استأذنه في الجهاد: «أحَيٌّ والداك؟»، قال: «نعم»، قال: «ففيهما فجاهد»(٣). وعن معاوية ابن جاهمة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله! أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك؟»، فقال: «هل لك أم؟»، قال: «نعم»، قال: «فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها»(٤).

بر الوالدين بعد موتهما:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٥).

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ١٥١)، وصححه الألباني في الإرواء (٣/ ٣٢٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري، ومسلم (١٣٩).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦/ ٩٧)، ومسلم (٢٥٤٩)، وأبو داود (٢٥٣٠)، والترمذي (١٦٧١).

(٤) حسن: رواه النسائي (٦/ ١١)، وابن ماجه (٢٧٨١)، والحاكم (٤/ ١٥١)، وصححه، ووافقه الذهبي. والإمام أحمد (٣/ ٤٢٩)، والهيثمي في المجمع: (٨/ ١٣٨)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات». وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي (رقم/ ٢٩٠٨).

(٥) صحيح: رواه مسلم (رقم ١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٦/ ٢٥١)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٨٥)، والبيهقي (٦/ ٢٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٧٢).

وعن أبى قتادة رضـى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجرى يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده»(١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «ترفع للميت بعد موته درجة، فيقول: أى رب! أى شىء هذه؟ فيقال: ولدك استغفر لك»(٢).

ومن البر بهما بعد موتهما: قضاء صوم النذر أو الكفارة عنهما: وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»(٣).

ومن البر بهما بعد موتهما: التصدق عنهما:

فعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً قال للنبى ﷺ: «إن أمى توفيت، أينفعها إن تصدقت عنها؟»، قال: «نعم»، قال: «فإن لى مخرفًا، فأنا أشهدك أنى قد تصدقت به عنها»(٤).

وعن عائشة رضى الله عنها: «أن رجلاً قال: «إن أمى افتلتت -أى ماتت فجأة- نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ولى أجر؟» قال: «نعم، فتصدق عنها»(٥).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه: «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: «إن أبى مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟» قال «نعم»(٦).

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١/ ١٠٦)، وابن حبان (رقم/ ٨٤)، والطبرانى فى الصغير (ص/ ٧٩)، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١/ ١٥)، وصحح إسناده الحافظ المنذرى فى الترغيب (١/ ٥٨).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه (٣٦٦٠)، وأحمد (٢/ ٥٠٩)، البخارى فى الأدب المفرد (١/ ٣٦)، وقال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح. وحسنه الألبانى.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥/ ٢٨٩)، وأبو داود (٢٨٨٢)، والترمذى (٦٦٩)، والنسائى (٦/ ٢٥٢) والمخرف: النخل، لأنها تخترف ثمارها، أى: تجتنى..

(٤) صحيح: رواه البخارى (٥/ ٢٨٩)، وأبو داود (٢٨٨٢)، والترمذى (٦٦٩) والنسائى (٦/ ٢٥٢).

(٥) صحيح: رواه البخارى (٥/ ٢٩١)، ومسلم (٤/ ١٠٠)، وأبو داود (٢٨٨١)، والنسائى (٦/ ٢٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٦٠)، أحمد (٦/ ٥١).

(٦) صحيح: رواه مسلم (٥/ ٧٣)، والنسائى (٢/ ١٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٦٠).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا خرج إلى مكة، كان له حمار يتروح عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة، وعمامة يشد بها رأسه. ، فبينما هو يومًا على ذلك الحمار، إذ مر به أعرابى، فقال: «ألست ابن فلان؟» قال: «بلى»، فأعطاه الحمار، فقال: «اركب هذا»، والعمامة، وقال: «اشدد بها رأسك»، فقال له بعض أصحابه: «غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابى حمارًا كنت تروح عليه، وعمامة كنت تشدد بها رأسك؟!»، فقال: «إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يُولى، وإن أباه كان ودًا لعمر»(١).

ومن ثمرات طاعة الوالدين:

١ - إجابة الدعاء:

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار».

فقالوا: إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

قال رجل منهم: اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق(٢) قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى -يعنى بعد- بى طلب الشجر يومًا، فلم أُرح -يعنى أرجع- عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبث والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق -ظهر- الفجر، والصبية يتضاغون(٣) عند قدمى، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللهم كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىّ، أُحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت -يعنى نزلت- بها

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٢)، وأبو داود (٥١٤٣)، والترمذى (١٩٠٤).

(٢) أغبق: الغبوق شرب العشى.

(٣) يتضاغون: يصيحون من شدة الجوع.

سنة[1] من السنين، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله، ولا تفض الخاتم[2] إلا بحقه[3] فانصرفت عنها، وهى أحب الناس إلىّ وتركت الذهب الذى أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أُجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب، فثمرت -كثرت- أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءنى بعد حين فقال: يا عبد الله أدّ إلىّ أجرى، فقلت: كل ما ترى هو من أجرك: من الإبل، والبقر، والغنم، والرقيق.

فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بى.

فقلت: لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا.

اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[4].

٢- غفران الذنوب:

فبر الوالدين من أسباب غفران الذنوب وتكفير السيئات كبيرها وصغيرها.

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: أتى النبى ﷺ رجل، فقال: إنى أذنبت ذنبًا عظيمًا فهل لى من توبة؟ فقال: «هل لك من أم؟». قالا: لا قال: «هل لك من خالة؟» قال: نعم. قال: «فبرها»[5].

(٤) سنة: أى المجدبة التى لا تنبت الأرض فيها شيئًا، والمراد: شدة الحاجة.

(٢) لا تفض الخاتم: الفض: الفتح. والخاتم كناية عن شرف المرأة وموضع عفتها.

(٣) حقه: الزواج المشروع.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٥) صحيح: رواه الترمذى (١٥٥٤).

فدل الحديث على أن صلة الرحم وبر الوالدين من أسباب غفران الكبائر.

٣- طاعة الوالدين كالجهاد في سبيل الله:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحي والداك؟» قال: نعم. قال: «فيهما فجاهد»(١)

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلاً من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال: «هل لك من أحد باليمن» قال: أبواي. قال: «أذنا لك؟» قال: لا، قال: «فارجع إليهما، فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد. فقال: «أحي والداك؟» قال: نعم: قال: «ففيهما فجاهد»(٣).

٤- بركة العمر والرزق:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يمد له في عمره ويزداد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه»(٤).

وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»(٥).

٥- دخول الجنة والفوز بالنعيم:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع هذا الباب أو احفظه»(٦).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩)، وأبو داود (٢٥٢٩).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٣٠)، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٤٩)، وأبو داود (٢٥٣٠).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٣/٢٦٦)، وصححه المنذري.

(٥) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٣٨).

(٦) صحيح: رواه الترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٢٠٨٩)، وابن حبان (٤٢٦)، وصححه الألباني.

وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك؟ فقال: «هل لك من أم؟» قال: نعم. قال: فالزمها، «فإن الجنة عند رجلها»[1].

٦- رضا الله عز وجل:

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رضا الله فى رضا الوالد، وسخط الله فى سخط الوالد»[2].

***

(١) حسن: رواه النسائى (٦/ ١١)، وابن ماجه (٢٧٨١)، والحاكم (٢/ ١٠٤)، وحسنه الألبانى.

(٢) حسن: رواه الترمذى (١٨٩٩)، وابن حبان (٤٣٠)، والحاكم (٤/ ١٥٢)، والبزار (٨٦٥)، وانظر صحيح سنن الترمذى (١٥٤٩) للألبانى.

مواقف الصالحين

الموقف الأول

منعه البر من صحبة النبى ﷺ

هذا الفاضل الذى أنبأ النبى ﷺ بظهوره، وكشف عن سناء منزلته عند الله ورسوله، وأخذ البررة الأخيار من آله وصحابته بالتماس دعوته وابتغاء القربى إلى الله بها، وما كانت آيته إلا بره بأمه.

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، وكان به بياض** -مرض جلدى-، **فمروه فليستغفر لكم!!**».

وكان أويس من أهل اليمن، قال أسير بن جابر:

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال:

أنت أويس بن عامر؟

قال: نعم.

قال: من مراد ثم من قرن؟

قال: نعم.

قال: فكان بك برص، فبرأت منه إلا موضع درهم؟

قال: نعم.

قال: ألك والدة؟

قال: نعم.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قرن، وكان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة، هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». فاستغفر لي.

قال: فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريد؟

قال: الكوفة.

قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟

قال: أكون في غبرات الناس أحب إليَّ.

قال: فلما كان من العام المقبل، حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، فقال: تركته رث الهيئة، قليل المتاع.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن، من مراد ثم من قرن، وكان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فأتى أويسًا فقال: استغفر لي، قال:

أنت أحدث عهدًا بسفر صالح، فاستغفر لي.

قال: استغفر لي.

قال: لقيت عمر؟

قال: نعم.

قال: فاستغفر له.

قال: ففطن له الناس، فانطلق على وجهه، قال أسير:

وكسوته بُردة. وكان كل من رآه، قال:

من أين لأويس هذه البردة؟

الموقف الثانى

أمرضه وليس لى من ميراثه شىء

عن طاووس اليمانى رحمه الله تعالى، قال: كان رجل له أربع بنين فمرض فقال أحدهم: إما أن تمرضوه وليس لكم من ميراثه شىء، وإما أن أُمرضه وليس لى من ميراثه شىء.

قالوا: مرضه وليس لك من ميراثه شىء.

قال: فمرضه حتى مات ولم يأخذ من ميراثه شيئًا.

قال: فأتى فى النوم فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار، فقال فى نومه: أفيها بركة؟

قالوا: لا.

قال: فأصبح فذكر ذلك لامرأته، فقالت: خذها فإن من بركتها أن نكتسى منها ونعيش منها.

فأبى، فلما أمسى أتى فى النوم فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير، فقال: أفيها بركة؟

قالوا: لا.

فلما أصبح قال ذلك لامرأته فقالت له مثل مقالتها الأولى، فأبى أن يأخذها، فأتى فى الليلة الثالثة فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً،

فقال: أفيه بركة؟

قالوا: نعم.

قال: فذهب فأخذه ثم خرج به إلى السوق فإذا هو برجل يحمل حوتين.

فقال: بكم هما؟

قال: دينار، قال: فأخذهما منه بدينار ثم انطلق بهما، فلما دخل بيته شق بطنهما فوجد فى بطن كل واحدة منهما درة لم ير الناس مثلهما.

قال: فبعث الملك يطلب درة يشتريها فلم توجد إلا عنده فباعها بوقر -حمل- ثلاثين بغلاً ذهبًا، فلما رآها الملك قال: ما تصلح هذه إلا بأخت، اطلبوا أختها وإن أضعفتم.

قال: فجاؤه فقالوا: أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟

قال: وتفعلون؟

قالوا: نعم.

قال: فأعطاهم إياها بضعف ما أخذوا الأولى[١].

الموقف الثالث

نموذج رائع للبر

كان الفضل بن يحيى -رحمه الله تعالى- أبر الناس بأبيه، بلغ من بره إياه أنهما كانا فى السجن، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء ساخن، فمنعهما السجان من إدخال الحطب فى ليلة باردة، فلما نام يحيى، قام الفضل إلى قمقمة وملأها ماء، ثم أدناه من المصباح ولم يزل قائمًا -وهو فى يده- حتى أصبح[٢].

الموقف الرابع

هل أديت حقها؟

يروى أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن لى أمًا بلغ منها الكبر أنه لا تقضى حاجتها إلا وظهرى مطية لها فهل أديت حقها؟

(١) حلية الأولياء (٤/٧).

(٢) بر الوالدين للطرطوشى (٧٨).

قال: لا، لأنها كانت تصنع بك ذلك، وهى تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه. وتتمنى فراقها»[1].

الموقف الخامس

ما أردت إلى هذا؟

عن أبى عبد الرحمن الحنفى قال: رأى كهمس بن الحسن عقربًا فى البيت، فأراد أن يقتلها، أو يأخذها، فسبقته إلى جُحرها، فأدخل يده فى الجحر يأخذها، وجعلت تضربه، فقيل له: «ما أردت إلى هذا؟، لم أدخلت يدك فى جحرها تخرجها؟» قال: خفت أن تخرج من الجحر فتجىء إلى أمى فتلدغها»[2].

الموقف السادس

أخاف أن أكون قد عققتها

وهذا أبو الحسن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وهو المسمى زين العابدين كان من سادات التابعين، وكان كثير البر بأمه، حتى قيل له: «إنك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها فى صحفة -إناء من آنية الطعام، فقال: أخاف أن تسبق يدى إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها»[3].

الموقف السابع

أم تحكى بر ولدها بها

عن حفصة بنت سيرين -رحمها الله- قالت: بلغ من بر ابنى الهذيل بى أنه كان يكسر القصب فى الصيف فيوقد لى فى الشتاء -أى لئلا يكون له دخان- قالت: وكان يحلب ناقته بالغداة فيأتينى به فيقول: اشربى يا أمّ الهذيل، فإن أطيب اللبن ما بات فى الضرع. ثم مات فرزقت عليه من الصبر ما شاء أن يرزقنى، فكنت أجد مع ذلك حرارة فى صدرى لا تكاد تسكن. قالت: فأتيت

(١) مختصر بر الوالدين (٥٨). (٢) حلية الأولياء (٦/ ٢١١).
(٣) عيون الأخبار (٣/ ٩٧).

ليلة من الليالى على هذه الآية: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]. فذهب عنى ما كنت أجد(١).

الموقف الثامن

لأنه كان صديق والدى

قال ابن سلامة: قيل للصاحب إسماعيل بن عباد: أنت رجل معتزلى، وابن المقرئ محدث وأنت تحبه! قال: لأنه كان صديق والدى، وقد قيل: مودة الآباء قرابة الأبناء، ولأنه كنت نائمًا فرأيت النبى ﷺ فى النوم يقول لى: أنت نائم، وولى من أولياء الله على بابك؟! فانتبهت ودعوت وقلت: من بالباب؟ فقال: أبو بكر بن المقرئ»(٢).

الموقف التاسع

إنى اخترت رضى الوالدة(*)

ذكر جعفر الخلدى عن الإمام الربانى أبى مسلم أحمد بن على الأبَّار، قال: كان الأبَّار من أزهد الناس، استأذن أمه فى الرحلة إلى قتيبة فلم تأذن له، ثم ماتت فخرج إلى خراسان، ثم وصل إلى بلخ وقد مات قتيبة، فكانوا يعزونه على هذا، فقال: هذا ثمرة العلم، إنى اخترت رضى الوالدة».

فهذا فقه عميق من هذا الإمام، فإن أهم شىء يطلب له العلمٍ هو العمل الصالح، وإن من أزكى الأعمال الصالحة برًّ الوالدين، فلئن فاته عُلوٌ الإسناد فى بعض الأحاديث فلقد أدرك ما هو أهم من ذلك وهو ثمرة العلم النافع، وهذا مثل من الاعتدال فى طلب العلم، فلا ينبغى أن يكون عائقًا عن أداء الواجبات الدينية، ولا أن يهمل بأن تقدم عليه النوافل التى هى أقل أهمية، فضلاً عن أن تقدم عليه مطالب الدنيا وشواغلها.

(١) المنتظم (٧/ ١٧١).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٠١).
(*) السير (١٣/ ١٩٠)، الحميدى (١٩١/ ١٠).

العدل

مواقف الصالحين

- أتريد أن تضرب الأمير
- اضرب ابن الأكرمين
- حكمت عليك يا أمير المومنين
- إنى آليت على نفسى أن لا أشرب حتى أنصرك
- اسكت فإن الحق أنطقها
- والله ما سفكت دمًا حرامًا منذ وليت الخلافة
- أنت الذى أحوجتنى إلى هذا
- لو عذلت عن سيرتك لا نتصفت للعدالة
- جزاك الله يا ابن ظريف خيراً
- ملأتها والله عدلاً
- أعوذ بالله أن أخون المسلمين فى عزل مثله
- جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق
- أعطه حقه وإلا أذنت
- العدل عمود السلطان وقوام الأديان
- لا أسمع بأحد أفسد فى أرض بعد اليوم

العدل

يُعَدُّ العـدلُ من الفضائل الكبرى لدى كل الشـعوب وفى مختلـف الحضارات، ومن هنا فإن إرسـاء دعائم هذه القيمـة وتطبيقـها فى المجتمع ينبـغى أن يكو هدفًا أساسيًا يسعى الإنسان لتحقيقه وإقراره من أجل خير الأفراد والجماعات.

والعدل هو إعطاء كل ذى حق حقه، وهو فضيلة فردية وفى الوقت نفسه فضيلة اجتماعية لأنه يتعدى إلى الغـير. والإنسان فى أصل فطرته الصافية يميل إلى العدل وينفر من الظلم. ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن العدل يُـعَدُّ ضرورة حياتية، إذ لا يستطيع الإنسان أن يحيـا حياة حقيقية بـدونه. ومن أجل ذلك يشير القرآن الكريم إلى أن قيـام الناس بالقسط أو بتـحقيق مـبدأ العـدل كان من الأهداف الأساسـية لإرسال الرسل، وذلك فى قـوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥].

والإسلام عندمـا يدعو إلى العدل ويأمـر به، كما جاء ذلك بوضـوح فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** ﴾ [النحل: ٩٠]؛ فإن ذلك يُعَدُّ فى الوقت نفسه دعوة إلى حرية الإنسان وكرامته وتأكيد حقـوقه الإنسانية العامة. ولذلك يُعَدُّ الكفاح من أجل رفع الظلم عن المظلومين وتحـقيق العـدل بين الناس من الواجـبات الإنسـانية والدينية على السواء. ويشير القـرآن الكريم إلى هذه المسئولية بقوله: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ [النساء: ٧٥] إن الإنسان -إذن- مسـئول مسئولية دينيـة وأخلاقية عن إقامـة العدل الذى هو أساس العمران فى هذا الوجود. وهذا يعنى ضـرورة التغلب على نوازع الأنانية، وتغليب جانب العقل. وهذا -بدوره- يعنى بقاء الأمل فى تحقـيق العدل حيًا فى النفوس. وهذا الأمل يشكِّل دافعًا قويًا للتصميـم على السعى نحو تحقيق العدل، الأمر الذى يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى أن يصبح العدل فى حياتنا حـقيقة واقعة، وأن يوجِّه سلوكنا ويحدِّد تصرُّفاتنا.

وعند التأمل فى مفهوم العدل يتضح لنا أن للعدل جانبين لا يجوز أن ينفصل أحدهما عن الآخر. فالإنسان من ناحية فى حاجة إلى العدل يطلبه ويسعى إلى تحقيقه، ولكن العدل من ناحية أخرى فى حاجة إلى الإنسان من أجل تحقيقه والعمل على إقراره. فالإنسان - بدون العدل- لا يستطيع أن يحيا حياة حقيقية لها معنى، والعدل بوصفه قيمة مثالية ليست شيئًا وتظل شعارًا فارغًا من أى مضمون إذا لم يكن هناك إنسان يعمل على تحقيقها فى عالم الواقع. فالعدل ضرورى للإنسان مثلما أن الإنسان ضرورى لتحقيق العدل.

ولكن هذه الحقيقة البسيطة غالبًا ما تغيب عن الإنسان، أو -بمعنى أصح- غالبًا ما يتجاهلها الإنسان. وحينئذ يُستخدم العدل كستار أو كشعار لبلوغ أهداف ذاتية. وبذلك الفكر الأنانى يبتعد المرء عن طريق العدل، ويخطئ الطريق، ويجد نفسه سائرًا فى طريق الظلم.

إن الأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أن العدل قيمة لا تتجزأ. فلا يمكن أن يطلب المرء العدل لنفسه، وفى الوقت ذاته يرتكب الظلم فى حق الآخرين، فالناس جميعًا قد خُلقوا من نفس واحدة، كما يقول القرآن الكريم.

وعلى هذا الأساس ينبنى التضامن بين الناس والذى يقتضى العدل للجميع.

ومفهوم العدل فى التصور الإسلامى مرتبط ارتباطًا وثيقًا بحرية الإنسان. والصيحة التى أطلقها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب وقال فيها: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. كانت نتيجة ظلم وقع على أحد المصريين فى حادثة مشهورة، مما يؤكد ارتباط العدل بالحرية. ونظرًا لأن العدل قيمة لا تتجزأ فإنه ينبغى أن يتحقق فى جميع الأحوال وفى مختلف الظروف دون أى استثناءات مهما كانت مبرراتها، فالإسلام يرفض التحيُّز فى تطبيق مبدأ العدل ولا يوافق بأى حال من الأحوال على أىِّ مبرر لعدم تطبيقه.

والقرآن الكريم حين يأمرنا بالعدل فإن هذا الأمر يسرى على كل الناس دون تمييز ودون نظر إلى معتقداتهم أو أجناسهم أو انتماءاتهم أو وضعهم الاجتماعى من

حيث الغنى أو الفقر أو الجاه والنفوذ. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]. وتعبير القرآن هنا بلفظ «الناس» تعبير مقصود ليشمل كل الناس فى كل زمان ومكان. ومن المأثورات الإسلامية فى هذا الصدد ما يروى من أن أسامة بن زيد قد تشفع لدى النبى ﷺ فى أمر العفو عن المرأة المخزومية التى سرقت، وكانت من أسرة لها مكانتها فى المجتمع. وقد رفض النبى ذلك رفضًا قاطعًا -فى حديث مشهور[1] مؤكدًا ضرورة تطبيق معيار واحد على الجميع بصرف النظر عن أىّ اعتبار آخر.

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه فى التطبيق الإسلامى لمبدأ العدل ذلك التحذير الشديد من خطورة تغلب مشاعر الكراهية أو العداوة إزاء بعض الناس أو الجماعات وتأثير ذلك بالسلب على تطبيق مبدأ العدل. وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صراحة ووضوح: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

ويشدد الإسلام على الالتزام بالعدل حتى فى حالة ما إذا كان الأمر يتعلق بشخص الإنسان أو والديه أو أقاربه ومحبيه. وفى ذلك يقول القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ [النساء: ١٣٥].

تلك كانت بعض الإشارات التى تبين لنا مدى التزام الإسلام بتحقيق مبدأ العدل التزامًا مطلقًا لا تهاون فيه، لأن المجتمع الذى يتحقق فيه العدل يتحقق فيه -بالتالى- الحفاظ على حقوق الإنسان وكرامته، وفى الوقت نفسه يجعله متفائلاً وإيجابيًا وفعالاً، وهذا من شأنه أن يجعل منه مواطنًا صالحًا وعضوًا نافعًا يعمل من أجل خير مجتمعه وتقدُّم بلاده.

(١) رواه الإمام مسلم (٣/ ١٣١٥): «إن من كان قبلكم إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه وإذا سرق فيهم القوى تركوه. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

مواقف الصالحين

الموقف الأول

أتريد أن تضرب الأمير

عن عمر بن شيبة قال: قال عمرو بن العاص لرجل من تُجيب: يا منافق، فقال التجيبى: يا أمير المؤمنين: إن عمرًا نفقنى، ولا والله ما نافقت منذ أسلمت، فكتب عمر -رضوان الله عليه- إلى عمرو، وكان إذا غضب كتب: إلى العاصى ابن العاصى: أما بعد، فإن فلانًا التجيبى ذكر أنك نفقته، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين، أن يضربك أربعين أو قال سبعين، فقام فقال: أنشد الله رجلاً سمع عمرًا نفقنى إلا قام فشهد، فقام عامة من فى المسجد، فقال له حنتمة: «أتريد أن تضرب الأمير؟» وعرض عليه الأرش -يعنى الدية-، فقال: لو ملأت لى هذه الكنيسة ما قبلت، فقال له حنتمة: أتريد أن تضربه؟ قال: «ما أرى ههنا طاعة، فلما ولّى قال عمرو: ردوه، فأمكنه من السوط، وجلس بين يديه، فقال: «أتقدر أن تمتنع عنى بسلطانك؟ قال: لا، فامض لما أُمرت به، قال: فإنى قد عفوت عنك»(١).

الموقف الثانى

اضرب ابن الأكرمين

عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصرى؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين.

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ص/ ٩٥).

قال أنس: فضرب، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال للمصرى: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مُذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى[1].

الموقف الثالث

حكمت عليك يا أمير المؤمنين

ذكر الحافظ ابن كثير فى ترجمة القاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم أنه قال: وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألنى عن جور ولا ميل إلى أحد إلا يومًا واحدًا، جاءنى رجل فذكر أن له بستانًا وأنه فى يد أمير المؤمنين، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لى اشتراه لى المهدى، فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يُحضره لأسمع دعواه، فأحضره فادعى بالبستان، فقلت: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: هو بستانى، فقلت للرجل: قد سمعت ما أجاب، فقال الرجل: يحلف، فقلت: أتحلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، فقلت: سأعرض عليك اليمين ثلاثًا فإن حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين، فعرضتها عليه ثلاثًا فامتنع، فحكمت بالبستان للمدعى، قال: فكنت فى أثناء الخصومة أود أن ينفصل، ولم يمكنى أن أُجلس الرجل مع الخليفة، وبعث القاضى أبو يوسف فى تسليم البستان للرجل»[2].

---

(١) لقد نادى أحد الصادقين فى مجلس البرلمان المصرى وهو الشيخ صلاح أبو إسماعيل بتطبيق الإسلام، فقام أحد الأعضاء من النصارى وقال: ولم لا نتوافق على تطبيق الإسلام؟ وهل رأينا فى التاريخ من الإسلام إلا العدالة منذ أن أمر عمر بن الخطاب غلامًا من أبناء القبط بأن يقتص من ابن أمير مصر؟!! اهـ. التاريخ الإسلامى (٩/ ٢٩٩).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ١٨٧).

الموقف الرابع

إني آليت على نفسي أن لا أشرب حتى أنصرك

يمين الدولة محمود بن سبكتكين قال عنه ابن كثير: كان عادلاً جيدًا، اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله، في كل وقت، فيخرجه من البيت ويختلي بامرأته، وقد حار في أمره، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لا يجسر أحد عليه، خوفًا وهيبة للملك، فلما سمع الملك ذلك، غضب غضبًا شديدًا، وقال للرجل: ويحك، متى جاءك فأتني فأعلمني، ولا تسمعن من أحد منعك من الوصل إليَّ، ولو جاءك في الليل فأتني فأعلمني، ثم إن الملك تقدم إلى الحجبة وقال لهم: إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحد من الوصول إليَّ من ليل أو نهار، فذهب الرجل مسرورًا داعيًا، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فأخرجه من البيت، واختلى بأهله، فذهب باكيًا إلى دار الملك، فقيل له: إن الملك نائم، فقال: قد تقدم إليكم أن لا أمنع منه ليلاً ونهارًا، فنبهوا الملك، فخرج معه بنفسه وليس معه أحد، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد، وعندهما شمعة تقد، فتقدم الملك فأطفأ الضوء، ثم جاء فاحتز رأس الغلام، وقال للرجل: ويحك، الحقني بشربة ماء، فأتاه بها فشرب، ثم انطلق الملك ليذهب، فقال له الرجل: بالله لم أطفأت الشمعة، قال: ويحك، إنه ابن أختي، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح، فقال: ولم طلبت الماء سريعًا؟ فقال الملك: إني آليت على نفسي منذ أخبرتني، أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك، و أقوم بحقك فكنت عطشان هذه الأيام كلها، حتى كان ما كان مما رأيت، فدعا له الرجل، وانصرف الملك راجعًا إلى منزله، ولم يشعر بذلك أحد(١).

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٣٣).

الموقف الخامس

اسكت فإن الحق أنطقها

أمير المؤمنين المأمون رحمه الله: جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة، فجعل صوتها يعلو صوته، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون: اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم[(١)].

الموقف السادس

والله ما سفكت دمًا حرامًا منذ وليت الخلافة

أورد ابن الجوزى بإسناده أن أمير المؤمنين المعتضد اجتاز فى بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة، فوقف صاحبها صائحًا مستصرخًا بالخليفة، فاستدعى به فسأله عن أمره فقال: إن بعض الجيش أخذوا لى شيئًا من القثاء وهم من غلمانك، فقال: أتعرفهم؟ فقال: نعم، فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم، فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة أنفس مصلوبين على جادة الطريق، فاستعظم الناس ذلك واستنكروه وعابوا ذلك على الخليفة، وقالوا: قتل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه!! فلما كان بعد قليل أمر الخوَّاص -وهو مسامره- أن ينكر عليه ذلك ويتلطف فى مخاطبته فى ذلك والأمراء حضور، فدخل عليه وقد عزم على ذلك، ففهم الخليفة ما فى نفسه من كلام يريد أن يبديه، فقال له: إنى أعرف أن فى نفسك كلامًا فما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين وأنا آمن؟ قال: نعم، قال له: فإن الناس ينكرون عليك تسرعك فى سفك الدماء، فقال: والله ما سفكت دمًا حرامًا منذ وليت الخلافة إلا بحقه، فقال له: فعلام قتلت أحمد بن الطيب وقد كان خادمك ولم يظهر له خيانة؟ فقال: ويحك إنه دعانى إلى الإلحاد والكفر بالله فيما

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٠).

بينى وبينه، فلما دعانى إلى ذلك قلت له: يا هذا أنا ابن عم صاحب الشريعة، وأنا منتصب فى منصبه فأكفر حتى أكون فى غير قبيلته!! فقتلته على الكفر والزندقة. فقال له: فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء؟ فقال: والله ما كان هؤلاء الذين أخذوا القثاء، وإنما كانوا لصوصًا قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم، فبعثت فجئت بهم من السجن فقتلتهم وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثاء، وأردت بذلك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا فى الأرض ويتعدوا على الناس ويكفوا عن الأذى. ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء فأطلقهم بعدما استتابهم وخلع عليهم وردهم إلى أرزاقهم[1].

الموقف السابع

أنت الذى أحوجتنى إلى هذا

السلطان العادل جلال الدولة ملك شاه بن ألب أرسلان: كان -رحمه الله- محبًا للعدل والإنصاف، فركب يومًا إلى الصيد فلقيه سوادى يبكى، فقال: مالك؟ قال: لقينى ثلاثة غلمان فأخذوا حمل بطيخ كان معى، وهو ما أملك وهو بضاعتى، فقال له: امض إلى العسكر، فهناك قبة حمراء، فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار، فأنا أرجع، وأعطيك ما يغنيك، فلما عاد السلطان، قال: للشرابى: قد اشتهيت بطيخًا ففتش العسكر وخيمهم على شىء من ذلك، ففعل الشرابى، فوجد البطيخ، فقال: عند من رأيتموه، فقيل: فى خيمة الحاجب فلان، فقال: أحضروه، فأحضر، فقال له: من أين لك هذا؟ قال: الغلماء جاءوا به فقال: أريدهم الساعة؟ فمضى وقد أحسوا بالشر فهربوا خوفًا من أن يقتلهم، وعاد فقال: قد هربوا لما علموا أن السلطان يطلبهم، فقال: أحضروا السوادى، فأحضر، فقال له: أهذا الذى أخذ بطيخك منك؟ قال: نعم قال: خذه، وهذا الحاجب مملوك لى، وقد سلمته إليك، ووهبته لك، حين لم يحضر الذين أخذوا بطيخك،

(١) البداية والنهاية (١١/ ٩٢).

والله لئن خليته لأضربن عنقك، فأخذ السوادى بيد الحاجب، فأخرجه، فاشترى الحاجب نفسه من السوادى بثلاثمائة دينار، فعاد السوادى إلى السلطان، فقال: يا سلطان قد بعت المملوك الذى وهبته لى بثلاثمائة دينار، قال: ورضيت؟ قال: نعم، قال: اقبضها وأمن مصاحبًا، وكان هذا السلطان يقف للمرأة والضعيف.

وجاء رجلان قد ظلما فاستغاثا إليه، فقال: خذا بيدى واحملانى إلى الوزير فامتنعا، فقال: لابد، فأخذ كل واحد منهما بيد ومشى معهما، فبلغ ذلك الوزير نظام الملك فقام حافيًا وتلقاه، وقال: ما هذا؟ قال: أنت الذى أحوجتنى إلى هذا؟ أنا أنصبتك لتدفع عنى الظلم، فإذا لم تدفع عنى أخذانى يوم القيامة هكذا(١).

الموقف الثامن

لو عدلت عن سيرتك لانتصفت للعدالة

قال الآصفى: إنه وصل إلى السلطان مظفر الحليم الكجراتى يومًا من القاضى بجانبانير رسول الطلب وقد تظلم منه من يتجر فى الخيل، فكما بلغه وعلى ما كان عليه فى حال الخلوة أجاب الرسول وخرج ماشيًا إلى القاضى، وجلس مع خصمه بين يديه، وأجاب التاجر عليه أنه لم يصله ثمن أفراسه، وثبت ذلك وأبى التاجر أن يقوم من مجلسه قبل أداء الثمن وحكم القاضى به، فمكث السلطان مع خصمه إلى أن قبض التاجر الثمن، وكان القاضى لما حضر السلطان المحكمة وسلم عليه لم يتحرك من مجلسه، وما كفاه ذلك حتى أنه أمره أن لا يترفع على خصمه ويجلس معه والسلطان لا يخرج عن حكمه، ولما قبض التاجر الثمن وسأله القاضى: هل بقيت لك دعوى عليه؟ وقال: لا، عند ذلك قام القاضى من مجلسه، وسلم على سلطانه على عادته فيه، ونكّس رأسه فيما يعتذر به، فقام السلطان من مجلسه مع الخصم، وأخذ بيد القاضى وأجلسه فى مجلس حكمه كما كان، وجلس إلى جنبه وشكره على عدم مداهنته فى الحق حتى أنه قال: لو

(١) الشفاء (ص/ ٨٥)، السير (٢١/ ٦٨).

عدلت عن سيرتك هذه رعاية لى لانتصفت للعدالة منك وأنزلتك منزلة آحاد الناس لئلا يتأسى بك بعدك غيرك فجزاك الله عنى خيرًا بوقوفك مع الحق! فمثلك يكون قاضيًا، فأثنى عليه القاضى، وقال: ومثلك يكون سلطانًا[1].

الموقف التاسع

جزاك الله يا ابن ظريف خيرًا

حكى أبو عمر بن عبد البر: أن حبيبًا القرشى دخل على الأمير عبد الرحمن بن معاوية، فشكا إليه القاضى نصر بن ظريف اليحصبى، وذكر أنه يريد أن يُسجِّل عليه فى ضيعة يقيم فيها، وادعى عليه الاغتصاب لها، ولاذ بالأمير من إسراع القاضى إلى الحكم عليه من غير تثبت. فأرسل الأمير إليه وكلمه فى حبيب ونهاه عن العجلة عليه، فخرج ابن ظريف من يومه، وعمل بغير ما أراد الأمير، وأنفذ الحكم، وبلغ الخبر حبيبًا، فدخل إلى الأمير مُتغيرًا غيظًا، فذكر له ما عمله القاضى، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له، وأغراه؛ فغضب الأمير على القاضى واستحضره، فقال له: من أمرك أن تنفذ حكمًا، وقد أمرتك بتأخيره والأناة به؟ فقال له: قدمنى عليه رسول الله ﷺ؛ فإنما بعثه الله بالحق؛ ليقضى به على القريب والبعيد والشريف والدنىء، وأنت أيها الأمير، ما الذى حملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض، وأنت تجد مندوحة بأن ترضى من مالك من تُعنى به، وتمد الحق لأجله؟ فقال له: جزاك الله يا ابن ظريف خيرًا، وخرج القاضى، فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة لهم بالاستحقاق، وكلمهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن، فعقد فيها البيع معهم، وصارت إلى حبيب، فكان بعد ذلك يقول: جزى الله ابن ظريف عنا خيرًا، كانت بيدى ضيعة حرام، فجعلها حلالا[2].

(١) الإعلام (٤/ ٣١٦).

(٢) تاريخ قضاة الأندلس (ص/ ٤٤).

الموقف العاشر

ملأتها والله عدلاً

كتب الخليفة أبو جعفر المنصور إلى سوار بن عبد الله قاضى البصرة كتابًا فيه: «انظر الأرض التى تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها إلى القائد، فكتب إليه سوار: «إن البينة قد قامت عندى أنها للتاجر. فلست أعطها لغيره إلا ببينة، فكتب إليه المنصور: «والله الذى لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد» فكتب إليه سوار: «والله الذى لا إله إلا هو لا أخرجها من يد التاجر إلا بحق» فلما وصل كتابه المنصور قال: ملأتها والله عدلاً، وصار قضاتى تردنى إلى الحق»[1].

الموقف الحادى عشر

أعوذ بالله أن أخون المسلمين

قاضى الأندلس محمد بن بشير: كانت لديه دعوى لعم الحكم صاحب الأندلس، على واحد من العامة، وكان يظن المدعى أن له من علوّ مكانته، ووثيق صلته بالملك ما يمكن له عند القاضى، وإذا بالقاضى يقول له: قف بحذاء خصمك ولا تتكلم، حتى أكون أنا الذى أسألك. فلما أدلى بدعواه، قال للمدعى عليه: ما تقول؟: قال: ليس علىَّ شىء أصلح الله القاضى.

قال القاضى للمدعى: هات بينتك، قال: ألا يكفيك قولى؟ قال: لو كفانى ما سألتك البينة. بينتك. قال: أمهلنى. وذهب العم إلى الحكم صاحب الأندلس، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، فقال: ألست تعرف أن لى على فلان كذا؟ قال: بلى. قال: أتشهد لى؟ قال: أنت تعرف القاضى وأخاف أن لا يقبل شهادتى! قال: كيف، وأنت الذى وليته القضاء؟ قال: هو ما أقول لك. قال: فمن يشهد لى؟ فدعا الملك بفقيهين، وكتب شهادته أمامهما وأشهدهما عليه،

(١) تاريخ الخلفاء.

وقال: امض بهـا إليه وأنا أخـاف ألا يقبلهـا. فلما كان يوم المحـاكمـة، وقال له القاضى: بينتك، أبرز له شهادة الملك، فقال القاضى: أنا لا أقبل شهادته.

فاستـشاط العمّ غضبًا، وجن جنونه، وذهب إلى ابن أخـيه، وقال: أنت ملك البلاد، والقاضى ردّ شهادتك! ماذا بقى لك من الكرامة والسلطان؟

وضحك الحكم وقـال: ألم أقل لك يا عم؟ إن القاضى رجل صـالح لا تأخذه فى الله لومة لائم، عمل ما يجب عليه، فأحـسن الله جزاءه. قال: فاعزله، قال: أعوذ بالله، أنا أخـون المسلمين فى عزل مثـله؟ أنا عملت ما علىّ وشـهدت لك، وللقـاضى أن يقبل الـشهـادة أو يردّها. ولما سئـل القاضى بعـد ذلك: ولما رددت شهـادته؟ قال للسائل: والله مـا رددتها نقصًـا فى عدالتـه، ولكن لابد من سؤال المدعى عليه عـما يقوله فى الشاهد، فـمن كان يجرؤ على الطعن فى شـهادته لو قبـلتها؟ وأقـام عامى لديـه دعوى على ابن فطيس الوزير، وكـان له فى الأندلس سطوة ونفوذ، فلما سأل المدعى بينته، جاء بشهود فسمع شهادتهم بغيبة الوزير ولم يخبره عنهم، ولم يعرفه بهم، وحكم عليه، فرفع الوزير شكوى إلى الحكم، وكان القاضى حاضـرًا، فأومأ إليه الحكم سائلاً. فقـال: ليس ابن فطيس ممن يُعَرَّف بمن شهد عليه، لأنه إن لم يجـد سبيلاً إلى تجريح شهادتهم، لم يتحـرج من استعمال سلطانه فى أذاهم فى أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم، فيدع الناس الشهادة وتضيع أموال الناس[1].

الموقف الثانى عشر

جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق

القـاضى شكر الله السـندى تولى القـضـاء فى تتـه من بلاد السـند سنة سـبع وعشرين وتسعـمائة أيام شاهى بيك، كان -رحمه الله- لا يخـاف فى الله سبحانه أحدًا، حتى قيل إن شاه حسين بن شاهى بيك ملك السند اشترى أفراسًا من بعض

(١) رجال من التاريخ (١/ ٢١٩).

التجار وماطله فى أداء الثمن، فرفع التاجر القضية إلى القاضى، فأمر أن يحضر السلطان بين يديه ويقوم حيث ما قام التاجر، ثم قضى عليه بحق التاجر، فأرضى السلطان التاجر، ثم قام القاضى من مقامه وقدم السلطان على جرى العادة، فقعد السلطان عنده وأراه خنجراً كان معه، وقال له: جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق مهابة منى، فأخرج القاضى السيف من تحت وسادته وقال له: وضعت هذا السيف لأقتلك لو جاوزت عن حدك، ثم خرج السلطان مسروراً وكان مطله فى أداء الثمن من أجل الامتحان(١).

الموقف الثالث عشر

أعطه حقه وإلا أذنت

عن أبى الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمى عن شيخ من التجار قال: كان لى على بعض الأمراء مال كثير فماطلنى ومنعنى حقى، وجعل كلما جئت أطالبه حجبنى عنه، ويأمر غلمانه يؤذوننى، فاشتكيت عليه إلى الوزير فلم يفد ذلك شيئًا، وإلى أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئًا، وما زاده ذلك إلا منعًا وجحودًا، فأيست من المال الذى عليه ودخلنى هم من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكى، إذ قال لى رجل: ألا تأتى فلانًا الخياط -إمام مسجد هناك- فقلت وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم. وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟ فقال لى: هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجًا. قال فقصدته غير محتفل فى أمره، فذكرت له حاجتى ومالى وما لقيت من هذا الظالم، فقام معى فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقى الذى عليه فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذنت. فتغير لون الأمير ودفع إلىَّ حقى. قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع ذلك الأمير له، ثم إنى عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل منى

(١) الإعلام (٤/ ١٢٤).

شيئًا، وقال: لو أردت هذا لكان لى من الأموال ما لا يحصى. فسألته عن خبره وذكرت له تعجبى منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا فى جوارنا أمير تركى من أعالى الدولة، وهو شاب حسن، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها الثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله، وهى تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها: يا مسلمون أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدنى على نفسى ويدخلنى منزله، وقد حلف زوجى بالطلاق أن لا أبيت فى غير منزله، ومتى بت هاهنا طلقت منه ولحقنى بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام ولا تغسله المدامع.

قال الخياط: فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربنى بدبوس فى يده فشج رأسى، وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منزله قهرًا، فرجعت أنا فغسلت الدم عنى وعصبت رأسى وصليت بالناس العشاء ثم قلت للجماعة إن هذا قد فعل ما قد علمتم فقوموا معى إليه لننكر عليه ونخلّص المرأة منه، فقام الناس معى فهجمنا عليه داره فثار إلينا فى جماعة من غلمانه بأيديهم العصى والدبابيس يضربون الناس، وقصدنى هو من بينهم فضربنى ضربًا شديدًا مبرحًا حتى أدمانى، وأخرجنا من منزله ونحن فى غاية الإهانة. قال: فرجعت إلى منزلى وأنا لا أهتدى إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشى فلم يأخذنى نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده فى الليل لترجع فتبيت فى منزلها حتى لا يقع على زوجها الطلاق، فألهمت أن أؤذن الصبح فى أثناء الليل لكى يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتى قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح، فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة وهم يقولون: أين الذى أذن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا وأنا أريد أن يعينونى عليه، فقالوا: انزل، فنزلت فقالوا: أجب أمير

المؤمنين، فأخذونى وذهبوا بى لا أملك من نفسى شيئًا، حتى أدخلونى عليه، فلما رأيته جالسًا فى مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا، فقال: ادن، فدنوت فقال لى: ليسكن روعك وليهدأ قلبك.

وما زال يلاطفنى حتى اطمأننت وذهب خوفى، فقال: أنت الذى أذنت هذه الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقى من الليل أكثر مما مضى منه؟ فتغر بذلك الصائم والمسافر والمصلى وغيرهم. فقلت: يؤمننى أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبرى؟ فقال: أنت آمن. فذكرت له القصة.

قال: فغضب غضبًا شديدًا وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أى حالة كانا فأُحضرا سريعًا، فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته أيضًا، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجوار والزوجات؟ فذكر له شيئًا كثيرًا. فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتى انتهكت حرمة الله وتعديت حدوده وتجرأت على السلطان، وما كفاك ذلك أيضًا حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟ فلم يكن له جواب. فأمر به فجعل فى رجله قيدًا وفى عنقه غل ثم أمر به فأدخل فى جوالق -كيس كبير- ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضربًا شديدًا حتى خفت، ثم أمر به فألقى فى دجلة فكان ذلك آخر العهد به. ثم أمر بدرًا صاحب الشرطة أن يحتاط على ما فى داره من الحواصل والأموال التى كان يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكرًا صغيرًا كان أو كبيرًا ولو على هذا -وأشار إلى صاحب الشرطة- فأعلمنى. فإن اتفق اجتماعك بى وإلا فعلى ما بينى وبينك الأذان، فأذن فى أى وقت كان ولو فى مثل وقتك هذا. قال: فلهذا لا آمر أحدًا

من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفًا من المعتضد. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن(١).

الموقف الرابع عشر

العدل عمود السلطان وقوام الأديان

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد قال: ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد، وكان عفيفًا شديد الحرمة نزها، جاءه يومًا بعض خدم الخليفة المعتضد فترفع في المجلس على خصمه، فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه فامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفة، فزبره القاضي وقال: ائتوني بدلال النخس حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلى الخليفة، وجاء حاجب القاضي فأخذ بيده وأجلسه مع خصمه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فبكى بين يديه فقال له: مالك؟ فأخبره بالخبر وما أراد القاضي من بيعه، فقال: والله لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدًا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع، فإنه عمود السلطان وقوام الأديان(٢).

الموقف الخامس عشر

لا أسمع بأحد أفسد في أرض بعد اليوم

الأمير بدر بن حسنويه الكردي رحمه الله، قال عنه الحافظ ابن كثير: كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمدان، وله سياسة وصدقة كثيرة، كناه القادر بأبي النجم، ولقبه ناصر الدولة، وعقد له لواء وأنفذه إليه، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والطيبة، بحيث إذا أعيى جمل أحد من المسافرين أو دابته عن حمله يتركها بما عليها في البرية فيرد عليه ولو بعد حين لا ينقص منه شيء، ولما عاثت أمراؤه في الأرض فسادًا عمل لهم ضيافة حسنة، فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٩٥).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ١١٩)

فجلسوا ينتظرون الخبز، فلما استبطؤوه سألوا عنه فقال لهم: إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمون الزراع، فمن أين تؤتون بخبز؟ ثم قال لهم: لا أسمع بأحد أفسد في أرض بعد اليوم إلا أرقت دمه.

واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له: مالك تبكي؟ فقال: إني كان معي رغيفان أريد أن أتقوتها فأخذهما مني بعض الجند، فقال: أتعرفه إذا رأيته؟ قال: نعم. فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ رغيفيه، قال: هذا هو، فأمر به أن ينزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه، حتى تأدب به الجيش كلهم[(١)].

***

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٧).

الجهاد فى سبيل الله

مواقف الصالحين

- كلاكما قتله
- إن أمرنا يطول مع هؤلاء
- ننشدكم الله من هذا؟
- ما نعلم فى الإسلام مثله
- أنا زوجتك الخالدة
- ليلة بكى فيها الأسد
- موقف لأهل الإسكندرية فى صد حملة صليبية
- لو لم يكن له فى التاريخ إلا هذا لكفاه

الجهاد فى سبيل الله

قال الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]. وعلق النجاة فى النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑪ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢]. وأخبرهم أنهم إذا فعلوا ذلك أعطاهم من النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]. وأخبر سبحانه أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وأن هذا الوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهى التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذى عاقدوه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم، فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله، فإن الله عز وجل هو المشترى والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك، والذى جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه فى الملائكة والبشر، وأن سلعة هذا شأنها لقد هيأت لأمر عظيم وخطب جسيم.

قد هيئوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذى اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض فى سوق من يريد، فلم

يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن تكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم ووقعت فى يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلى حرفة الشعبى، فتنوع المدعون فى الشهود، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسول ﷺ فى أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة وقيل لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشترى وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه ومقدار الكتاب الذى أثبت فيه هذا العقد عرفوا أن للسلعة قدراً وشأنًا لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة تذهب شهوتها وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود فى جملة السفهاء، فعقدوا مع المشترى بيعة الرضوان رضاء واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. لم نبتغ منكم بنفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم بل ليظهر أثر الجود والكرم فى قبول المعيب والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادى الشوق فاطو المراحلا

وقل لمنادى حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفًا كواملا

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عُدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد — ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

فما هى إلا ساعة ثم تنقضى — ويصبح ذو الأحزان فرحان جازلا

عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شىء إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة**»(١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**يغفر للشهيد كل شىء إلا الدين**»(٣).

وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه**»(٤).

وعن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»(٥).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «دلنى على عمل يعدل الجهاد قال: **لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر** قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن فى طوله فيكتب له حسنات»(٦).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦/ ٣٢)، ومسلم (١٣/ ٢٤).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦/ ١٦)، ومسلم (١٣/ ٢٠).
(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣/ ٣٠).
(٤) صحيح: رواه الترمذى (٧/ ١٦١)، وابن ماجة (٢٧٩٩)، وصححه الألبانى.
(٥) صحيح: رواه النسائى (٤/ ٩٩). وصححه الألبانى.
(٦) صحيح: رواه البخارى (٦/ ٤)، ومسلم (١٣/ ٢٤).

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله»، قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره»[1].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[2].

وعن سلمان رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»[3].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالمًا مع أجر أو غنيمة»[4].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[5].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق»[6].

قال الإمام حسن البنا -طيب الله ثراه-: وقد أجمع أهل العلم مجتهدين ومقلدين، سلفيين وخلفيين، على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية لنشر

(١) صحيح: رواه البخارى (٦/٦)، ومسلم (١٣/ ٣٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦/ ١٣)، ومسلم (١٣/ ٢٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣/ ٦١)، والترمذى (٧/ ١٦٢)، والنسائى (٦/ ٣٩).

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦/ ٦)، ومسلم (١٣/ ٢٠)، والنسائى (٦/ ٢٠).

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٥: ٣٤). وصححه الألبانى.

(٦) صحيح: رواه مسلم (١٣/ ٥٦)، وأبو داود (٢٤٨٥)، والنسائى (٦/ ٨).

الدعوة، وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها، والمسلمون الآن كما تعلم مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار قد ديست أرضهم، وانتهكت حرماتهم، وتحكم فى شئونهم خصومهم، وتعطلت شعائر دينهم فى ديارهم فضلاً عن نشر دعوتهم، فوجب وجوبًا عينيًا لا مناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوى على نية الجهاد وإعداد العدة له حتى تحين الفرصة ويقضى الله أمرًا كان مفعولاً. اهـ.

فمن ثمَّ كان فى الإشارة إلى بعض مناقب الرعيل الأول من صفوة المسلمين، وحسن بلائهم ما عساه يوقظ الهمم الرُّقَّد، وينهض العزم المُقعَد، ومن لم تروه الإشارة، وطمحت نفسه إلى الاستزادة، فيطلب ذلك من مظانه المبسوطة، وبالله المستعان(١).

***

(١) انظر البحر الرائق (ص/١٧٨)، علو الهمة (٢٩٨). وانظر زاد المعاد، والجهاد ميادينه وأساليبه.

مواقف الصالحين

الموقف الأول

كلاكما قتله

قال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: بينما أنا واقف فى الصف يوم بدر، نظرت عن يمينى وشمالى، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما[١]، فغمزنى[٢] أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخى؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذى نفسى بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده، حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزنى الآخر فقال مثالها.

قال: فلم أنشب[٣] أن نظرت إلى أبى جهل يزول فى الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: **«أيكما قتله؟»** فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: **«كلاكما قتله»**، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. والرجلان: معاذ ابن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء[٤].

الموقف الثانى

إن أمرنا يطول مع هؤلاء

سير عثمان ابن الزبير فى جماعة إلى إفريقية، سنة ست وعشرين الهجرية، ليأتيه بأخبار الفتح، فسار مجدًا حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم، ولما وصل كثر الصياح والتكبير فى المسلمين، فسأل «جرجير» ملك إفريقية عن الخبر،

(١) أضلع: أقوى وأعظم وأشد
(٢) غمزنى: قرصنى.
(٣) أنشب: ألبث.
(٤) صحيح: رواه البخارى (٣٩٨٨).

فقيل: «قد أتاهم عسكر» ففتَّ ذلك فى عضده، ورأى عبد الله قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر، فلما أذن سمع منادى «جرجير» يقول: «من قتل عبد الله ابن سعد فله مائة ألف دينار، وأزوِّجه ابنتى. فخاف عبد الله على نفسه، فحضر ابن الزبير عند عبد الله بن سعد وقال له: تأمر مناديًا ينادى: من أتانى برأس «جرجير» نفلته مائة ألف، وزوجته ابنته، واستعملته على بلاده، ففعل فصار «جرجير» يخاف أشد من عبد الله بن سعد، ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله ابن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم فى أمداد متصلة، وبلاد هى لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر إلى أن نجد أن ينضجروا ويملُّوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان فى الخيام من المسلمين، ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوا على ذلك. وفى صباح الغد نفذ ابن سعد خطة ابن الزبير هذه، فأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديدًا، وهمَّ الروم بالانصراف على العادة، لم يتركهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبًا... عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد، وكبروا، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، ونظر عبد الله فرأى «جرجير» وقد خرج من عسكره، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله. فقد رأى ابن الزبير «جرجير» وراء عسكره على برذون أشهب، ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس» وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد، فاختار ثلاثين فارسًا من المسلمين وأخذهم معه.. ثم حمل فى الوجه الذى فيه «جرجير» وقال للفرسان

الذين معه: احموا ظهري... فخرق الصف إلى جرجير، وخرج صامدًا له، فعرف الشر، فثنى برذونه موليًا، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه بالسيف وحز رأسه، ونصبه في رمح، وكبر.. فحمل المسلمون من الوجه الآخر، فانهزم العدو في كل وجهة، ومنح الله المسلمين أكتافهم[(1)].

الموقف الثالث

ننشدكم الله من هذا؟

عن العلاء بن سفيان الحضرمي قال: غزا بُسر بن أرطأة الروم، فجعلت ساقته لا تزال تصاب، فيكمن لهم الكمين، فيصاب الكمين، فلما رأى ذلك، تخلف في مائة من جيشه، فانفرد يومًا في بعض أودية الروم، فإذا براذين[(*)] مربوطة نحو ثلاثين، والكنيسة إلى جانبهم فيها فرسان تلك البراذين الذين كانوا يعقبونه في ساقته، فنزل عن فرسه فربطه، ثم دخل الكنيسة فأغلق عليه وعليهم بابها، فجعلت الروم تعجب من إغلاقه، فما استقلوا إلى رماحهم حتى صرع منهم ثلاثة، وفقده أصحابه فطلبوه، فأتوا، فعرفوا فرسه، وسمعوا الجلبة في الكنيسة، فأتوها فإذا بابها مُغلق، فقلعوا بعض السقف، ونزلوا عليهم، وبُسر ممسك طائفة من أمعائه بيده، والسيف بيده اليمنى، فلما تمكن أصحابه في الكنيسة سقط بُسر مغشيًا عليه، فأقبلوا على أولئك، فأسروا وقتلوا، فأقبلت عليهم الأسارى، فقالوا: ننشدكم الله من هذا؟، قالوا: بسر بن أرطأة، فقالوا: والله ما ولدت النساء مثله، فعمدوا إلى أمعائه فردوه في جوفه، ولم ينخرق منه شيء، ثم عصبوه بعمائمهم، وحملوه، ثم خاطوه، فسلم، وعوفي[(2)].

---

(1) انظر أسد الغابة (٣/ ١٦٢)، الكامل (٣/ ٣٤)، تهذيب ابن عساكر (٧/ ١-٤).

(*) براذين: جمع برذون، يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء قوي الأرجل، عظيم الحوافر.

(٢) مشارع الأشواق (١/ ٥٤١).

الموقف الرابع

ما نعلم فى الإسلام مثله

الإمام، الزاهد، العابد، المجاهد، فارس الإسلام، أبو إسحاق، أحمد بن إسحاق السُّرْمارى، كان أحد الثقات، وبشجاعته يضرب المثل، وأخبار هذا الغازى تسُرُّ قلب المسلم، قال إبراهيم بن عفان البزاز: كنت عند أبى عبد الله البخارى، فجرى ذكر أبى إسحاق السرمارى، فقال: ما نعلم فى الإسلام مثله، فخرجت، فإذا أحيد رئيس المطوعة فأخبرته، فغضب ودخل على البخارى، وسأله، فقال: ما كذا قلت: بل: ما بلغنا أنه كان فى الإسلام ولا فى الجاهلية مثله».

وعن عبيد الله بن واصل قال: سمعت أحمد السرمارى يقول، وأخرج سيفه، فقال: أعلم يقينا أنى قتلت به ألف تركى، وإن عشت قتلتُ به ألفًا أخرى، ولولا خوفى أن يكون بدعة لأمرت أن يُدفن معى.

قال إبراهيم بن شماس: كنت أكاتب أحمد بن إسحاق السرمارى، فكتب إلىّ: إذا أردت الخروج إلى بلاد الغزية فى شراء الأسرى، فاكتب إلىّ، فكتبت إليه، فقدم سمرقند، فخرجنا، فلما علم جيغويه، استقبلنا فى عدة من جيوشه، فأقمنا عنده، فعرض يومًا جيشه، فمرَّ رجل، فعظمه، وخلع عليه، فسألنى عن السرمارى، فقلت: هذا رجل مبارز، يُعَدُّ بألف فارس، قال: أنا أبارزه، فسكت، فقال جيغويه: ما يقول هذا؟ قلت: يقول كذا وكذا، قال: لعله سكران لا يشعر، ولكن غدًا نركب، فلما كان الغد ركبوا، فركب السرمارى معه عمود فى كمه، فقام بإزاء المبارز، فقصده، فهرب أحمد حتى باعده من الجيش، ثم كر، وضربه بالعمود فقتله، وتبع إبراهيم بن شماس، لأنه كان سبقه، فلحقه، وعلم جيغويه، فجهز فى طلبه خمسين فارسًا نقاوة، فأدركوه، فثبت تحت تلّ مختفيًا، حتى مروا كلهم، واحدًا بعد واحد، وجعل يضرب بعموده من ورائهم، إلى أن قتل تسعة

وأربعين، وأمسك واحدًا، قطع أنفه وأذنيه، وأطلقه ليخبر، ثم بعد عامين توفى أحمد، وذهب ابن شماس فى الفداء، فقال له جيغويه: من ذاك الذى قتل فرساننا؟ قال: ذاك أحمد السرمارى، قال: فلم لم تحمله معك؟ قلت: توفى، فصكَّ فى وجهى، وقال: لو أعلمتنى أنه هو لكنت أعطيته خمس مائة برذون، وعشرة آلاف شاة»[1].

الموقف الخامس

أنا زوجتك الخالدة

عن رافع بن عبد الله قال: قال لى هشام بن يحيى الكنانى: لأحدثنك حديثًا رأيته بعينى وشهدته بنفسى ونفعنى الله عز وجل به فعسى الله أن ينفعك به كما نفعنى، قلت: حدثنى يا أبا الوليد قال: غزونا أرض الروم فى سنة ثمان وثلاثين وعلينا مسلمة بن عبد الملك وعبد الله بن الوليد بن عبد الملك وهى الغزوة التى فتح الله عز وجل فيها الطوانة، وكنا رفقة من أهل البصرة وأهل الجزيرة فى موضع واحد وكنا نتناوب الخدمة والحراسة وطلب الزاد والعلوفات، وكان معنا رجل يقال له سعيد بن الحرث ذو حظ من عبادة يصوم النهار ويقوم الليل، وكنا نحرص أن نخفف عنه من نوبته ونتولى ذلك فيأبى إلا أن يكون فى جميع الأمور بحيث لا يخلى شيئًا من عبادته، وما رأيته فى ليل ولا نهار إلا فى حال اجتهاد، فإن لم يكن وقت الصلاة أو كنا نسير لم يفتر عن ذكر الله تعالى ودراسة القرآن، قال هشام: فأدركنى وإياه النوبة ذات ليلة فى الحراسة، ونحن محاصرون حصنا من حصون الروم قد استصعب علينا أمره فرأيت من سعيد فى تلك الليلة فى شدة الصبر على العبادة ما احتقرت معه نفسى، وعجبت من قوة جسمه على ذلك، وعلمت أن الله يؤتى الفضل من يشاء، وأصبح كالاً من التعب فقلت له: يرحمك الله إن لنفسك عليك حقًا ولعينك عليك حقًا ولقد علمت أن رسول الله ﷺ قال: **«اكلفوا من العمل ما تطيقون»** وذكرت له شبه هذا من الأحاديث فقال لى: يا أخى

(1) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٧)، مشارع الأشواق (٢/ ١٠٠٨).

إنما هى أنفاس تعد وعمـر يفنى وأيام تنقضى وأنا رجل أرتقب الموت وأبادر خروج نفسى، فأبكانى جـوابه ودعوت الله عز وجل له العون والتـثبيت، ثم قلت له: نم قليلاً تسترح فإنك لا تدرى ما يحدث من أمر العدو فإن حدث شىء كنت نشيطًا، فنام إلى جانب الخبـاء، وتفرق أصحابنا فمنهم من هـو فى القتال، ومنهم من هو فى غير ذلك، وأقـمت فى موضعى أحرس رحالهم، وأصلح لهم طعـامهم، فأنا كذلك إذ سـمعت كلامًا فى الخـباء وعجـبت مع أنه ليس فيه غـير سعيـد نائمًا، وظننت أن أحدًا دخله ولم أره، فـدخلت فلم أجد أحدًا غيـره وهو نائم بحاله إلا أنه يتكلم وهو يضحك فى نومه، فأصغـيت إليه وحفظت من كلامه: ما أحب أن أرجع، ثم مدّ يده اليـمنى كأنه يأخذ شـيئًا ثم ردها بلطف وهو يضـحك ثم قال: فالليلة ثم وثب من نومـه وثبة استيقظ لهـا وهو يرتعد فاحتضنتـه إلى صدرى مدة وهو يلتفت يمينًا وشمالاً حتى سكن وعاد له فـهمه وجعل يهلل ويكبر ويحمد الله تعالى فقلت له يا أخى: مـا شأنك فقال: خيـر يا أبا الوليد، قلت: إنى قد رأيت منك شيئًا وسمعت منك كلامـًا فى نومك فحدثنى بما رأيت. فقال: أو تعفينى من ذلك، فذكرته حق الصـحبة، فقلت حدثنى يرحمك الله فـعسى الله أن يجعل لى فى ذلك عظة وخيـرًا. فحدثه عـما رأى فى منامه من قـول. رجلين له لم ير قط مثل صورتهما كمالاً وحسنًا: يا أبا سعيـد أبشر فقد غفر ذنبك وشكر سعيك وقبل عملك واسـتجيب دعاؤك وعـجلت لك البشرى فى حـياتك، فانطلق مـعنا حتى نريك ما أعـد الله لك من النعيم. وظل سعيـد يسرد ما رأى من القـصور والحور وترحيبهن به، والجوارى، حتى انتهى إلى سـرير عليه واحدة من الحور العين كأنها اللؤلؤ المكنون فقالت له: قد طال انتظارنا إياك، فقلت لها أين أنا؟ قالت: فى جنة المأوى. ومن أنت: قالت: أنا زوجـتك الخالدة. قال: فـمددت يدى إليها فـردتها بلطف وقـالت: أما اليـوم فلا إنك راجع إلى الدنيـا، فقلت مـا أحب أن أرجع. فقـالت: لابد من ذلك وستقـيم ثلاثًا ثم تفطر عندنا فى الليلة الثالثـة إن شاء الله تعالى. فقلت: فالليلة الليلة، قالت: إنه كان أمرًا مقضيًا، ثم نهضت عن مجلسها

ووثبت لقيامهـا فإذا أنا قد استيقظت، قال هشـام: فقلت يا أخى أحدث لله شكرًا فقد كـشف لك عن ثواب عملك، فقـال لى: هل رأى أحد غيرك مـثل ما رأيت منى، فقلت لا. فقال: أسألك بالله عز وجل إلا سـترت علىّ ما دمت حيًا فقلت نعم. فقال: مـا فعل أصحابنا فقلت: بـعضهم فى القتال وبعـضهم فى الحوائج، فقام فتطهر واغـتسل ومس طيبًا وأخذ سلاحه وسار إلى مـوضع القتال وهو صائم فلم يزل يقاتل حتى الليل، وانصرف أصحـابه وهو فيهم، فقالوا لى: يا أبا الوليد لقد صنع هذا الـرجل شيئًـا ما رأيناه صنع مثله قط، ولـقد حرص على الشـهادة وطرح نفسه تحت سهام العدو وحجارتهم وكل ذلك ينبو عنه، فقلت فى نفسى لو تعلمون شأنه لتنافـستم فى مثل صنيعه، قـال: وأفطر على شىء من الطعام وبات ليلته قائمًا وأصـبح صائمًا فصنع كصنيعه بالأمس، وانصرف من آخـر النهار فذكر عنه أصحابه مثـل ما ذكروه بالأمس، حتى إذا كان اليوم الثالث وقـد مضت ليلتان انطلقت معه وقـلت لابد أن أشهد أمره وما يكون منه، فلم يزل يـلقى نفسه تحت مكايد العدو نهـاره كله ولا يصل إليه شىء وهو يؤثر فيـهم الآثار، وأنا أرعاه من بعيد لا أستطيع الدنو منه، حتى إذا نزلت الشمس للغروب وهو أنشط ما كان فإذا برجل من فوق حائط الحصن قد تعمده بسهم فوقع فى نحره فخر صريعًا وأنا أنظر إليه، فصـحت بالناس فابتدروه واجـتذبوه وبه رمق وجاءوا به يحملونه فلـما رأيته قلت له: هنيئًا لك بما تفطر عليه الليلة يا ليتنى كنت مـعك. فعضّ شفته السفلى، وأومأ إلىَّ ببصره وهو يضحك يعنى اكتم أمرى حتى أموت.

ثم قال: الحمـد لله الذى صدقنا وعده فوالله ما تكلم بشىء غـيرها، ثم قضى رحمة الله علـيه: قال هشام: فقـلت بأعلى صوتى: يا عباد الله لمثل هذا فليـعمل العاملون، اسمـعوا ما أخبركم به عن أخـيكم هذا، فاجتمع الناس إلىَّ فـحدثتهم بالحديث على وجهـه فما رأيت قط أكثر من تلك السـاعة باكيًا، ثم كبـروا تكبيرة اضطرب لهـا العسكر، وأقـبلوا للصلاة عليـه، وبلغ ذلك مسلمـة بن عبـد الملك فقـال: يصلى صاحبـه الذى عرف من أمره ما عـرف، قال هشام: فـصليت عليه

ودفناه فى موضعه، وبات الناس يذكرون حديثه ويحرض بعضهم بعضًا ثم أصبحوا فنهضوا إلى الحصن بنيات مجددة وقلوب مشتاقة إلى لقاء الله عز وجل فما أضحى النهار حتى فتح الله الحصن ببركته رحمه الله تعالى[1].

الموقف السادس

ليلة بكى فيها الأسد

رحم الله الإمام حسن البنا ورجاله، طيف من النور ألمّ بهذه الدنيا إلمام الغريب الطارئ أو الضيف العابر ثم تركها ومضى، ماذا يأخذ الطيف من الدنيا حين يلمّ بها قدسيًا من عالم القدس، نورانيًا من عالم النور؟ أو ماذا يجمع لنفسه منها؟ لا شىء وماذا يترك الطيف من هذه الدنيا حين يلمّ بها؟ إنه يترك كل شىء حين يترك للضمائر نورها، وللنفوس قدسها وطهرها، وهكذا كان حسن البنا.

ولله در الأميرى حين يصفه فيقول:

وإذا الداعى دعا لجهاد همته
وعلى الباغى على أى حق غضبته
قلت هذا قسور هاج يزجى ضربته
وهو فى الواقع شهم ثار يحمى أمته
صيحة الأجداد فى الأحفاد حاكت صيحته
وأنين المجد فى الأصفاد أورى ثورته
أنت لو أبصرته لقدرت قدرته
بشر من ملك قد تلقى فطرته

سيذكر التاريخ بكل الفخر والإعزاز الموقف المشرف للإخوان ولبطلهم معروف الحضرى موقفهم البطولى فى حماية الجيش المصرى أثناء حصار خمسة آلاف من

(١) فكاهة الأذواق ص (ص/٨٦).

أبنائه فى الفالوجا كان من بينهم جمال عبد الناصر، وسيسجل الزمان بمداد من نور الدور البارز لهم فى تأمين الجيش المصرى أثناء انسحابه وشهادة قيادة القوات المصرية فى فلسطين اللواء أحمد المواوى واللواء فؤاد صادق.

حاصر اليهود «٥٠٠٠ جندى» فى الفالوجا فى «١٦/ ١٠/ ١٩٤٨» وظلوا محاصرين حتى نهاية الحرب. وفى «١٣/ ١١/ ١٩٤٨» وعندما ساءت أحوال القوة المحاصرة استنجدت قيادة الجيش بقوات الإخوان التى غامرت باختراق الحصار اليهودى فى رحلتين على الجمال، تحت قيادة المجاهد معروف الحضرى، ونجحوا فى إيصال أكثر من مائة صندوق من المؤن إليهم، واستقبلهم الضباط والجنود بفرحة لا توصف على حد تعبير اللواء سيد طه قائد القوات، وقال جمال عبد الناصر: «إن الجيش كله لن ينسى ما قام به الإخوان».

وفى أثناء الهدنة اغتنم اليهود الأمر، وهاجموا قرية العسلوج حيث كانت ترابط قوة صغيرة من جنود الإخوان يقودها المجاهد عبد المنعم عبد الرءوف، ولم تصمد القوة الصغيرة طويلاً أمام هذا الهجوم المباغت، ومما يذكر أن ثلاثة من المجاهدين وهم «رشاد زكى»، و «محمد ماهر»، و«عبد الله البتانونى»» كان القائد قد وكل إليهم مهمة حراسة مخازن الذخيرة وكانت المخازن مليئة بالأسلحة والذخائر، إذ كانت هذه القرية هى مستودع الذخيرة الذى يُموِّن المنطقة، وأفاق المجاهدون فوجدوا العدو داخل الموقع وسمعوه يحاول احتلال المخازن، وقرروا نسف المخازن حين يدخلها العدو، واختبأوا خلف كومة من الصناديق حتى امتلأ المخزن بالجنود اليهود، ثم أشعلوا النار فى صناديق المفرقعات، وفى لحظة استحال البناء الضخم إلى كومة من الأنقاض، ومات الأبطال الثلاثة بعد أن جرّوا العدو الغادر إلى كارثة مدمرة. ولما احتل اليهود العسلوج ولها أهمية كبرى بالنسبة لخطوط المواصلات، وكانت رياسة الجيش تهتم كل الاهتمام باسترجاع هذه البلدة، حتى أن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل إلى اللواء أحمد المواوى القائد العام إشارة هامة يقول فيها: «لابد من استرداد العسلوج بأى ثمن».

يقول اللواء المواوى: وكانت الخطة التى رسمتها لاسترجاع هذه البلدة هى الهجوم عليها من كلا الطرفين من الجانبين، فكلفت المرحوم أحمد عبد العزيز بك بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين الإخوان وكانت صغيرة بقيادة ملازم، وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة ولكن القوة الصغيرة «أى متطوعى الإخوان» هى التى تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها.

ولما سئل اللواء المواوى عن السبب فى تغلب القوة الصغير ونجاحها وإخفاق الأخرى قال: «القوة الغربية كانت من الرديف وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها، إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط، المسألة مسألة روح». وهكذا تحررت «العسلوج» على يد قوة من الإخوان بقيادة الملازم الأخ يحيى عبد الحليم.

هذا. وقد كان هدف اليهود كما جاء فى الأمر اليومى الذى أصدره «إيجال ألون» إلى جنود الجبهة الجنوبية يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ هو من أجل القضاء النهائى على جيش مصر، وأراد اليهود قطع طرق المواصلات الرئيسية للقوات المصرية باحتلال «التبة ٨٦» إذ باحتلالها تُطوق القوات المصرية تمامًا ويقضى عليها.

وانتهز اليهود الهدنة وفاجأوا والقوات المصرية بهجوم غادر على التبة مساء ٢٢ ديسمبر حيث قاموا بضربها ضربًا محكمًا مركزًا بالمدفعيات والهاونات، ثم قام العدو بعد ذلك باقتحامها واحتلال المواقع الدفاعية الهامة فى سفحها ولم يأت فجر ٢٣ ديسمبر إلا وكان قد أتم احتلالها تقريبًا. وأحيط بالجيش المصرى من كل جانب، المدفعية تصليه بنيرانها، والقناصة تتصيد الضباط والمصفحات تطوقه.

وتحدث الأمير محمود رأفت إلى كامل الشريف المسئول عن الإخوان فى ساعة متأخرة من ليل ٢٣ وطلب منه أن يستعد الإخوان ليكونوا آخر ورقة يقذف بها وجه العدو. وانطلق المجاهدون وهم ينشدون نشيدهم المعروف.

هو الحق يحشد أجناده ... ويعتد للموقف الفاصل

فصفوا الكتائب آساده ... ودكوا به دولة الباطل

وتمكنت قوة المجاهدين من احتلال أطراف خنادق العدو وأخذت تطهرها جزءًا جزءًا، ثم أكمل الجيش مهمته.. وانتهت المعركة بنصر حاسم. ووجد ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيليين وبينهم قائد المعركة وهو «كولونيل» روسى يحتل مركزًا هامًا فى الجيش الإسرائيلى، ووجدت فى جيبه تفاصيل الخطط المقبلة التى كان يراد منها إلقاء الجيش المصرى فى أعماق البحر. وطالب اللواء فؤاد صادق قائد القوات المصرية فى فلسطين الحكومة بالإنعام بأوسمة عسكرية رفيعة على الإخوان إشادة بفضلهم واعترافًا بجهادهم.

يا سبحان الله! فى ٨/ ١٢/ ١٩٤٨ صدر قرار سحب مجاهدى الإخوان من الميدان واعتقالهم فى معسكراتهم وسُلمت الأسلحة إلى قيادة الجيش.

وفى ٢٣/ ١٢/ ١٩٤٨ والإخوان يومئذ معتقلون فى معسكراتهم بأوامر القيادة السياسية فى القاهرة، وفشل الجيش فى استرداد التبة وهرعوا إلى الإخوان لإنقاذ ما تبقى، واستطاع مجاهدو الإخوان تحت قيادة المجاهد حسن دوح وإخوانه استرداد الموقع وتسليمه للجيش المصرى، وبعد إتمام المهمة عاد الإخوان مرة ثانية إلى المعتقلات. وكما قلنا تقدم القائد العام اللواء فؤاد صادق إلى الحكومة طالبًا منح نياشين رفيعة المستوى للإخوان، ولكن الحكومة ماطلت، غير أن القائد الشجاع أصرّ فصدرت النشرة العسكرية فى مايو ١٩٤٩ تحمل أسماء «١٥ جنديًا» من الإخوان تحت اسم جماعة المتطوعين المصريين.

وفى ٢٦/ ١٢/ ١٩٤٨ بعد احتلال اليهود للفالوجة وبداية انسحاب الجيش المصرى من النقب كان للإخوان دور كبير فى حماية الانسحاب والتصدى لليهود الذين كانوا يهدفون إلى إبادة القوات المنسحبة.

وفى ١٣/ ٢/ ١٩٤٩ تلقى الإخوان نبأ اغتيال الإمام حسن البناء وفى ١٤/ ٢/ ١٩٤٩ جاءت التعليمات بتسليم المعسكر الذى يقيمون فيه، وبعد انتهاء عملية التسليم، حملتهم السيارات إلى رفح للمبيت لاستئناف السير فى الصباح.

وفى الصباح فوجئ الإخوان بالعنبر محاطًا بالأسلاك الشائكة ومحاصرًا بقوات معها المدافع الرشاشة، وصدور أمر باعتقال الإخوان.

وفى ٢٤/ ٢/ ١٩٤٩ وقعت الهدنة الدائمة بين العرب اليهود فى رودس.

انظروا إلى مذكرات اللواء فؤاد صادق واللواء المواوى والبطل أحمد عبد العزيز واكتبوا للتاريخ أن كل رجل وكل امرأة فى مصر تفخر بأن يكون معروف الحضرى ابنًا أو أخًا له... اللواء معروف الحضرى الذى حمى انسحاب الجيش المصرى برجولة وبسالة منقطعة النظير، والذى حاول مرات عديدة كسر حصار الفالوجا لإنقاذ الجيش المصرى وفيه جمال عبد الناصر، وأصيب معروف الحضرى ووضع فى أسر اليهود فما بكى، ورد له عبد الناصر الدَّين بوضعه فى المعتقل وتعرض للتعذيب والإهانة.. والحرّ من رعى وداد لحظة. وبكى الأسد فى سجون مصر.. يا لبكاء الأسد.. يا لبكاء الرجال.. والموعد الله[(١)].

الموقف السابع

موقف لأهل الإسكندرية فى صد حملة صليبية

ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٧٠ أن أسطولاً بحريًا حربيًا خرج من صقلية لغزو مصر، وهو مكون من ٢٠٠ سفينة تحمل الرجال و٣٦ تحمل الخيل، إضافة إلى ستة مراكب كبار تحمل آلة حرب و٤٠ مركبًا تحمل الأزواد، وأن عدد المقاتلين، خمسون ألفًا من الرجالة وألف وخمسمائة من الفرسان، وكانت تلك

(١) انظر: الطريق إلى بيت المقدس د. جمال عبد الهادى. وموسوعة الشهداء. عبد الحليم الكنانى والإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ. محمود عبد الحليم. الإخوان فى حرب فلسطين. كامل الشريف. نقلاً عن ترطيب الأفواه د. العفانى.

الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية، فوصلوا إلى الإسكندرية فى ٢٦ من ذى الحجة سنة ٥٦٩هـ على حين غفلة من أهلها وطمأنينة، فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر مما يلى البحر والمنارة، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم، وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجددوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان فى أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم فارون وكثر الصياح من كل الجهات، فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال، فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أمارته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثر القتل والجراح فى رجالتهم.

وأما صلاح الدين لما وصله الخبر سار بعساكره، وسير مملوكًا له معه ثلاث جنائب ليجدَّ السير عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله، وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفًا عليها واحتياطًا لها، فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى فى البلد بمجىء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله.

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين فى عساكره فسقط فى أيديهم فزادوا تعبًا وفتورًا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثر القتل فى رجالة الفرنج فهرب الكثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين فى الماء وخرق شوانى بعض الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين، واحتمى ٣٠٠ من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم.

فى هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربى. ولقد كان أهل الإسكندرية فى غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيرًا فى العدد والعُدد، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا العدو وهم آمنون، وحيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤن على الخروج لقتالهم. ونجد فى هذا الخبر موقفًا فدائيًا فى غاية الروعة حينما غاص فى البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن العدو من تحتها فأغرقوها، فهذه عملية فى منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية من فوق السفن.

وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال من المسلمين أن يشردوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيرًا من جنودها وعددًا كبيرًا من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل، وفى هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العينى، وذلك فيما إذا دهم العدو دار السلام، فإن الجهاد يجب على كل قادر فى ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية فى صد الأعداء(١).

(١) التاريخ الإسلامى (٢/ ١٩١) إبراهيم محمود. دار ابن خلدون.

الموقف الثامن

لو لم يكن له فى التاريخ إلا هذا لكفاه

خرج الأخوان عروج وخير الدين بربروس من قاعدتهما فى مرفأ حلق الوادى ومعهما قوة من ثلاث سفن صغيرة واصطدما بسفينة حربية كبيرة كانت تنقل ثلاثمائة جندى أسبانى من نابولى إلى برشلونة، وكانت السفينة أقوى بحجمها وبنيران مدفعيتها من مجموع السفن الثلاث.

واندفعت السفن فى محاولة لأسر السفينة وأحبطت محاولات السفن الإسلامية سبع مرات متتالية وفى الهجوم الثامن وبعد أن أصيب عروج بجرح بليغ، نجح خير الدين بالوصول إلى السفينة المعادية وقذف بنفسه فوقها، ولحق به المجاهدون بسرعة، وأمكن لهم الاستيلاء على السفينة بعد معركة عنيفة، وأسروا كل من فيها واقتادوها إلى مرسى حلق الوادى.. تلك كانت بداية البطلين... فما ظنك بالخاتمة.

وفى سنة ٩٢٠ هـ يهاجم الأخوة بربروس بجاية للمرة الثانية دعمًا للمجاهدين، ونجح عروج فى الاستيلاء على سفينة من سفن الأسطول الأسبانى وأغرق أخرى فى معركة رهيبة أصيب فيها بكسر فى ذراعه ولم يجد الأطباء يومئذ لها من علاج إلا البتر.

ولما سقطت جيجل فى قبضة المغامر أندريا -دوريا وأسطوله بعد معركة وحشية وطُرد المسلمون منها، استنجد أهل جيجل المشردون بعروج، وقاد عروج قوته البحرية ومعه إخوته واتصل بمجموعات المجاهدين من أهل جيجل، وبعد معركة عنيفة استطاع عروج اقتحام المدينة وإبادة حاميتها إبادة تامة، ووفقه الله لطرد الصليبيين من بلدة إسلامية، وكانت أول بلدة ينقذها على ساحل البلاد.

ولما ارتفعت الاستغاثات من أهل الأندلس طالبة الإنقاذ، توجه عروج وخير الدين على رأس قوة بحرية ملبيًا أصوات الاستغاثة من المستضعفين من الرجال

والنساء والأطفال الذين نكث الأسبان بوعودهم تجاههم وأصبحوا يرغمونهم على اعتناق المسيحية تحت تهديد الإبادة.

وأنقذ خير الدين ما أمكن إنقاذه، وانقض على جزائر الباليئار التى أصبحت تحت سيطرة الأسبان، واحتل مينورقة وأخذ أسرى من أهلها، ثم رجع إلى قاعدته فى مدينة جيجل.

وبعدها سقط عروج مؤسس دولة الجزائر شهيدًا واحتزوا رأسه وساروا بها إلى أسبانيا، حيث طيف بها على أكبر مدنهم، وذهبوا بها بعد ذلك إلى أغلب المدن الأوروبية التى كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر بربروس وينتقم خير الدين لأخيه ويدمر الأسطول الأسبانى أمام الجزائر هذا الأسطول الذى أرسله ملك أسبانيا شارلكان سنة ٩٢٥ هـ ١٥١٩ م وكان مكونًا من أربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف من المقاتلين الأسبانيين والأوروبيين وانضمت إليها قوة ضخمة فى بجاية وفى (٢٠ أغسطس ٩٢٥ هـ -١٥١٩ م) ينتصر المسلمون انتصارًا كاملاً وتغرق مياه البحر أربعة آلاف من المقاتلين الأسبانيين، ويقع فى قبضة الأسر ثلاثة آلاف مقاتل، وقد حاول هؤلاء تنظيم صفوفهم والانقضاض على المسلمين فتمت إبادتهم إبادة كاملة وبذلك دمرت الحملة تدميرًا كاملاً.

وفى سنة (٩٣٦ هـ- ١٥٣٠ م) ينتصر خير الدين على الحملة الصليبية الأسبانية ويدمر (١١ سفينة) حربية تدميرًا كاملاً ولم ينج من الأسطول الأسبانى إلا سفينة واحدة فقط استطاعت الفرار لتعلم الأسبان بالمجزرة الرهيبة التى قضت على الأسطول فى جزر الباليئار.

وفى سنة ٩٣٧ هـ يصل الأميرال اندريا دوريا على رأس أسطول يضم عشرين سفينة تحمل ألفًا وخمسمائة من المقاتلين الأشداء لتدمير الأسطول الإسلامى ودارت معركة شرشال ولم تغرب شمس يومها إلا وقد انتشرت جثث ألف وأربعمائة من الأسبانيين، بالإضافة إلى ستمائة أسير وقعوا فى قبضة المجاهدين.

أهل الأندلس يستغيثون بخير الدين بربروس فينقذ سبعين ألفًا منهم، بعد هزيمة شرشال تعرّض المسلمون فى الأندلس لمزيد من القهر والاضطهاد، وارتفعت أصوات الاستغاثة من أهل الأندلس بخير الدين، فمضى ومعه (٣٦ سفينة) حتى بلغ السواحل الأسبانية التى التجأ إليها المسلمون، ولم يجرؤ الأسطول الأسبانى للتعرض لأسطول خير الدين فأخذ هذا على سفنه أكبر عدد من الراغبين فى الحفاظ على دينهم، وكان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق أرض الأندلس حتى يحمل مقابلهم عددًا من النازحين، حتى إذا ما أوصلهم إلى الجزائر، عاد إلى أسبانيا ليأتى بغيرهم.

وكرر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية حتى تمكن من إنقاذ سبعين ألفًا من رجال الأندلس ونسائهم وأطفالهم.

لله دره من مجاهد عظيم استجاب لنداء إخوانه وكان شجى فى حلوق الكافرين، وعرف السلطان العثمانى سليمان القانونى فضل هذا المجاهد الفذ فعينه أميرًا للبحر سنة ٩٣٩ هـ مع بقائه على رأس دولة الجزائر.

جاء فى رسالة بعث بها أهالى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى (سنة ١٥٤١م): «قد كان بجوارنا الوزير المكرم المجاهد فى سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر... فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدى الكفرة المتمردين، نقلهم إلى أرض الإسلام وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان[1]».

***

(١) استجابات إسلامية (ص/ ١٠٤) محمد عقيل، خير الدين بربروس، بسام العسيلى، ترطيب الأفواه (٢/ ٢١٠).

الأخوة فى الله

مواقف الصالحين

- ما استطعت أن أنظر إليك.
- انطلق إليه.
- أبكى لأنى لم أتفقد حاله.
- أيما أحب إليك؟
- من يريد منكم الحج؟
- كيف أشكر هاتين الرجلين؟
- هذا من شرطى.
- هذه أخرى يا أبا عبيد.
- مات فى البلد الليلة رجل من أهل الجنة.
- أواسيك فى الحفاء.
- نفسى ما تسامحنى بهذا.

الأخوة فى الله

إن الروابط الإنسانيـة بين البشر تُعَدُّ إكسير الحيـاة؛ فالإنسان ليس مجـرد مادة فحـسب، كمـا أنه ليس عقـلاً فقط، إنه -فـضلاً عن ذلك- عـواطف ومشـاعر وأحاسيس، فله حيـاة وجدانية لا يمكن إغفالها. وتتـضح العلاقات بين الناس فى صور مخـتلفة: فقد تكون علاقة مـحبة أو أخوة، وقد تكون صـداقة، وقد تكون صلة منافع أو مصالح مشتركـة.. أو غير ذلك من صور أخرى. ومن هنا تختلف درجات هذه الروابط بين البشر قوة وضعفًا.

ومن بين أسمى القيم التى تجمع بين الناس قيمة الأخوة لكن فى الله.

قال ﷺ: «**إن أوثق عرى الإيمان أن تحب فى الله، وتبغض فى الله**»(١).

وقال ﷺ: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فقد استكمل الإيمان**»(٢).

وقال ﷺ: «**ما تحاب اثنان فى الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه**»(٣).

والصداقة الحـقيقيـة نزيهة ومجردة من كل شكل من أشكال الـهوى والغرض، إنها علاقة بريئة من أى أغراض جانبيـة، تنبنى على عاطفة متبادلة تنشأ بين فردين على أساس من الاتفاق بينهـما فى الميول. وتتكون هذه العاطفة المتـبادلة بالتدريج عن طريق المخالطة والمصـاحبة. وتلعب الصـداقة دوراً مهمًـا فى تطوير شخصـية الفرد، خـاصة فى مـرحلة الشبـاب. وأساس هذه العـلاقة الحـميـمة يتمـثل فى الإخلاص والوفاء والأمانة.

(١) حسن: رواه أحمد، وابن أبى شيبة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٣/١).
(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (رقم ٣٨٠).
(٣) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد (٥٤٤)، وابن حبان (٢٥٠٩)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (رقم/ ٤٥٠).

فالصديق ينبغى أن يكون مرآة صديقه يرى فيه نفسه. ومن شأن الصديق ألا يخدع صديقه كما لا يخدع نفسه، وعندما ينصحه فإن ذلك يكون من منطلق إخلاص كل منهما للآخر.. ولا يتأتى ما سبق إلا بالحب فى الله ولله.

من فضائل المحبة فى الله:

١- أن المحبة فى الله سبب لمحبة الله للعبد.

عن أبى الدرداء -رضى الله عنه- يرفعه قال: «ما من رجلين تحابا فى الله بظهر الغيب إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبًا لصاحبه»(١).

٢- ومنها أن الله سبحانه وتعالى يُظل المتحابين فيه فى ظله يوم لا ظل إلا ظله. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»(٢).

٣- أن الحب فى الله والبغض فى الله دليلان على كمال إيمان العبد.

عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»(٣).

٤- أن الحب فى الله سبب لذوق حلاوة الإيمان وطعمه.

كما فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف فى النار»(٤).

وقال ﷺ: «من أحب أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله»(٥).

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط كما فى المجمع (١٠/٢٧٦)، وجود إسناده المنذرى.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٤/١٩٨٨).
(٣) صحيح: رواه أبو داود (٥/ ٦٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.
(٤) صحيح: رواه البخارى (١/ ٦٠)، ومسلم (١/٦٦).
(٥) حسن: رواه أحمد (٢/٢٩٨)، والبزار (١/ ٥٠)، والحاكم (٤/١٦٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٥٨).

٥- أن المرء بمحبته لأهل الخير لصلاحهم واستقامتهم يلتحق بهم ويصل إلى مراتبهم، وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغهم.

ففى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول فى رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحب»[١]. وعن أنس رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبى ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها»؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ: «أنت مع من أحببت» فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم[٢].

٦- ومن فوائد المحبة فى الله أن الله يُكرم من أحب عبدًا لله.

وإكرام الله للمرء يشمل إكرامه له بالإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وسائر صنوف النعم. عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحب عبد عبداً لله إلا أكرمه الله»[٣].

٦- أن المتحابين فى الله لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء.

كما فى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن معاذ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[٤].

وعقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضى النكاح حقوقًا يجب الوفاء بها قيامًا بحق النكاح، فكذا عقد الأخوة، فلأخيك حق

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٠/ ٥٥٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧/ ٤٢)، (١٣/ ١٣١)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢).

(٣) حسن: رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخوان (ص/ ١٠٤)، والمقدسى فى كتاب المتحابين فى الله (ص ٢٧) واللفظ لهما، ورواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٥٩) بلفظ: «إلا أكرم ربه عز وجل». وقال الألبانى عن إسناد الحديث: هذا إسناد شامى جيد (١٢٥٦) الصحيحة، وحسنه السيوطى والمناوى.

(٤) صحيح: رواه الترمذى (٤/ ٥٩٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٢).

فى المال والنفس وفى اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك بجمعه ثمانية حقوق:

الحق الأول: فى المال:

الأخوان إنما تتم أخوّتهما إذا ترافقا فى مقصد، فهما من وجه كالشخص الواحد، وهذا يقتضى المساهمة فى السراء والضراء والمشاركة فى المآل والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار. قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: لعشرون درهمًا أعطيها أخى فى الله أحب إلىَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضًا: لأن أصنع صاعًا من طعام وأجمع عليه إخوانى فى الله أحب إلىَّ من أن أعتق رقبة. وجاء فتح الموصلى إلى منزل لأخ له وكان غائبًا، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته فأخبرت الجارية مولاها فقال: إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سرورًا بما فعل. قال ابن عمر رضى الله عنهما: أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: أخى فلان أحوج منى إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة. وروى أن مسروقًا أدان دينًا ثقيلاً وكان على أخيه خيثمة دين قال: فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم، ولما آخى رسول الله بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فيهما، فآثره بما آثره به، وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة والبداية إيثار والإيثار أفضل من المساواة. وقال أبو سليمان الدارانى: لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من إخوانى لاستقللتها له. وقال أيضًا: إنى لألقم اللقمة أخًا من إخوانى فأجد طعمها فى حلقى. وروى أن مالكًا بن دينار ومحمدًا بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبًا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك: كف يدك حتى يجىء صاحب البيت. فلم يلتفت محمد إلى قوله

وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقًا فدخل الحسن وقال: يا مويلك هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضًا حتى ظهرت أنت وأصحابك.

الحق الثانى: فى الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة:

وهذه لها درجات؛ فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة. قضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إلى. فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده فى الموتى. وكان فى السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجاتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم فى حياته، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول: هل لكم زيت؟ هل لكم ملح، هل لكم حاجة؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه. وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها. وبالجملة، فينبغى أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك، وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته، ولا ترى لنفسك حقًا بسبب قيامك بها؟

الحق الثالث: فى اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى:

أما السكوت: فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه.. وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله.. وليسكت عن أسراره التى بثها إليه، ولا يكشف عن شىء منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن.

وبالجملة: فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت. قال عيسى عليه السلام للحواريين: «كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا وقد كشف الريح ثوبه عنه؟

قالوا: نستره ونغطيه.

قال: بل تكشفون عورته!

قالوا: سبحان الله.. من يفعل هذا؟

فقال: أحدكم يسمع الكلمة فى أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها».

وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به.

وقال بعض الحكماء: لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه. بل ينبغى أن تكون صداقة الأخوة ثابتة على اختلاف هذه الأحوال، ولذلك قيل:

وترى الكريم إذا تصرم وصله يخفى القبيح ويظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تقضى وصله يخفى الجميل ويظهر البهتانا

الحق الرابع: على اللسان بالنطق:

فإن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكاره تقتضى أيضًا النطق بالمحاب بل هو أخص بالأخوة. قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره**»[(١)].

وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حُب؛ فإن عرف إنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فإذا عرفت أنه أيضًا يحبك زاد حبك لا محالة فلايزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف.

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذى (٢٥١٥).

والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين.. ولذلك علم فيه الطريق فقال ﷺ: «تهادوا تحابوا»[1].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلِّم عليه إذا لقيته أولاً، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه».

ومن ذلك: أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وجميع ما يفرح به.

وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذب عن عرضه في غيبته؛ فحماية الأخوة بدفع ذمّ الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة.

ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، وللنصيحة آداب: قال الشافعي -رحمه الله-: «من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه». وقد صدق، فإن النصح على الملأ فضيحة.

وقال ذو النون -رحمه الله-: «لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة».

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات:

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية وإما في حقك بتقصيره في الأخوة.

أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله.

(١) حسن: رواه البخاري في الأدب المفرد (٢/ ٢١)، والبيهقي (٦/ ١٦٩)، وحسنه الألباني في الإرواء (رقم/ ١٦٠١).

قال أبو الدرداء: «إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى».

وأما زلته في حقك بما يوجب إيحاشه فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال، بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن فهو واجب بحق الأخوة.

قال الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة».

وقال الفضيل: «من طلب أخًا بلا عيب بقي بلا أخ».

وقال أبو حاتم: «الواجب على العاقل إذا رزقه الله ود امرئ مسلم صحيح الوداد محافظ عليه: أن يتمسك به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صرمه -هجره- وعلى الإقبال إن صَدَّ عنه، وعلى البذل له إن حرمه، وعلى الدنو منه إن باعده، حتى كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوداد.

قالت بنت عبد الله بن مطيع لزوجها «طلحة بن عبد الرحمن بن عوف» وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيت قومًا ألأم من إخوانك!! قال لها: مه، ولِمَ ذلك؟ قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك. فقال لها: هذا والله من كرم أخلاقهم، يأتوننا في حال قدرتنا على إكرامهم، ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقهم.

فلله درُّه كيف تأول صنيع إخوانه على أوفى وأكمل الأخلاق والنظرات.. وما ذاك إلا من تقاه وإيمانه وحسن خلقه.

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهدًا كلَّ عثرة يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبًا كان أو صادقًا فاقبل عذره.

الحق السادس: الدعاء له فى حياته وبعد مماته:

كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: «إنى لأدعو لسبعين من إخوانى فى سجودى أسميهم بأسمائهم». وقال بعض السلف: «الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان. قال: فيفرح بذلك كما يفرح الحى بالهدية!».

وكان محمد بن يوسف الأصفهانى يقول: «وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت، وهو منفرد بحزنك مهتم مما قدمت وما صرت إليه، يدعو لك فى ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى».

الحق السابع: الوفاء والإخلاص:

ومعنى الوفاء: الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يُراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى، ولذلك قال ﷺ فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله: «**ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»(١).

ومن الوفاء ألا تتغير حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه.

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: «يا بنى لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك». ومن تمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل:

وجدت مصيبات الزمان جميعها ... سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

(١) صحيح: رواه مسلم [١٠٣١].

وأنشد ابن عيينة هذا البيت، وقال: «لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إليّ أن حسرتهم ذهبت من قلبي».

الحق الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف:

وذلك لا يكلف أخاه ما يشق عليه، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركًا بدعائه واستئناسًا بلقائه واستعانة به على دينه وتقربًا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته.. وتمام التخفيف بطي بساط التكليف.

قال علي -رضي الله عنه-: «شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار».

وقال الفضيل -رحمه الله-: «إنما تقاطع الناس بالتكلف؛ يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه». وكان جعفر الصادق يقول: «أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي».

وقد قيل: «من سقطت كلفته دامت أُلفته ومن خفت مؤنته دامت مودته»[1].

***

(١) لمزيد من التفصيل انظر إحياء علوم الدين للغزالي، وترطيب العفاني ووصايا سعد يوسف.

مواقف الصالحين

الموقف الأول

ما استطعت أن أنظر إليك

عن مطر الوراق قال: أتيت محمدًا بن واسع يومًا، فلما رآنى قال برأسه بين رجليه فخمَّر وجهه أن أنظر إليه، فلم يرفع رأسه، فقمت، فذهبت، فلما كان بعد أيام أتانى بكيس فيه سبعمائة درهم فدفعها إلىَّ وأنا فى حانوتى فى قنطرة حرة، فقلت: تبعث إلىَّ فى حوائجك؟ قال: وأى حاجة لى؟ أتيتنى فظننت بك الحاجة، فما استطعت أن أنظر إليك. قال مطر: فقلت له: أنا بخير. فقال: أنت كيف شئت!! الدراهم لا ترجع إلى(1).

الموقف الثانى

انطلق إليه

عن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى -ومعى شىء من الماء- وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته. فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إلىَّ ابن عمى أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات(2).

الموقف الثالث

أبكى لأنى لم أتفقد حاله

جاء رجل من السلف الصالح إلى بيت صديق له، فخرج إليه فقال: ما جاء بك؟ قال: علىَّ أربعمائة درهم، فدخل الدار فوزنها، ثم خرج فأعطاه، ثم عاد

(1) الإخوان (ص ٢١٦).
(2) ترطيب الأفواه (١/ ٤٠٦).

إلى الدار باكيًا، فقالت زوجته: هلاَّ تعللت عليه، إذا كان إعطاؤه يشق عليك. فقال: إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله، فأحتاج أن يقول ذلك!»(١).

الموقف الرابع

أيما أحب إليك؟

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «لما أطلق أبى من المحنة، خشى أن يجيء إليه إسحاق بن راهويه، فرحل أبى إليه، فلما بلغ الريّ دخل إلى مسجد، فجاء مطر كأفواه القرب، فلما كانت العتمة قالوا له: اخرج من المسجد فإنا نريد أن نغلقه. فقال لهم: هذا مسجد الله وأنا عبد الله، فقيل له: أيما أحب إليك: أن تخرج أو نجر برجلك؟ قال أحمد: فقلت: سلامًا. فخرجت من المسجد والمطر والرعد والبرق فلا أدرى أين أضع رجلى، ولا أين أتوجه، فإذا رجل قد خرج من داره فقال لى: يا هذا أين تمر فى هذا الوقت؟ فقلت: لا أدرى أين أمر. فقال لى: ادخل! فأدخلنى دارًا ونزع ثيابى وأعطانى ثيابًا جافة وتطهرت للصلاة، فدخلت إلى بيت فيه كانون فحم ولبود ومائدة منصوبة، فقيل لى: كل. فأكلت معهم، فقال لى: من أين أنت؟ فقلت: أنا من بغداد. فقال لى: تعرف رجلاً يقال له أحمد بن حنبل؟ فقلت: أنا أحمد بن حنبل، فقال لى: وأنا إسحاق بن راهويه»(٢).

الموقف الخامس

من يريد منكم الحج؟

كان ابن المبارك إذا أراد الحج من بلده -مرو- جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم، فيضعها عنده فى صندوق ويقفل عليه، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشترى لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا، ثم جمعهم عليه، ودعا بالصندوق الذى فيه نفقاتهم فرد إلى كل واحد نفقته(٣).

---

(١) التبصرة (٢/ ٣٠٠).
(٢) مناقب أحمد (ص ٣٨٠).
(٣) لطائف المعارف (ص ٥٩).

الموقف السادس

كيف أشكر هاتين الرجلين؟

روى الخطيب البغدادى فى تاريخه عن النقاش أنه قال: بلغنى أن بعض أصحاب محمد بن غالب أبى جعفر المقرئ جاء فى يوم وحل وطين، فقال له: كيف أشكر هاتين الرجلين اللتين تعبتا إلىَّ فى مثل هذا اليوم لتكسبانى الثواب؟ ثم قام بنفسه فاستقى له الماء وغسل رجليه![1].

الموقف السابع

هذا من شرطى

كان رجل من الصالحين يصحب إخوانه فى سفر الجهاد وغيره، فيشترط عليهم أن يخدمهم، فكان إذا رأى رجلاً يريد أن يغسل ثوبه، قال له: هذا من شرطى، فيغسله، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه، قال: هذا من شرطى، فيغسله، فلما مات نظروا فى يده، فإذا فيها مكتوب: «من أهل الجنة»، فنظروا إليها فإذا هى كتابة بين الجلد واللحم[2].

الموقف الثامن

هذه أخرى يا أبا عبيد

قال أبو عبيد القاسم: «زرت أحمد بن حنبل فى بيته، فأجلسنى فى صدر داره وجلس دونى، فقلت: يا أبا عبد الله، أليس يقال: صاحب البيت أحق بصدر بيته؟ فقال: نعم! يقعد ويُقعد من يريد قال: فقلت فى نفسى: خذ إليك يا أبا عبيد فائدة. قال: ثم قلت له: يا أبا عبد الله، لو كنت آتيك على نحو ما تستحق لأتيتك كل يوم. فقال: لا تقل، إن لى إخوانًا لا ألقاهم إلا فى كل سنة مرة أنا أوثق بمودتهم ممن ألقى كل يوم. قال: قلت: هذه أخرى يا أبا عبيد. . فلما أردت القيام قام معى. فقلت: لا تفعل يا أبا عبد الله. فقال: قال الشعبى: من تمام زيارة الزائر أن تمشى معه إلى باب الدار وتأخذ بركابه. قال: فقلت: يا أبا عبيد هذه الثالثة. قال: فمشى معى إلى باب الدار وأخذ بركابى[3].

---

(١) تاريخ بغداد (٣/ ١٤٣).

(٢) ترطيب الأفواه (١/ ٣٦٨).

(٣) مناقب الإمام أحمد (ص ١١٣).

الموقف التاسع

مات فى البلد الليلة رجل من أهل الجنة

لله در الإمام القدوة عابد الكوفة أبى أسماء إبراهيم التيمى وخبره: قال ابن سعد: أخبرنا على بن محمد قال: طلب الحجاج إبراهيم النخعى، فجاء الرسول فقال: أريد إبراهيم. فقال إبراهيم التيمى: أنا إبراهيم، ولم يستحل أن يدله على النخعى، فأمر بحبسه فى الديماس، ولم يكن لهم ظل من الشمس، ولا كنّ من البرد، وكان كل اثنين فى سلسلة، فتغير إبراهيم، فعادته أمه، فلم تعرفه، حتى كلمها، فمات، فرأى الحجاج فى نومه قائلاً يقول: مات فى البلد الليلة رجل من أهل الجنة. فسأل، فقالوا: مات فى السجن إبراهيم التيمى، فقال: حُلم نزغة من نزغات الشيطان، وأمر به فألقى على الكناسة(1).

الموقف العاشر

أواسيك فى الحفاء

قال محمد بن مناذر: كنت أمشى مع الخليل بن أحمد فانقطع شسعى، فخلع نعله، فقلت: ما تصنع؟ قال: أواسيك فى الحفاء(2).

الموقف الحادى عشر

نفسى ما تسامحنى بهذا

عن محمد بن داود قال: سمعت أبا بكر القرطبى، وأبا عمرو الآدمى يقولان - وكانا يتآخيان فى الله تعالى-: خرجنا من بغداد نريد الكوفة، فلما سرنا فى بعض الطريق، إذا نحن بسبعين رابضين على الطريق، فقال أبو بكر لأبى عمرو: أنا أكبر منك سنًا فدعنى أتقدمك، فإن كان حادثة اشتغلا بى عنك، وجزت أنت. فقال له أبو عمرو: نفسى ما تسامحنى بهذا، ولكن نكون جميعًا فى مكان واحد، فإن كانت حادثة كنا جميعًا، فجزا جميعًا بين السبعين، فلم يتحركا ومرا سالمين(3).

***

(1) السير (5/ 62)، الطبقات (6/ 285).

(2) ترطيب الأفواه (1/ 397).

(3) التبصرة (2/ 103).

الكرم

مواقف الصالحين

- لو كنت ذكرتينى لفعلت.
- لم نكن لنأخذ شيئًا قد أعطيناه.
- والله لأعلمن الشيطان أنى عدوه.
- لو بدأت بى لأتعبتهما.
- كم أملت امرأتك أن يكون رزقك؟
- أسألك أن تقبل هذه الدراهم.
- لقد رأينا من برك ما أعجبنا.
- لا أدرى أى هؤلاء أسخى.
- إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك.
- لقد قرب الله عليك الخطوة.

الكرم

الكرم لباب الأخلاق الفاضلة، ومدارج الفضيلة، وصفت الأخلاق به، وشرفت بالانتساب إليه من باب إضافة الصفة للموصوف، فكل شيء يشرف في بابه يوصف به. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وفي رواية «**صالح الأخلاق**»(١). وحسبك أن الكرم صفة من صفات الله تبارك وتعالى. عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كريم، يحب الكرماء، جواد يحب الجودة**»(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى جواد، يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها**»(٣).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كريم يحب الكرم**»(٤).

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه، فيردهما صفرًا**». وقال: «**خائبتين**»(٥).

والكرم -أيضًا- من سنن المرسلين. عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس»(٦)، وكان ﷺ لا يرد أحدًا يسأله». عن جابر رضي الله عنه قال: «ما سُئل النبي ﷺ عن شيء قط فقال: لا»(٧). وأهدت إليه امرأة بُردة -وكان محتاجًا إليها- فرآها عليه رجل من

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وأحمد (٢/ ٣٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم/ ٢٣٤٩).

(٢) صحيح: رواه ابن عساكر وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٠٠).

(٣) صحيح: رواه البيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٤٤).

(٤) صحيح: رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٠١).

(٥) صحيح: رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٥٧).

(٦) صحيح: رواه البخاري (٣٠٤٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٧) صحيح: رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

الصحابة، فقال: «يا رسول الله، ما أحسن هذه! فاكسنيها». قال: «نعم». فلام الصحابة ذلك الرجل.. قائلين له: «أخذها محتاجًا إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئًا فيمنعه!» فقال: «رجوت بركتها حين لبسها النبى ﷺ لعلى أُكفن فيها»[(١)].

والكرم مرتبط بالإيمان ارتباطًا وثيقًا؛ فقد وصف النبى ﷺ المؤمن بقوله: «**المؤمن غر كريم، والفاجر خب**[(*)] **لئيم**»[(٢)]. وقال فى حديث آخر: «**لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبدًا**»[(٣)].

وحد السخاء بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل إلى مستحقه بقدر الطاقة. وتدبير ذلك مستصعب، ولعلّ بعض من يحب أن ينسب إلى الكرم ينكر حد السخاء، ويجعل تقدير العطية فيه نوعًا من البخل، وأن الجود بذل الموجود، وهذا تكلف يفضى إلى الجهل بحدود الفضائل. ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع. وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهى عنهما. وإذا كان السخاء محدودًا فمن وقف على حدّه سُمى كريمًا وكان للحمد مستحقًا. ومن قصر عنه كان بخيلاً وكان للذم مستوجبًا. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٨٠].

والبذل على وجهين، أحدهما: ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال، والثانى: ما كان عن طلب وسؤال. فأما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء، وأشرفهما عطاء.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٢٧٧)، و(٥٨١٠)، و (٦٠٣٦).

(*) الخب: اللئيم الخداع.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٧٩٠)، والترمذى (١٩٦٤)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢/ ٦٦٥٣).

(٣) صحيح: رواه النسائى (٣١١٢، ٣١١٣، ٣١١٤، ٣١١٦، ٣١١٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢/ ٧٦١٦).

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب، هى:

السبب الأول: أن يرى خلّة يقدر على سدّها، وفاقة يتمكن من إزالتها، فلا يدعه الكرم والتدين إلا أن يكون زعيم صلاحها، وكفيل نجاحها، رغبة فى الأجر إن تدين وفى الشكر إن تكرم.

السبب الثانى: أن يرى فى ماله فضلاً عن حاجته، وفى يده زيادة عن كفايته، فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرًا معدًا وغنمًا مستجدًا. وقد قال الحسن البصرى -رحمه الله-: ما أنصفك من كلفك إجلاله ومنعك ماله. وقيل:

وما ضاع مال ورث الحمد أهله ... ولكن أموال البخيل تضيع

السبب الثالث: أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته، وإشارة يستدل عليها بكرمه، فلا يدعه الكرم أن يغفل، ولا الحياء أن يكف.

السبب الرابع: أن يكون ذلك رعاية ليد، أو جزاء على صنيعة، فيرى تأدية الحق عليه طوعًا، إما أنفة، وإما شكرًا، ليكون من أسر الامتنان طليقًا، ومن رق الإحسان وعبوديته عتيقًا. الإحسان رق، والمكافأة عتق.

السبب الخامس: أن يؤثر الإذعان بتقديمه، والإقرار بتعظيمه.. توطيدًا لرئاسة هو لها محب، وعلى طلبها مكب.. فتستصعب عليه إجابة النفوس له طوعًا إلا بالاستعطاف، وإذعانها إلا بالرغبة والإسعاف. وقد قال بعض الأدباء: بالإحسان يرتبط الإنسان.

وقال بعض البلغاء: من بذل ماله أدرك آماله.

السبب السادس: أن يدفع به سطوة أعدائه، ويستكف به نفار خصمائه، ليصيروا له بعد الخصومة أعوانًا، وبعد العداوة إخوانًا، إما لصيانة عرض، وإما لحراسة مجد.

السبب السابع: أن يرب به سالف صنيعة أولاها، ويراعى به قديم نعمة أسداها، كيلا يُنسى ما أولاه، أو يضاع ما أسداه، فإن مقطوع البر ضائع، ومهمل الإحسان ضال.

السبب الثامن: المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بمرغوب، ولا ينفس عليه بمطلوب، للذة التى هى عنده أحظى، وإلى نفسه أشهى؛ لأن النفس إلى محبوبها أشوق، وإلى ممايلته أسبق.

وهذا وإن دخل فى أقسام العطاء فخارج عن حد السخاء، وهكذا الخامس والسادس من هذه الأسباب.

السبب التاسع: وليس بسبب أن يفعل ذلك لغير ما سبب، وإنما هى سجية قد فُطر عليها، وشيمة قد طُبع بها، فلا يميز بين مستحق ومحروم، ولا يفرق بين محمود ومذموم، وقد اختلف الناس فى مثل هذا، هل يكون منسوبًا إلى السخاء فيحمد، أو خارجًا فيذم. وقال قوم: هذا هو السخى طبعًا، والجواد كرمًا، وهو أحق من كان به ممدوحًا، وإليه منسوبًا.

وقال آخرون: هذا خارج من السخاء المحمود إلى السرف والتبذير المذموم؛ لأن العطاء إذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب، لأن المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات، فإذا أعطى غير المستحق فقد يمنع مستحقًا، وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لإعطاء غير المستحق. وحسبك ذمًا بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز، وتوجد لغير علة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فنهى عن بسطها سرفًا، كما نهى عن قبضها بخلا، فدل على استواء الأمرين ذمًا، وعلى اتفاقهما لومًا. وقال الشاعر:

وكان المال يأتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا: ولأن العطاء والمنع إذا كانا لغير علة أفضيا إلى ذم الممنوع، وقلة شكر المعطى. أما الممنوع فلأنه قد فضل عليه من سواه، وأما المعطى فإنه وجد ذلك اتفاقًا، وربما أمل بالاتفاق أضعافًا، فصار ذلك مفضيًا إلى اجتلاب الذمّ وإحباط الشكر. وليس فيما أفضى إلى واحد منهما خير يُرجى، وهو جدير أن يكون شراً يتقى. ولمثل هذا كان منع الجميع إرضاء للجميع، وعطاء يكون المنع أرضى منه خسران مبين.

أما إذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين: أحدهما فى السائل، والثانى فى المسئول. فأما ما كان معتبرًا فى السائل فثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون السؤال لسبب، والطلب لموجب، فإن كان لضرورة ارتفع عنه الحرج، وسقط عنه اللوم. فإن ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين أن يكون، وإن جاز ألا يكون، فالنفس المسامحة تغلب الحاجة، وتسمح فى الطلب، وتراعى ما استقام به الأمر، وإن ناله ذلّ ولحقه وهن والنفس الشريفة تطلب الصيانة، وتراعى النزاهة، وتحتمل من الضر ما احتملت، ومن الشدة ما أطاقت، فيبقى تحملها ويدوم تصونها، فتكون كما قال الشاعر:

وقد يكتسى المرءُ خز الثياب ومن دونها حالة مُضنية
كما يكتسى خَدُّه حُمرة وعلته ورم فى الرِّئة

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم، ومطامع اللؤم، فإن البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف، فكيف بالإنسان الفاضل الذى هو أكرم المخلوقات جنسًا، وأشرفه نفسًا، هل يحسن به أن يرى لوحوش البهائم عليه فضلاً؟

وقد قيل لبعض الزهاد: لو سألت جارك أعطاك؟ فقال: والله ما أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها. فأما من يسأل من غير ضرورة مست، ولا حاجة دعت، فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة، وقلما تجد مثله ملحوظًا أو ممولاً

محظوظًا، لأن الحرمان قاده إلى أضيق الأرزاق، واللؤم ساقه إلى أخبث المطاعم، فلم يبق لوجهه ماء إلا أراقه، ولا ذل إلا ذاقه، ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكسبًا يمونه، ولقدر على ما يصونه. وقد قال الشاعر:

لا تطلبن معيشة بتذلل | فليأتينك رزقك المقدور
واعلم بأنك آخذ كل الذى | لك فى الكتاب مقدر مسطور

الشرط الثاني: من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن إرجائه، ويقصر الوقت عن إبطائه، فلا يجد لنفسه فى التأخير فسحة، ولا فى التمادى مهلة، فيصير من المعذورين، وداخلاً فى عداد المضطرين، فأما إذا كان الوقت متسعًا والزمان ممتدًا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط.

الشرط الثالث: اختيار المسئول أن يكون مرجو الإجابة مأمول النجح، إما لحرمة السائل أو كرم المسئول، فإن سأل لئيمًا لا يرعى حرمة، ولا يولى مكرمة، فهو فى اختياره ملوم، وفى سؤاله محروم.

من كان يأمل أن يرى | من ساقط نيلاً سنيا
فلقد رجا أن يجتنى | من عوسج رطبًا جنيا

أما الشروط المعتبرة فى المسئول فثلاثة:

الشرط الأول: أن يكتفى بالتعريض، ولا يلجأ إلى السؤال الصريح، ليصون السائل عن ذل الطلب، فإن الحال ناطقة والتعريض كاف.

الشرط الثانى: أن يلقى بالبشر والترحيب، ويقابل بالطلاقة والتقريب، ليكون مشكورًا إن أعطى، ومعذورًا إن منع.

الشرط الثالث: تصديق الأمل فيه، وتحقيق الظن به، ثم اعتبار حاله وحال سائله، فإنها لا تخلو من أربع أحوال، هى:

الحال الأولى: أن يكون السائل مستوجبًا والمسئول متمكنًا. فالإجابة هاهنا تستحق كرمًا، وتستلزم مروءة، وليس للرد سبيل إلا لمن استولى عليه البخل، وهان عليه الذم، فإذا لم يكن للرد فى مثل هذه الحال سبيل، نظر: فإن كان التأخير مضرًا عجل بذله، وقطع مطله، وكانت إجابته فعلاً، وقوله عملاً، وإن كان فى الوقت مهلة، وفى التأخير فسحة، فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه. فذهب بعضهم إلى أن الأولى تعجيل الوعد قولاً، ثم يعقبه الإنجاز فعلاً، ليكون السائل مسرورًا بتعجيل الوعد، ثم بآجل إنجاز، ويكون المسئول موصوفًا بالكرم، ملحوظًا بالوفاء. قال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة: أعدك اليوم وأحبوك غدًا بالإنجاز؛ لتذوق حلاوة الأمل وأتزين بثوب الوفاء. ووعد يحيى بن خالد رجلاً بحاجة سأله إياها فقيل له: تعد وأنت قادر؟ فقال: إن الحاجة إذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها لأن الوعد طعم والإنجاز طعام، وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه، فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع إليه. ومنهم من ذهب إلى أن تعجيل البذل فعلاً من غير وعد أولى، وتقديمه من غير ترقب ولا انتظار أحرى، وإنما يقدم الوعد أحد رجلين: إما معوز ينتظر جدة، وإما شحيح يروض نفسه توطئة. وليس للوعد فى غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضح، مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار وإعسار. قالوا: ولأن فى الرجوع عنه من الانكسار، وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار، وفى العود إليه من بذلة الاقتضاء، وذلة الاجتداء، ما يكدر بره، ويوهن شكره.

الحال الثانية: أن يكون السائل غير مستوجب والمسئول غير متمكن؛ ففى الرد فسحة، وفى المنع عذر. غير أنه يلين عند الرد لينًا يقيه الذم، ويظهر عذرًا يدفع عنه اللوم، فليس كل مقل يعرف، ولا معذور ينصف.

الحال الثالثة: أن يكون السائل مستوجبًا، والمسئول غير متمكن، فيأتى بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يسد به خلتة، أو يدفع به مذمة، أو يوضح من أعذار المعوزين، وتوجع المتألمين، ما يجعله فى المنع معذورًا، وبالتوجع مشكورًا.

الله يعلم أنى لست ذا بخل ... ولست ملتمسًا فى البخل لى عللا

لكن طاقة مثلى غير خافية ... والنمل يعذر فى القدر الذى حملا

الحال الرابعة: أن يكون السائل غير مستوجب، والمسئول متمكنًا، وعلى البذل قادرًا، فينظر، فإن خاف بالرّد قدح عرض، أو قبح هجاء ممض، كان البذل إليه مندوبًا صيانة لا جورًا، وإن أمن من ذلك وسلم منه، فمن الناس من غلب المسألة، وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة، والأمل بالإياس. ثم لما فيه من اعتياد الرد، واستسهال المنع المفضى إلى الشح.

أما من أجاب السؤال، ووعد بالبذل والنوال، فقد صار بوعده مرهونًا، وصار وفاؤه بالوعد مقرونًا، فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد، ولا سبيل إلى مراجعة نفسه فى الرد، فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل، ومقت القادر، وهجنة الكذوب، ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد؛ لما فى المطل من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر. ثم إذا أنجز وعده، وأوفى عهده، لم يتبع نفسه ما أعطى، ويسر إن كانت يده العليا.

فإنك لا تدرى إذا جاء سائل ... أأنت بما تعطيه أم هو أسعد

عسى سائل ذو حاجة إن منعته ... من اليوم سؤالاً أن يكون له غد

وليكن من سروره إذا كانت الأرزاق مقدرة أن تكون على يده جارية، ومن جهته واصلة، لا تنتقل عنه بمنع، ولا تتحول عنه بإياس. وحكى أن رجلاً شكا كثرة عياله إلى بعض الزهاد فقال: انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوّله إلى منزلى. ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى، وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله

عز وجل، كالذى حكاه أبو بكرة عن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- أن أعرابيًا أتاه فقال:

يا عمر الخير جزيت الجنة اكس بنياتى وأمَّهُنَّه

وكن لنا من الزمان جُنَّة أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضى الله عنه: فإن لم أفعل يكون ماذا؟ فقال: إذن أبا حفص لأذهبنه.

فقال: فإذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال:

يكون عن حالى لتسألنه يوم تكون الأعطيات هنة

وموقف المسئول بينهنه إما إلى نار وإما جنة

فبكى عمر -رضى الله عنه- حتى أخضلت لحيته ثم قال: يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره، أما والله لا أملك غيره. وإذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر، وعرى عن امتنان ونشر، فكان ذلك أشرف للباذل، وأهنأ للقابل. وأما المعطى إذا التمس بعطائه الجزاء، وطلب به الشكر والثناء، فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء؛ لأنه إن طلب به الشكر والثناء، كان صاحب سمعة ورياء، وفى هذين من الذم ما ينافى السخاء؛ وإن طلب به الجزاء كان تاجرًا متربحًا لا يستحق حمدًا ولا مدحًا.

أخى عوّد نفسك السخاء، وليكن جودك كرمًا ورغبة، لا لؤمًا ورهبة(*).

***

(*) انظر أدب الدنيا والدين [٢٢٥] للماوردى، الأخلاق [١٥٧] للحاشدى.

مواقف الصالحين

الموقف الأول

لو كنت ذكرتينى لفعلت

عن محمد بن المنكدر عن أم درة -وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها- قالت: إن معاوية بعث إليها بمال فى غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت يا جارية هلمى فطورى فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتينى لفعلت[1].

الموقف الثانى

لم نكن لنأخذ شيئًا قد أعطيناه

عن حميد بن هلال قال: تفاخر رجلان من قريش رجل من بنى هاشم ورجل من بنى أمية، فقال هذا: قومى أسخى من قومك. وقال هذا: قومى أسخى من قومك. قال: سل فى قومك؛ حتى أسأل فى قومى. فافترقا على ذلك فسأل الأمويّ عشرة من قومه فأعطوه مائة ألف، عشرة آلاف عشرة آلاف. قال: وجاء الهاشمى إلى عبيد الله بن العباس فسأله فأعطاه مائة ألف. ثم أتى الحسن بن على رضوان الله عليهما فسأله فقال له: هل أتيت أحدًا من قومى؟ قال: نعم، عبيد الله ابن العباس فأعطانى مائة ألف. فأعطاه الحسن بن على مائة ألف وثلاثين ألفًا. ثم أتى الحسين بن على رضوان الله عليهما فسأله فقال: هل أتيت أحدًا قبل أن تأتينى؟ قال: نعم، أخاك الحسن بن على فأعطانى مائة ألف وثلاثين ألفًا. قال: لو أتيتنى قبل أن تأتيه لأعطيتك أكثر من ذلك ولكن لم أكن لأزيد على سيدى. فأعطاه مائة ألف وثلاثين ألفًا. قال: فجاء الأموى بمائة ألف من عشرة وجاء

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٢٧).

الهاشمى بثلاثمائة ألف وستين ألفًا من ثلاثة. فقال الأموى: سألت عشرة من قومى فأعطونى مائة ألف. وقال الهاشمى: سألت ثلاثة من قومى فأعطونى ثلاثمائة ألف وستين ألفًا. ففخر الهاشمى الأموى. قال: فرجع الأموى إلى قومه فأخبرهم الخبر وَرَدَّ عليهم المال فقبلوه، ورجع الهاشمى إلى قومه فأخبرهم الخبر ورد عليهم المال فأبوا أن يقبلوه وقالوا: لم تكن لنأخذ شيئًا قد أعطيناه(1).

الموقف الثالث

والله لأعلمن الشيطان أنى عدوه

حُكى أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال: والله لأعلمنَّ الشيطان أنى عدوّه؛ فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم، فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف، فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته(2).

الموقف الرابع

لو بدأت بى لأتعبتهما

قال أبو الحسن المدائنى: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجًا ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز فى خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة فى كسر الخيمة فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها. ففعلوا ذلك ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعامًا فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمى بنا فإنا صانعون بك خيرًا. . ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال:

(1) مكارم الأخلاق (ص١١٥) لابن أبى الدنيا.

(2) الإحياء (٣/ ٣٢٨).

ويلك تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين: نفر من قريش! قال: ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه، فمرت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن على جالس على باب داره فعرف العجوز وهى له منكرة، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها: يا أمة الله أتعرفينى؟ قالت: لا. قال: أنا ضيفك يوم كذا ويوم كذا. فقالت العجوز: بأبى أنت وأمى أنت هو؟ قال: نعم.. ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين: بكم وصلك أخى؟ قالت: بألف شاة وألف دينار. فأمر لها الحسين أيضًا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر، فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفى شاة وألفى دينار، فأمر لها عبد الله بألفى شاة وألفى دينار، وقال لها: لو بدأت بى لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار[1].

الموقف الخامس

كم أملت امرأتك أن يكون رزقك؟

كنا عند أبى العباس المبرد يومًا وعنده فتى من ولد أبى البخترى وهب بن وهب القاضى أمرد حسن الوجه، وفتى من ولد أبى دلف العجلى شبيه به فى الجمال، فقال المبرد لابن أبى البخترى: أعرف لجدك قصة طريفة من الكرم حسنة لم يُسبق إليها. فقال: وما هى؟ قال: دُعى رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقوه نبيذًا غير الذى كانوا يشربون منه، فقال فيهم:

نبيذان فى مجلس واحد ... لإيثار مثر على مُقتر
فلو كان فعلك ذا فى الطعام ... لزمت قياسك فى المسكر
ولو كنت تطلب شأو الكرام ... صنعت صنيع أبى البخترى
تتبع إخوانه فى البلاد ... فأغنى المقلَّ عن المكثر

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٢٩).

فبلغت الآبيات أبا البخترى فبعث بثلاثمائة دينار. قال ابن عمار: فقلت له: قد فعل جد هذا الفتى فى مثل هذا المعنى ما هو أحسن من هذا. قال: وما فعل؟ قلت: بلغه أن رجلاً افتقر بعد ثروة، فقالت له امرأته: افترض فى الجند، فقال:

إليك عنى فقد كلفتنى شططا ... حمل السلاح وقول الدارعين قف
أمن رجال المنال خلتنى رجلاً ... أمسى وأصبح مشتاقًا إلى التلف؟!
تمشى المنايا إلى غيرى فأكرهها ... فكيف أمشى إليها بارز الكتف؟!
حسبت أن نزال القرن من خلقى ... أو أن قلبى فى جنبى أبى دلف

فأحضره أبو دلف ثم قال: كم أملت امرأتك أن يكون رزقك؟ قال: مائة دينار. قال: وكم أملت أن تعيش؟ قال: عشرين سنة. قال: فذلك على ما أملت امرأتك فى مالنا دون مال السلطان.. وأمر بإعطائه إياه. قال: فرأيت وجه ابن أبى دلف يتهلل، وانكسر ابن أبى البخترى انكسارًا شديدًا[١].

الموقف السادس

أسألك أن تقبل هذه الدراهم

قال محمد بن على الحداد: حضرت يوم الجمعة مسجد الجامع بمدينة المنصور، فرأيت رجلاً بين يدى فى الصف حسن الوقار، ظاهر الخشوع، دائم الصلاة لم يزل يتنقل مذ دخل المسجد إلى قرب قيام الصلاة، ثم جلس فغلبتنى هيبته، ودخلت قلبى محبته، ثم أقيمت الصلاة فلم يصل مع الناس فكبر على ذلك وتعجبت من حاله، وغاظنى فعله، فلما قضيت تقدمت إليه وقلت له: أيها الرجل، ما رأيت أعجب من أمرك، أطلت النافلة وأحسنتها، وضيعت الفريضة وتركتها. فقال لى: يا هذا، إن لى عدوًا وبى علة منعتنى من الصلاة. قلت: وما

(١) وفيات الأعيان (٦/٣٨).

هى؟ قال: أنا رجل علىَّ دين، اختفيت فى منزل مدة بسببه، ثم حضرت اليوم الجامع للصلاة، فقبل أن تقام التفت فرأيت صاحبى الذى له الدين على ورآنى، فمن خوفه أحدثت فى ثيابى وهذا عذرى فأسألك بالله إلا سترت علىّ وكتمت أمرى. فقلت له: ومن الذى له عليك الدين؟ فقال: دعلج بن أحمد.. وكان إلى جانبه صاحب لدعلج قد صلى وهو لا يعرفه، فسمع هذا القول ومضى فى الوقت إلى دعلج، فذكر له القصة، فقال له دعلج: امض إلى الرجل واحمله إلى الحمام، واطرح عليه خلعة من ثيابى، وأجلسه فى منزلى حتى انصرف من الجامع. ففعل الرجل ذلك، فلما انصرف دعلج إلى منزله أمر بالطعام، فأُحضر، وأكل هو والرجل، ثم أخرج حسابه فنظر فيه، فإذا عليه خمسة آلاف درهم، فقال له: انظر لا يكون عليك فى الحساب غلط أو نسى لك نقده. فقال له الرجل: لا.. فضرب دعلج على حسابه وكتب تحته الوفاء، ثم أحضر الميزان ووزن له خمسة آلاف درهم، وقال له: أما الحساب الأول فقد أحللناك منه مما بيننا وبينك فيه، وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم، وتجعلنا فى حل من الروعة التى دخلت قلبك برؤيتك إيانا فى المسجد الجامع[1].

الموقف السابع

لقد رأينا من برك ما أعجبنا

قال أبو عمر القرشى: خرج قوم من قريش يريدون بعض الخلفاء بالشام فمروا قريبًا من أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقالوا: لو ملنا إلى أبى بكر. فمالوا إليه فحبسهم ثم أرسل إليهم بثوب فيه مال تحمله عدة، وقال: لو كان عندنا أكثر من هذا أرسلنا به إليكم. فما رأوا ذلك قالوا: ما نحتاج إلى الذهاب فى وجهنا، فى هذا ما نكتفى به. فارتحلوا، فلم يدن منهم أحد من غلمانه وحشمه يعينهم على رحلتهم. فلما ودعوه قالوا: لقد رأينا من برك وإكرامك

(١) المنتظم (١٤/ ١٤٤) لابن الجوزى.

وصنيعك ما أعجبنا ولكنا رأينا شيئًا أنكرناه عند رحلتنا؛ لم يدن منا أحد من غلمانك وحشمك فَيُعينَنا على رحلتنا حتى تكلفنا نحن ذلك. فضحك وقال: إنهم لا يعينون أحدًا على رحلتهم عنا(١).

الموقف الثامن

لا أدرى أى هؤلاء أسخى

كان بمصر رجل عُرف بأنه يجمع للفقراء شيئًا، فولد لبعضهم مولود قال: فجئت إليه وقلت له: ولد لى مولود وليس معى شيء. فقام معى ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال: رحمك الله كنت تفعل وتصنع وإنى درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لى شيء. قال: ثم قام وأخرج دينارًا وقسمه نصفين وناولنى نصفه، وقال: هذا دينى عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء. قال: فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لى به. قال: فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص فى منامه فقال: سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن فى الجواب، ولكن احضر منزلى وقل لأولادى يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرجل. فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له: اجلس. وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه، فقال: هذا مالكم وليس لرؤياى حكم. فقالوا: هو يتسخى ميتًا ولا نتسخى نحن أحياء؟ فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة. قال: فأخذ منها دينارًا فكسره نصفين فأعطاه النصف الذى أقرضه وحمل النصف الآخر، وقال: يكفينى هذا.. وتصدق به على الفقراء، فقال أبو سعيد: فلا أدرى أى هؤلاء أسخى!(٢)

(١) مكارم الأخلاق (ص١٤٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٣١).

الموقف التاسع

إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك

قالت سعدى بنت عوف: دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلاً فقلت له: ما لك؟ فقال: اجتمع عندى مال وقد غمنى. فقلت: وما يغمك ادع قومك؟ فقال: يا غلام علىّ بقومى.. فقسمه فيهم فسألت الخادم: كم كان؟ قال: أربعمائة ألف. وجاء أعرابى إلى طلحة فسأله وتقرب إليه برحم فقال: إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك، إن لى أرضًا قد أعطانى بها عثمان ثلاثمائة ألف فإن شئت فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمَن. فقال: الثمن.. فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن(١).

الموقف العاشر

لقد قرب الله عليك الخطوة

عن نوفل بن عمارة أن رجلاً من قريش من بنى أمية بن عبد شمس له قدر وخطر لحقه دين وكان له مال من نخل وزرع فخاف أن يباع عليه فشخص من المدينة يُريد الكوفة ويعمدُ خالد بن عبد الله القسرى وكان يلى لهشام بن عبد الملك العراق وكان يبرُّ من قدم عليه من قريش. فخرج الرجل يريده وأعدَّ له هدايا من طُرَف المدينة حتى قدم فيد فأصبح بها ونظر إلى فسطاط عنده جماعة فسأل عنه فقيل: الحكم بن المطلب. فلبس نعليه ثم خرج حتى دخل عليه فلما رآه قام إليه فتلقاه فسلّم عليه ثم أجلسه فى صدر فراشه ثم سأله عن مخرجه فأخبره بدينه وما أراد من إتيان خالد بن عبد الله فقال له الحكم: انطلق بنا إلى منزلك فلو علمت بمقدمك لسبقتك إلى إتيانك.. فمضى معه حتى أتى منزله فرأى الهدايا التى أعَدَّ لخالد فتحدث معه ساعة ثم قال له: إن منزلنا أحضر عُدّة وأنت مسافر ونحن مقيمون فأقسمت عليك إلا قمت معى إلى المنزل وجعلت لنا من هذه الهدايا

(١) الإحياء (٣/ ٣٣٢).

نصيبًا. فـقام الرجل معه فقال: خذ منهـا ما أحببت. فأمر بهـا فحملت كلها إلى منزله، وجعل يستـحي أن يمنعه منها شيئًـا حتى صار معه إلى المنزل فـدعا بالغداء وأمر بالهدايا ففـتحت وأكل منها، وأكل منها من حضره ثم أمر ببقـيتها تُرفع إلى خزانته. فقام وقام الناس ثم أقبل على الرجل فقال: أنا أولى بك من خالد وأقرب منك رحمًا ومنزلاً وهاهنا مال للغـارمين أنت أولى الناس به ليس لأحد عليك فيه منة إلا لله تقـضى به دينك. ثم دعا له بـكيس فيـه ثلاثة آلاف دينار فدفـعه إليـه وقال: لقد قـرَّب الله عليك الخطوة فانصرف إلى أهلك مصـاحبًا محفـوظًا. فقام الرجل من عنده يدعو له ويتشكر، فلـم يكن له همة إلا الرجوع إلى أهله وانطلق الحكم يشيعه فسار معه شيئًا ثم قال له: لكأني بزوجتك قد قالت لك: أين طرائف العراق بَزُّها وخَزُّها أما كـان لنا معك نصيب؟ ثم أخرج صُرَّة قد حملها مـعه فيها خمسمائة دينار فقال: أقـسمت عليك إلا جعلت هذه لها عوضًا من هدايا العراق. وودعه وانصرف[1].

***

(١) مكارم الأخلاق (ص١٢٦).

الحلم

مواقف الصالحين

- إنى أحب أن يغفر الله لى.
- خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين.
- اشهدوا أنه حرٌ.
- ما حملك على ما صنعت؟
- إن كنت صادقًا فغفر الله لى.

الحلم

الحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوى الألباب؛ لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد واجتلاب الحمد. وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره». وحد الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب. وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة.

أحدها: الرحمة للجهال، وذلك من خير يوافق رقة. وقد قيل فى منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه، لرجل أسمعه كلامًا: يا هذا لا تغرقن فى سبنا، ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه. وشتم رجل الشعبى فقال: إن كنت كما قلت فغفر الله لى، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك. وقسم معاوية -رضى الله عنه- قطافا فأعطى شيخًا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية. فأتاه فأخبره، فقال له معاوية: أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ.

والثانى: القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة. قال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعًا من السطوة. وقال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعًا من السطوة. وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر.

والثالث: الترفع عن السباب، وذلك من شرف النفس وعلو الهمة. كما قال الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم.

وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحيى -عليه السلام- سيدًا لحلمه.

لا يبلغ المجد أقوام وإن كرموا ... حتى يَذلُّوا وإن عَزُّوا لأقوامِ
وَيُشْتَمُوا فترى الألوان مُسفرة ... لا صفح ذُل ولكن صفح أحلام

والرابع: الاستهانة بالمسيء، وذلك عن درب من الكبر والإعجاب، كما حكى عن مصعب بن الزبير، أنه لما ولى العراق جلس يومًا لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى: أين عمرو بن جرموز؟ وهو الذى قتل أباه الزبير. فقيل له: أيها الأمير، إنه قد تباعد فى الأرض. فقال: أو -يظن الجاهل أنى أقيده بأبى عبد الله؟ فليظهر آمنًا ليأخذ عطاءه موفرًا. فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر.

وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه فقال: والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عليه.

وأسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه، فقال له الرجل: إياك أعنى.

فقال له: وعنك أعرض.

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أنى ... عييت عن الجواب وما عييت

والخامس: الاستحياء من جزاء الجواب. وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المرؤة. وقد قال بعض الحكماء: احتمال السفيه خير من التحلى بصورته، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته.

وقال بعض الأدباء: ما أفحش حليم ولا أوحش كريم.

والسادس: التفضل على الساب، فهذا يكون من الكرم وحب التألف. كما قيل للإسكندر: إن فلانًا وفلانًا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما! فقال: هما بعد العقوبة أعذر فى تنقصى وثلبى. فكان هذا تفضلاً منه وتألفًا. وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عادانى أحد قط إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى منى عرفت له قدره، وإن كان دونى

رفعت قدرى عنه، وإن كان نظيرى تفضلت عليه. فأخذه الخليل، فنظمه شعرًا فقال:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب — وإن كثرت منه إلىَّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة: — شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره — وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فأحلم دائبًا — أصون به عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا — تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

والسابع: استنكاف الساب وقطع السباب. وهذا يكون من الحزم، كما حكى أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشرًا. فقال له ضرار: والله لو قلت عشرًا لم تسمع واحدة.

وحكى أن على بن طالب -رضى الله عنه- قال لعامر بن مرة الزهرى: من أحمق الناس؟ قال: من ظن أنه أعقل الناس. قال: صدقت، فمن أعقل الناس؟ قال: من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجهال.

وقال الشعبى: ما أدركت أمى فأبرها، ولكن لا أسب أحدًا فيسبها. وقال بعض الحكماء: فى إعراضك صون أعراضك.

وفى الحلم ردع للسفيه عن الأذى — وفى الخُرق إغراء فلا تك أخرقا(١)
فتندم إذ لا تنفعنك ندامة — كما ندم المغبون(٢) لما تفرقا

والثامن: الخوف من العقوبة على الجواب. وهذا يكون من ضعف النفس، وربما أوجبه الرأى واقتضاه الحزم. وقد قيل فى منثور الحكم: الحلم حجاب الآفات.

---

(١) الخرق: الجهل والحمق.
(٢) المغبون: المخدوع.

والتاسع: الرعـاية ليد سـالفة، وحرمـة لازمة. وهذا يكون من الوفـاء وحسن العهد، وقد قيل فى منثور الحكم: أكرم الشيم أرعاها للذمم.

والعاشـر: المكر وتوقع الفرص الخفـية، وهذا يكون من الدهاء. وقـد قيل فى منثور الحكم: من ظهـر غضبه قـل كيده. وقال بعض الأدباء: غـضب الجاهل فى قوله، وغضب العاقل فى فعله. وقـال بعض الحكماء: إذا سكتَّ عن الجاهل فقد أوسعته جوابًا وأوجعته عقابًا.

تعـــاقب أيـدينا ويـحلم رأيـنا ونشـــتم بالأفــعـــال لا بالتـكلم

فهذه عشرة أسبـاب تدعو إلى الحلم. وبعض الأسباب أفضل من بعض. وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولاً ما يقتـضى أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة. وإنما الأولى بالإنسان أن يدعـوه للحلم أفضل أسبابه، وإن كان الحـلم كله فضلاً. وإن عرى عن أحد هذه الأسباب كان ذلاً ولم يكن حلمًا، لأننا قد ذكرنا فى حد الحلم أنه ضبط النفس عند هيجان الغضب، فإذا فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحـميـة. وقد قـال الحكمـاء: ثلاثة لا يُعرفـون إلا فى ثلاثة مواطن: لا يعرف الجواد إلا فى العسرة، والشجاع إلا فى الحرب، والحليم إلا فى الغضب.

ليـست الأحلام فـى حال الرضـا إنما الأحـلام فى حـــال الغـضب

واعلم أن لتسكين الغـضب إذا هجم أسبابًا يسـتعان بهـا على الحلم، منها: أن يذكر الله عـز وجل فيدعوه ذلك إلى الخـوف منه، ويبعثه الخـوف منه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه وعند ذلك يزول الغـضب. قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].. قـال عكرمة: يعـنى إذا غضـبت. وقال الله تعـالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. ومـعنى قوله: ينزغنك أى: يغضبك، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم، يعنى: أنه سميع بجهل

من جـهل، عليم بما يذهب عنك الغـضب. وحكى أن بعض ملوك الفرس كـتب كتابًا ودفعه إلى وزير له وقال: إذا غضـبت فناولنيه. وكان فيه: ما لك والغضب؟ إنما أنت بشر، ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء.

ومنها: أن ينتقل عن الحـالة التى هو فيها إلى حالة غيرهـا، فيزول عنه الغضب بتغير الأحـوال والتنقل من حال إلى حال. قال ﷺ: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**»[(١)].

ومنها: أن يتذكر ما يئول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام.

قال بعض الحكماء: الغضب على من لا تملك عجز، وعلى من تملك لؤم.

ومنها: أن يذكر ثواب العفـو، وجزاء الصفح، فيقهر نفسـه على الغضب رغبة فى الجزاء والثواب، وحذرًا من استحقاق الذم والعقاب.

أسمع رجل عمر بن عـبد العزيز كلامًا فقال عمر: أردت أن يسـتفزنى الشيطان لعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله منى غدًا. انصرف رحمك الله.

ومنها: أن يذكـر انعطاف القلوب عليه، وميل النـفوس إليه، فلا يرى إضـاعة ذلك بتنفيـر الناس عنه، وبُعدهم منه، فـيكف عن متابـعة الغضب، فـيرغب فى التآلف وجميل الثناء.

قال المأمون لإبراهيـم بن المهدى: إنى شاورت فى أمرك فأشـاروا علىّ بقتلك، إلا أنى وجدت قـدرك فوق ذنبك، فكرهت القتل للازم حـرمتك. فقال: يا أمـير المؤمنين إن المشيـر أشار بما جرت به العـادة فى السياسـة، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عـودته من العفو، فإن عاقبت فلك نظيـر، وإن عفوت فلا نظير لك[(٢)].

(١) رواه أحمد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (رقم/ ٦٩٤).
(٢) أدب الدنيا والدين (٣١٣).

فضل الحلم:

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٣- ١٣٤]. التعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات فى صورة حسية حركية.. يصوره سباقًا إلى هدف أو جائزة تنال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾. سارعوا فهى هناك: المغفرة والجنة.. ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.. ثم يأخذ فى بيان المتقين، ومن جملة هذه الصفات: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

فالغيظ انفعال بشرى، تصاحبه أو تلاحقه فورة فى الدم، فهو إحدى دفعات التكوين البشرى، وإحدى ضروراته. وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراف التقوى، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات.

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]. أمر له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، أى: خذ بالسهل اليسير فى معاملة الناس ومعاشرتهم. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أى بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أى: لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»** (١).

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: **«إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه»** (٢).

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من يحرم الرفق يُحرم الخير كله»** (٣).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كلِّ قريب هين لين سهل»** (٤).

***

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٢٧)، ومسلم (٢١٦٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٤) صحيح: رواه الترمذى (٢٤٨٨)، وأحمد (١/ ٤١٥) نحوه، وللحديث شواهد، منها: ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١/ ٢٥٦) عن جابر رضى الله عنه، والحديث بهذا الشاهد وغيره: صحيح لغيره. قال الشيخ شاكر فى تحقيق المسند (٦/ ١٨): إسناده صحيح، وقال: ولم أجد الحديث فى الترمذى بعد طول بحث. والحديث فى الترمذى كما علمت والحمد لله.

مواقف الصالحين

الحلم مقياس الرجولة دائمًا — وله مذاق للنفوس محبب
وعليه ربى المصطفى أصحابه — ليكون طلبتهم ونعم المطلب
وبه تنادوا فى الحياة شريعة — غراء يحدوها اتجاه طيب
قد كان إبراهيم أواهًا كما — كان الحليم وفى التحلم يرغب
أطراه رب العرش فى قرآنه — فهو الحليم من الإله مقرب
أما رسول الله ذاك المصطفى — فالحلم ديدنه ونعم المذهب
هو أسوة هو قدوة هو أمة — فى الحلم تستبق الخطا وتحبب
وقد استطاع الكثر من أتباعه — أن يرشفوا من نبعه ويرطبوا
إن الحليم بحلمه ملك النهى — وذهابه شرق وأشرق مغرب
طوبى لإنسان حليم زانه — عقل يفكر دائمًا ويقلب
والحلم ضرع مستطاب حلبه — يهواه من عرف الطعوم ويطلب
فالمرء إن أخاه لذَّ مذاقه — وعلا الوجود وبالحلم يلقب
وإذا ترسل فى الحياة بدونه — ضل الطريق وفى الحياة يعذب
إن الحليم عن الضغائن ناكص — وعن الجهالة مبعد متجنب
والحلم إن ترك السفيه صراحه — فهو الخسارة دائمًا لا المكسب
فاعشق صفات الحلم واسلك نهجه — واعضض عليه بالنواجذ تغلب
وانشد رضاء الله واستبشر به — إن الكريم معينه لا ينضب
وانظر إلى خلق الرسول تأسيًا — واتبع هداه فإن ذلك أصوب
فهو الذى أسر النفوس بحلمه — إن الأمومة مثله لا تنجب
وهو الذى ساس الوجود بعقله — وأفاض أضواء فزال الغيهب
صلى الإله عليه فى روضاته — إن الصلاة عليه فرض موجب

الموقف الأول

إنى أحب أن يغفر الله لى

كان مسطح بن أثاثة من فقراء المهاجرين، وكان قريبًا لأبى بكر الصديق، ويعيش على إحسانه، وفى حادثة الإفك لم يتورع عن الخوض فيها، والخبط فى عرض أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى يكفله أبوها، فنسى بذلك حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الصنيع القديم، فأغضب ذلك أبا بكر، وجعله يحلف ألا يصل قريبه هذا كما كان يصله، فقال: «والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ما قال»، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر الصديق -رضى الله عنه وأرضاه-: «بلى، والله، إنى لأحب أن يغفر الله لى». فأرسل إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه، وقال مقابل حلفه الأول: «والله، لا أنزعها منه أبدًا»[١].

الموقف الثانى

خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم عُيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان من القراء -يعنى العلماء- أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لى عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل.. فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. والله، ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله[٢].

---

(١) رواه البخارى (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه البخارى (٤٦٤٢).

الموقف الثالث

اشهدوا أنه حرٌ

كان لابن عون ناقة يغزو عليها ويحج، وكان بها معجبًا. قال: فأمر غلامًا له يستقي عليها، فجاء بها وقد ضربها على وجهها، فسالت عينُها على خدها. فقلنا: إن كان من ابن عون شيء فاليوم! قال: فلم يلبث أن نزل، فلما نظر إلى الناقة قال: سبحان الله، أفلا غير الوجه، بارك الله فيك، اخرج عنى، اشهدوا أنه حر!!»[1].

الموقف الرابع

ما حملك على ما صنعت؟

قال أبو عمر بن عبد البر: روينا أن جارية لصفية -أم المؤمنين رضى الله عنها- أتت عمر بن الخطاب فقالت: إن صفية تحب السبت وتصل اليهود. فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت، فلم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة، وأما اليهود، فإن لى فيهم رحمًا، فأنا أصلها. ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟! قالت: الشيطان. قالت: فاذهبى، فأنتِ حرة[2].

الموقف الخامس

إن كنت صادقًا فغفر الله لى

قال أبو يعقوب المدنى: «كان بين حسن بن حسن وبين ابن عمه على بن الحسين شيء، فما ترك حسن شيئًا إلا قاله، وعلى ساكت، فذهب حسن، فلما كان فى الليل أتاه على فخرج، فقال علىّ: يا ابن عمى، إن كنت صادقًا فغفر الله لى، وإن كنت كاذبًا، فغفر الله لك، السلام عليك. قال: فالتزمه حسن وبكى حتى رثى له»[3].

***

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٧٠).

(٢) سير الذهبى (٢/ ٢٣٢).

(٣) سير الذهبى (٤/ ٣٩٧).

الحياء

مواقف الصالحين

- أى رب ألا أستحييك؟!
- ملائكة الرحمن تستحى من عثمان.
- والله ما دخلته حياء من عمر.
- ألا أخبرك عن النفر الثلاثة؟

الحياء

الحيـاء انقباض النـفس عن القبيح، وهو من خـصائص الإنسـان، ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشـتهى، فلا يكون كـالبهيمـة، والحياء أمـارة صادقة على طبيـعة الإنسان؛ فهو يكشف عن قيمـة إيمانه ومقدار أدبه. وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغى، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق، فاعلم أنه حىّ الضمير، نقىّ المعدن، زكى العنصر. وإذا رأيت الشخص بليد الشعور، لا يبالى ما يأخذ أو يتـرك، فهو امرؤ لا خير فيه، وليس له من الحـياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا. قال بعض الحكماء: من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وقـال بعض البلغاء: حياة الوجه بحيائه، كمـا أن حياة الغرس بمائه. وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا قل مـــاء الوجـه قل حـــيـاؤه ... ولا خـيـر فى وجـه إذا قل مـاؤه
حـيـاؤك فـاحـفظه عـليك فـإنما ... يدل على فـعل الكريم حـيـاؤه

وليس لمن سُلِبَ الحياء صادّ عن قبيـح، ولا زاجر عن محظور؛ فهو يقدم على ما يشاء ويأتى ما يهوى.. عن أبى مسـعود البدرى قال، قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كـلام النبوة الأولى: إذا لم تسـتح فاصنع مـا شئت»(١)، أى من لم يستح دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه راع.

إذَا لم تَخشَ عــاقِبــةَ الليــالى ... ولم تَسـتح فـاصـنَع مـا تَشَـاءُ
فـلاَ وَاللهِ مـا فى العـيشِ خـيـر ... ولا الدُّنْيَـا إذا ذَهَبَ الحَـيَـاءُ
يَعـيشُ المرءُ مـا استـحـيا بـخيـر ... ويبـقـى العُـودُ مـا بَقَى الـلحـاءُ

(١) صحـيح: رواه البـخارى (٦/ ٥٩٤)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وابن مـاجة (٤١٨٣)، وأحـمد (٤/ ١٢١)، والطيالسى (٦٢١)، وابـن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق (٨٣)، والطـبرانى فى الأوسط (٢٣٣٢)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٧٠)، والبيهقى (١٠/ ١٩٢)، والبغوى فى شرح السنة (١٣/ ١٧٣).

واعلم أن الحياء فى الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: حياؤه من الله تعالى.

والثاني: حياؤه من الناس.

والثالث: حياؤه من نفسه.

أما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره والكف عن زواجره.

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال ﷺ: **«استحيوا من الله تعالى حق الحياء، من استحي من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»** (١).

وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين.

وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح.

وقد حُكى أن حذيفة بن اليمان -رضى الله عنه- أتى الصلاة، فوجد الناس قد انصرفوا، فتنكب -تجنب- الطريق عن الناس، وقال: لا خير فيمن لا يستحى من الناس.

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات. قال بعض الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك. وقال بعض الأدباء: من عمل فى السر عملاً يستحى منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر. ودعا قوم رجلاً كان يألف عشرتهم، فلم يجبهم، وقال: إنى دخلت البارحة فى الأربعين، وأنا أستحى من سنى.

فسرِّى كإعلانى وتلك خليقتى ... وظلمةُ ليلى مثلُ ضوء نهارى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة. فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة، فقد كملت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشر، وصار بالفضل مشهوراً، وبالجميل مذكوراً.

(١) حسن: رواه الترمذى (٢٤٥٨)، وأحمد (٣/ ٣٨٧)، والحاكم (٤/ ٣٢٣)، والبيهقى (٧٧٣٠ -الشعب) والطبرانى فى الصغير (٤٨٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٠٩)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (رقم/ ٩٣٥).

فضل الحياء:

قال ﷺ: «إن لكل دين خلقًا، وإن خلق الإسلام الحياء»[(١)].

وقال ﷺ: «ما كان الفحش فى شىء قط إلا شانه، ولا كان الحياء فى شىء قط إلا زانه»[(٢)].

وقال ﷺ: «الحياء والإيمان قرنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[(٣)].

وقال ﷺ: «الحياء لا يأتى إلا بخير»[(٤)]. وقال ﷺ: «الحياء خير كله»[(٥)].

وقال ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء فى النار»[(٦)].

كيف نكتسب خلق الحياء؟

هاك بعض الوسائل المعينة على اكتساب هذا الخلق وتثبيته:

١- مطالعة الأحاديث والآثار الواردة فى فضل الحياء.

٢- مصاحبة الصالحين، كما قال بعضهم: أحى حياء بمجالسة من يستحيا منه.

٣- تكلف الحياء مرة بعد مرة حتى تألفه النفس، وتعتاده.

٤- البعدُ عن أصدقاء السوء.

٥- استحضار قصص الصالحين، ومعرفة سيرتهم، وشمائلهم الكريمة.

٦- المحافظة على الصلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

(١) حسن: رواه ابن ماجة، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٩٤٠).
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٥٥).
(٣) صحيح: رواه أبو نعيم، والحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى الروض النضير (٢/ ٤٢٣).
(٤) صحيح: رواه البخارى ومسلم. (٥) صحيح: رواه مسلم.
(٦) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى المشكاة (٥٠٧٧).

مواقف الصالحين

الموقف الأول

أى رب.. ألا أستحييك؟!

عن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن آدم عليه السلام كان رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق [1] كثير شعر الرأس، فلما وقع بما وقع به بدت له عورته، وكان لا يراها قبل ذلك، فانطلق هاربًا فأخذت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: «أرسلينى» قالت: لست مرسلتك. قال: فناداه ربه عز وجل: أمنى تفر؟ قال: أى رب ألا أستحييك؟ قال: فناداه: وإن المؤمن يستحى ربه عز وجل من الذنب إذا وقع به، ثم يعلم بحمد الله أين المخرج، يعلم أن المخرج فى الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل» [2].

الموقف الثانى

ملائكة الرحمن تستحى من عثمان رضى الله عنه

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضجعًا فى بيتى كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوَّى ثيابه فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة: «دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك! فقال: ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة» [3].

---

(١) السحوق: الطويلة.

(٢) صحيح: رواه أحمد فى الزهد (٤٨)، مرسلاً، والحاكم (٢/ ٢٦٢) موصولاً، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧/ ١٧)، والطحاوى فى المشكل (٢/ ٢٨٣)، وأبو يعلى (٣/ ١١٧٨)، وأحمد (٦/ ٣٢). =

الموقف الثالث

والله ما دخلته حياء من عمر

عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: كنت أدخل البيت الذى دفن فيه رسول الله ﷺ وأبى رضى الله عنه واضعة ثوبى، وأقول: إنما هو زوجى وأبى، فلما دفن عمر رضى الله عنه، والله ما دخلته إلا مشدودة علىّ ثيابى حياء من عمر رضى الله عنه[1].

الموقف الرابع

ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟!

عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه -أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد. قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فُرجة فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه، وأما الآخر فاستحى، فاستحى الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه». رواه البخارى (٦٦).

فقوله: أوى إلى الله أى: لجأ إلى الله «فآواه الله» أى: جازاه بنظير فعله، بأن ضمه إلى رحمته ورضوانه، وفيه الثناء على من زاحم فى طلب الخير.

قوله: «فاستحى» أى: ترك المزاحمة كما فعل رفيقه حياء من النبى ﷺ وممن حضر.

وقوله: «فأعرض الله عنه» أى: سخط عليه، وهو محمول على من ذهب معرضًا لا لعذر، هذا إن كان مسلمًا، ويحتمل أن يكون منافقًا، واطلع النبى ﷺ على أمره، كما يحتمل أن يكون قوله: «فأعرض الله عنه» إخبارًا أو دعاء.

= ورواه مسلم والطحاوى فى شرح المعانى (١/ ٢٧٤)، وأحمد (٦/ ١٥٥) من حديث سعيد بن العاص عن عائشة مرفوعًا بلفظ: «إن عثمان رجل حيى، وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ فى حاجته».

(١) المستدرك (٤/ ٧).

العفاف

مواقف الصالحين

- حب يقود إلى خير وإحسان.
- إنا نشم منك رائحة المسك.
- القتل أهون عليَّ من خيانة أخى.
- يا بنى ما قصتك؟
- أنتم معاشر العباد مثل القوارير.
- الراهبة والفقيه.
- هل لك فى فراش وطى.
- اللهم رُدَّها إلى حالتها.
- إنى أخاف الله رب العالمين.
- والله ما يرانا إلا الكواكب.
- لا تحرقينى ونفسك بالنار.
- استحييت مما سمعت منها.

العفاف

اتفق الناس على أن الأديان كلها عملت على توفير العفة والحفاظ عليها ضمن الضروريات الستة التي لابد لكل مجتمع منها، التي هي: الأديان، والأنفس والعقول، والأعراض، والأنساب، والأموال، فقد حُرِّم الزنا في جميع الأمم.

جاء ذكر ذلك في قصة يوسف ومريم والنفر الثلاثة من بني إسرائيل وفي خصوص الإسلام وهو خاتمة الأديان؛ فقد كانت عنايته بذلك تفوق كل الحدود حيث أحاط العرض بسياج منيع من جميع جوانبه وحرّم كل نافذة تطل عليه ابتداء من نظرة بالعين وخطرة بالقلب وهمسة بالأذن ورنة بالحلي.. وألزم الحجاب صونًا له وحفاظًا عليه.

واعلم أنه لا يكون المتعفف عفيفًا إلا بشرائط، وهي: ألا يكون تعففه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه، أو لأنه لا يوافقه، أو لجمود شهوته، أو لاستشعار خوف من عاقبته، أو لأنه ممنوع من تناوله، أو لأنه غير عارف به لقصوره، فإن ذلك كله ليس بعفة بل هو إما اصطياد، وإما تطبب، وإما مرض، وإما عجز، وإما جهل. وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عند الغضب، ولهذا قيل: عبد الشهوة أذل من عبد الرق.

قال ﷺ: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا عن النساء تعف نساؤكم»(١).

قال المناوي: «بروا آباءكم وأمهاتكم» وكأنه اكتفى به عنه من قبيل ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وأراد بالآباء ما يشمل الأمهات تغليبًا كالأبوين، فإنكم إن فعلتم ذلك تبركم أبناؤكم، وكما تدين تدان. وعفوا عن نساء الناس فلا تتعرضوا لمزاناتهم، فإنكم إن التزمتم ذلك تعف نساؤكم عن الرجال الأجانب، لما ذكر.

---

(١) حسن لغيره: رواه الحاكم (٧٢٥٨)، وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي بقوله: بل سويد ضعيف. وحسنه المنذري، والحافظ ابن حجر.

عـفـوا تعف نسـاؤكم فى المحـرم ... وتجنبـوا مـا لا يـليق بمسلم
يا هاتكًا سـبل الرجـال وقـاطعًـا ... سـبل المودة عـشـت غـيـر مكرم
لو كنت حـرًا من سـلالة مـاجـد ... مـا كنـت هاتكًا لحـرمـة مـسلم
من يـزنِ يزنِ به ولـو بجـداره ... إن كنت يا هذا لـبيبًـا فـافـهم
من يـزنِ فى بـيت بـألفـى درهم ... فى بيـتـه يزنـى بغـيـر الدرهم

ومن فـضل الله تعالى وتـكريمه لبنى آدم أن شرع لهـم الزواج، وجعل طريقـة تناسلهم بهذه الطريقة الشريـفة المنظمة المحفوظة المصونة لئلا تختلط الميـاه، وتشتبه الأنساب بخلاف ما عليه طريقة تناسل الحيوانات والبهائم.

ولم تعد المرأة فى ظل الإسلام كمـا كانت عند الآخرين دنسًا يجب التنزه عنه، ولكن تسامى الإسـلام بالمرأة إلى علياء السمو، وجـعل الزواج من نعمه سبـحانه على عباده. قال سبحانه فى وصف الرسل ومدحهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]، فذكر ذلك فى معرض الامتنان، وإظهار فضله سبحانه عليهم، والمعنى: وجـعلناهم بشرًا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخـصيص فى فى الوحى، فهذه سنة المرسلين كـما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمـعناها. ومـدح عـز وجل أوليـاءه بأنهم يـسـألونه ذلك فى دعائهم، فـقال عـز من قائل: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقال سـبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

ولا تستعمل لفظة «آية» فى القرآن المجيـد إلا فى الأمور الجليلة العظيمة؛ لتدل على قوة وقدرة الخالق تبارك وتعالى، وقد قرن الله تبارك وتعالى آية تكوين الأسرة بآية تكوين العـالم أجمـع، فعـقب هذه الآية بقوله جل وعـلا: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. بل إن الزوجة نعمة من نعم الله على عبده حقيق به أن يشكرها ولا يكفرها، وهو مسئول عن هذه النعمة بين يدى ربه يوم الحساب، كما يُسأل عن سائر النعم. ففي حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعًا: «فيلقى العبد ربه، فيقول الله: «ألم أُكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأُسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟»، فيقول: «بل أى رب»، فيقول: «أفظننت أنك مُلاقيَّ؟» فيقول: «لا»، فيقال: «إنى أنساك كما نسيتنى»(١) وعلم بالضرورة من دين الإسلام الترغيب فى الزواج والحث عليه.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تزوج العبد، فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله فيما بقى»(٢).

قال القرطبى: ومعنى ذلك أن النكاح يعفُّ عن الزنى، والعفاف إحدى الخصلتين ضمن رسول الله ﷺ عليهما الجنة، فقال: «من وقاه الله من اثنتين ولج الجنة: ما بين لحييه، وما بين رجليه»(٣).

وكان رسول الله ﷺ يحض أصحابه على الزواج، وكان يقرأ لمن يطلب إباحة التبتل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وعن أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعًا: «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، ولا تكونوا كرهبانية النصارى»(٤).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٠)، والترمذى (٢٤٢٨)، وأحمد (٢/ ٤٩٢).

(٢) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٦٢٥).

(٣) صحيح: رواه الترمذى (٢/ ٦٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم (٤/ ٣٥٧)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبى.

(٤) حسن: رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٧٨)، وسكت عليه الحافظ فى الفتح (٩/ ١١١)، وقواه الألبانى لشواهده فى الصحيحة (١٧٨٢).

قال ابن الهمام: ومن تأمل ما يشتمل عليه النكاح من تهذيب للأخلاق، وتوسعة للباطن بالتحمل فى معاشرة أبناء النوع، وتربية الولد، والقيام بمصالح المسلم العاجز عن القيام بها، والنفقة على الأقارب، والمستضعفين، وإعفاف الحُرَم -يعنى الزوجات- ونفسه، ودفع الفتن عنه وعنهن، ودفع التقتير عنهن بحبسهن، لكفايتهن مؤنة سبب الخروج -يعنى الخروج لطلب الرزق- ثم الاشتغال بتأديب نفسه، وتأهله للعبودية، ولتكون أيضًا سببًا لتأهيل غيره، وأمرها بالصلاة، فإن هذه الفرائض كثيرة، لم يكد يقف عن الجزم بأنه -أى: الزواج- أفضل من التخلى.

إن التقاء ذكر وأنثى يقضيان وطرًا مؤقتاً ثم ينفض كل منهما فهذا سلوك اللذة؛ لأنه لا يديم الرابطة بينهما، وهذا سلوك يهدر طاقة الجنس لأنه لا يوظفها للتكاثر وبناء المجتمع، وإن انفلت التكاثر رغمًا عنهما فهو تكاثر اللامسئولية أو اللقطاء. هذا مع ما فى هذا اللقاء من حواجز وسدود، حواجز من العقيدة، حواجز من الكرامة، حواجز من السمعة.. ولهذا حدد الإسلام القناة لهذا السيل عن طريق الزواج. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾. نعم أزواج مرتبطون بعقد زواج وليس مجرد معشوقات! لماذا؟ ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ فتغدو، الحياة كلها جنات، فالارتواء العاطفى قربى من الله، وعنف الحب زلفى من الله، والخلوة واللقاء تتم بستر وصون من الله، والثمرة للقاء مباركة طيبة ترعاها عين الله وتكلؤها رعايته. ورابطة الزواج المقدسة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ مودة فى الشباب ورحمة فى الشباب والشيخوخة. ما أروع هذا التنظيم الذى اسمه الزواج لفطرة الجنس! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

نعم.. يتفكرون فى أن الزواج هو التلبية المشروعة لنداء الجنس وليس تلصص النظرات وغثاء الأشعار وفحيح الأغانى وتدجيل المسلسلات الغرامية، إن فصل الحب عن الجنس فى صالح كل منهما؛ إذ ذاك يمكن تلبية نداء الجنس بوسيلته

المشروعة وهى الزواج، كما يمكن حفظ الحب بحده الغرائزى وهو حب الرجل للمرأة فى إطار من التفاهم والتضحية وتحقيق استقرار المجتمع. والزواج نظام يحفظ للمجتمع استقراره بفرض المسئوليات على الزوجين. ويسمح بتصريف طاقة الجنس بنظافة، ويوجهها إلى أكثر من حصد اللذة الآنية، وهو التكاثر. إن الزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجرى الحياة على طبيعتها وبساطتها.

فالإسلام نظام متكامل؛ فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ إلا الذى يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر[1].

***

(١) انظر بدائع الفوائد (٣/ ١٩١)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٤)، والفتح الربانى (١٦/ ١٤٢)، وفتح القدير (٣/ ١٨٩)، والمرأة (٢/ ٢٣١)، من يظلهم الله (١/ ٤٤٧)، والجزاء (٢/ ١٢٨). والذريعة (ص٣١٨)، وفيض القدير (٣/ ٢٠٠).

مواقف الصالحين

الموقف الأول

حب يقود إلى خير وإحسان

عن رجاء بن عمرو النخعى قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه، شديد التعبد والاجتهاد وكان أحد الزهاد، فنزل فى جوار قوم من النخع فنظر إلى جارية منهن جميلة فهويها، وهام بها عقله ونزل بها مثل الذى نزل به فأرسل يخطبها من أبيها فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها، فلما اشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية: قد بلغنى شدة محبتك لى وقد اشتد بلائى بك، فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك تأتينى.

فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم، أخاف نارًا لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها. فلما انصرف الرسول إليها فأبلغها ما قال، قالت: وأراه مع هذا زاهدًا يخاف الله! والله ما أحد أحق بهذا من أحد وإن العباد فيه لمشتركون.

ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها، ولبست المسوح وجعلت تتعبد، وهى مع ذلك تذوب وتنحل حبًا للفتى وأسفًا عليه حتى ماتت شوقًا إليه، فدفنت فكان الفتى يأتى قبرها ويبكى عندها ويدعو لها فغلبته عيناه ذات يوم على قبرها، فرآها فى منامه وكأنها فى أحسن منظرها فقال: كيف أنت؟ وما لقيت بعدى؟ فقالت:

نعم المحبة يا سؤلى محبتكم ... حب يقود إلى خير وإحسان

فقال: على ذلك إلى ما صرت؟

فقالت:

إلى نعيم وعيش لا زوال له ... فى جنة الخلد ملك ليس بالفانى

فقال لها: اذكريني هناك، فإني لست أنساك. فقالت: ولا أنا والله أنساك ولقد سألت قربك مولاى ومولاك فأعنّى على ذلك بالاجتهاد.. ثم ولت مدبرة.

فقال لها: متى أراك؟ قالت: ستأتينا عن قريب فترانا، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال(١).

الموقف الثانى

إنا نشم منك رائحة المسك

قيل لأبى بكر المسكى: إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام.. فما سببه؟ فقال: والله لى سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت علىّ حتى أدخلتنى دارها وأغلقت دونى الأبواب، وراودتنى عن نفسى فتحيرت فى أمرى فضاقت بى الحيل، فقلت لها: إن لى لحاجة إلى الطهارة. فأمرت جارية لها أن تمضى بى إلى بيت الراحة ففعلت، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمى، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة فلما رأتنى دهشت، ثم أمرت بإخراجى فمضيت واغتسلت، فلما كانت تلك الليلة رأيت فى المنام قائلاً يقول لى: فعلت ما لم يفعله أحد غيرك، لأطيبن ريحك فى الدنيا والآخرة. فأصبحت والمسك يفوح منى، واستمر ذلك إلى الآن(٢).

الموقف الثالث

القتل أهون علىَّ من خيانة أخى

عرض الحجاج سجنه يومًا، فأتى برجل فقال له: ما كان جرمك؟ قال: أصلح الله الأمير، أخذنى العسس وأنا مخبرك بخبرى، فإن يكن الكذب ينجى فالصدق أولى بالنجاة. فقال: ما قصتك؟ قال: كنت أخًا لرجل فضرب الأمير عليه البعث إلى خراسان، فكانت امرأته تجد بى وأنا لا أشعر، فبعثت إلىّ يومًا رسولاً: قد جاء كتاب صاحبك فهلم فلتقرأه. فمضيت إليها، فجعلت تشغلنى بالحديث حتى

(١) ذم الهوى (ص ٢٦٣).

(٢) المواعظ والمجالس (ص٢٢٤) لابن الجوزى.

صلينا العشاء، ثم أظهرت لى ما فى نفسها، ودعتنى إلى السوء، فأبيت ذلك. فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحن ولأقولن إنك لص، فلما أبيت عليها صرخت فخرجت هاربًا. وكان القتل أهون علىَّ من خيانة أخى. فلقينى عسس الأمير فأخذونى. فعرف صدق حديثه وأمر بإطلاقه[1].

الموقف الرابع

يا بنىَّ ما قصتك؟

أحبت امرأة من المدينة رجلاً من الأنصار فأرسلت تشكو إليه حبها وتسأله الزيارة وتدعوه إلى الفاحشة وكانت ذات بعل فأرسل إليها:

إن الحرام سبيلٌ لست أسلكه ... ولا أمرٌ به ما عشت فى الناس
فابغى العفاف فإنى غير متبع ... ما تشتهين فكونى منه فى ياس
إنى سأحفظ فيكم من يصونكم ... فلا تكونى أخا جهل ووسواس

فلما قرأت الكتاب كتبت إليه:

دع عنك هذا الذى أصبحت تذكره ... وصر إلى حاجتى يا أيها القاسى
دع التنسك إنى غير ناسكة ... وليس يدخل ما أبديت فى راسى

فأفشى ذلك إلى صديق له فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك فقال: والله لا فعلت، ولا صرت فى الدنيا حديثًا وللعار فى الدنيا خير من النار فى الآخرة وقال:

العار فى مدة الدنيا وقلتها ... يفنى ويبقى الذى فى العار يؤذينى
والنار لا تنقضى مادام بى رمق ... ولست ذا ميتة منها فتفنينى
لكن سأصبر صبر الحرِّ محتسبًا ... لعل ربى من الفردوس يدنينى

(١) أخبار النساء (ص٣٩) لابن القيم.

وأمسك عنهــا فأرسلت: إما أن تــزورني وإما أن أزورك. فأرسل إليــها: اربعي أيتها المرأة على نفسك ودعي عنك التسرع إلى هذا الأمر. فلمــا يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعــمل السحر فجــعلت لها الرغائب في تهيــيجه فعملت لهــا فيه فبــينما هو ذات ليلة جــالس مع أبيه إذ خطر ذكــرها بقلبه وهاج منه أمــر لم يكن يعرفه، واختلط، فقام من بين يدي أبيه مسرعًا وصلى واستعاذ وجعل يبكي والأمر يزيد، فقال له أبوه: يا بني ما قصتك؟ قال: يا أبت أدركني بقيد، فما أرى إلا قد غلبت على عــقلي. فجــعل أبوه يبكي ويقول: يا بنــي حدثني بالقــصة. فــحدثه قصته، فقام إليه فقيده وأدخله بيــتًا، فجعل يتضرب ويخور كخوار الثور، ثم هدأ ساعة فإذا هو ميت وإذا الدم يسيل من منخريه[1].

الموقف الخامس

أنتم معاشر العباد مثل القوارير

كان عندنا بالكوفة شــاب يتعبد ملازمًا لمسجــد الجامع لا يكاد يخلو منه، وكان حسن الوجــه حسن القامــة حسن السمت، فنظرت إليــه امرأة ذات جمــال وعقل فشغفت به، وطال ذلك عليها، فلما كان ذات يوم وقفت له على طريقه وهو يريد المسجــد، فقالت له: يا فــتى اسمع مني كلمــات أكلمك بها ثم اعمل مــا شئت. فمضى ولم يكلمــها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقــه وهو يريد منزله، فقالت له: يا فتى اسمع كلمات أكلمك بها، فأطرق، فــقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمــة موضعًا. فقالت له: والله ما وقفت مــوقفي هذا جهالة مني بأمرك، ولكن معــاذ الله أن يتشوف العباد إلى مــثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في هذا الأمــر بنفسي معرفتي أن القليل من هذا عند الناس كــثير، وأنتم معاشر العباد في مثال القوارير أدنى شيء يعيبه، وجملة ما أكلمك به أن جوارحي كلها مــشغولة بك، فالله الله في أمــري وأمرك. قال: فمــضى الشاب إلى منزله، وأراد أن يصلي فلم يعقل كــيف يُصلي، فأخذ قــرطاسًا وكتب كتــابًا ثم خرج من

(١) ترطيب الأفواه (١/ ٤٣٧).

منزله، فإذا بالمرأة واقفة فى موضعهـا، فألقى إليها الكتاب ورجع إلى منزله، وكان فى الكتاب: «بسم الله الرحـمن الرحيم. . اعلمى أيتها المرأة أن الله تبـارك وتعالى إذا عُصى حَلُمَ، فإذا عاود العـبد المعصية ستر، فإذا لبس لهـا ملابسها غضب الله عز وجل لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرضون والجبال والشجر والدواب، فمـن ذا الذى يطيق غضـبه؟ فـإن كان ما ذكـرت باطلاً فإنـى أذكِّرك ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارك: ٩] وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم، وإنى والله قد ضعُفت عن إصلاح نفسى فكيف بصلاح غيرى؟! وإن كان ما ذكرت حقًا فإنى أدلك على طيب هذا وولى الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة، ذلك الله رب العالمين، فاقصديه على صدق المسألـة، فإنى متشاغل عنك بقوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ⑱ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ⑲ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ١٨- ٢٠] فأين المهرب من هذه الآية؟ ثم جاءت بـعد ذلك بأيام فوقفت له على طريقه، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها، فقالت: يا فتى لا ترجع، فـلا كان الملتـقى بعد هذا أبدًا إلا بين يدى الله عـز وجل، وبكت بكاءً كثيرًا، ثم قالت: أسأل الله عز وجل الذى بيده مفاتيح قلبك أن يُسهل ما قد عَسُر من أمرك، ثم تبـعته فـقالت: امنُن علىّ بموعظة أحـملها عنك، وأوصنى بوصـية أعمل عليها. فقال لها الفتى: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأُذكرك بقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. قال: فأطرقت وبكت بكـاءً أشد من بكائها الأول، ثم أفـاقت فقالت: والله مـا حملت أنثى ولا وضعت أُنثى كمثلك فى مصرى وأحيائى، وذكرت أبياتًا آخرها:

لا ألبـسن لهـــذا الأمـر مـدرعـة ولا ركنـت إلى لذات دنيـــــايا

ثم لزمت بيتهـا فأخذت بالعبـادة. قال: فكانت إذا أجهدها الأمر تـدعو بكتابه فتضعه على عينيها، فيقال لها: وهل يُغنى هذا شيئًا؟ فتقول: وهل لى دواء غيره؟ وكان إذا جن عليها الليل قامت إلى محرابها، فإذا صلّت قالت:

يا وارث الأرض هب لى منك مغفرة ... وحُلّ عنى هو ذا الهاجر الدانى
وانظر إلى خلتى يا مُشتكى حزنى ... بنظرة منك تجلو كلّ أحزانى

فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدًا، وكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى عليها، فيقال له: ممّ بكاؤك وأنت قد آيستها؟! فيقول: إنى قد ذبحت طمعها منى فى أول أمرها، وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله عز وجل، فأنا أستحيى من الله عز وجل أن أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى»[1].

الموقف السادس

الراهبة والفقيه

قال عبد الله بن مسلم العجلى: كانت امرأة جميلة بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها فى المرآة، فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه لا يفتن به؟ قال: نعم. قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير.

قالت: فائذن لى فيه فلأفتننه، قال: أذنت لك[*].

قال: فأتته كالمستفتية فخلا معها فى ناحية من المسجد الحرام، قال: فأسفرت عن مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله! قالت: إنى قد فُتنت بك فانظر فى أمرى.

قال: إنى سائلك عن شىء فإن صدقتينى نظرت فى أمرك.

قالت: لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك.

قال: أخبرينى لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا.

قال: فلو وقفت بين يدى الله للمساءلة أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة؟

(١) مصارع العشاق (١/ ٤٩)، والإحياء (٣/ ١٥٥).
(*) هذا لا يجوز شرعًا.

قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: اتقى الله يا أمة الله، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك.

قال: فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعتِ؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون.

فقال: ما لى ولعبيد بن عمير، أفسد علىّ امرأتى، كانت فى كل ليلة عروسًا فصيرها راهبة[1].

الموقف السابع

هل لك فى فراش وطى؟

نزل السرى بن دينار فى دار بمصر كانت فيه امرأة جميلة تفتن الناس بجمالها، فعلمت المرأة فقالت: لأفتننه. فلما دخلت من باب الدرب كشفت وأظهرت نفسها فقال السرى: ما لك؟

قالت: هل لك فى فراش وطىّ وعيش رخىّ؟!

فأقبل عليها وهو يقول:

وكم ذى معاص نال منهن لذة ... ومات فخلاها وذاق الدواهيا
تصرم لذات المعاصى وتنقضى ... وتبقى تباعات المعاصى كما هيا
فواسوأتا والله راءٍ وسامع ... لعبد بعين الله يغشى المعاصيا[2]

الموقف الثامن

اللهم ردَّها إلى حالتها

قال أبو الكرير معمر: سمعت أبا زرعة الخبنى يقول: مكرت بى امرأة فقالت: يا أبا زرعة! ألا ترغب فى عيادة مبتلى تتعظ برؤيته؟ فقلت: بلى. فقالت: ادخل

(١) ترطيب الأفواه (١/ ٤٣٢).

(٢) ذم الهوى (ص ٢٣٤).

إلى الدار.. فلما دخلت الدار أغلقت الباب ولم أر أحدًا فعرفت قصدها فقلت: اللَّهم سوِّدها فاسودَّت فحارت وفتحت الباب فخرجت وقلت: اللهم رُدَّها إلى حالتها فَردَّها إلى ما كانت[1].

الموقف التاسع

إنى أخاف الله رب العالمين

عن يحيى بن عامر التيمى أن رجلاً من الحىّ خرج حاجًا فإذا هو بامرأة فى بعض الليل ناشرة شعرها فى بعض المياه فأعرض عنها فقالت: هلم إلىَّ لم تُعرض عنى؟ قال: إنى أخاف الله رب العالمين. فتجلببت، ثم قالت: هبت مهابًا إن أولى من شركك فى الهيبة لمن أراد أن يشركك فى المعصية. قال: ثم ولّت فتبعتها فدخلت بعض خيام الأعراب.. فلما أصبحت أتيت رجلاً من القوم فوصفتها فقلت: فتاة كذا وكذا من حسنها من منطقها.. فقال شيخ منهم: ابنتى والله. قلت: هل أنت مزوّجى؟ قال: على الأكفاء. قلت: رجل من تيم الله. قال: كفء كريم فما رمت حتى تزوجتها ودخلت بها، ثم قلت: جهزوها إلى قدومى من الحج فلما قدمت حملتها إلى الكوفة فهاهى عندى لى منها بنين وبنات[2].

الموقف العاشر

والله ما يرانا إلا الكواكب

قال أعرابى: خرجت فى بعض ليالى الظلمة، فإذا أنا بجارية كأنها علم، فأردتها على نفسها فقالت: ويلك! أما لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين؟! فقلت: إيها! والله ما يرانا إلا الكواكب. قالت: فأين مكوكبها؟![3].

---

(١) ترطيب الأفواه (١/ ٤٤٠).

(٢) ذم الهوى (ص ٢٦٤).

(٣) ترطيب الأفواه (١/ ٤٤٢).

الموقف الحادى عشر

لا تحرقينى ونفسك بالنار

خرج عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار حاجين من المدينة ومعهم أصحاب لهما، حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقى عطاء بن يسار قائمًا فى المنزل يصلى، فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها ظن أن لها حاجة فأوجز فى صلاته، ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم.

قال: ما هى؟ قالت: قم فأصب منى فإنى قد ودقت ولا بعل لى. فقال: إليك عنى، لا تحرقينى ونفسك بالنار.. ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه وتأبى إلا ما تريد. فجعل عطاء يبكى ويقول: ويحك إليك عنى إليك عنى، واشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه فجعل يبكى والمرأة بين يديه تبكى.

فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته فلما نظر إلى عطاء والمرأة بين يديه تبكى، جلس يبكى فى ناحية البيت لبكائهما ولا يدرى ما أبكاهما! وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتى رجل فرآهم يبكون جلس يبكى لبكائهم لا يسألونهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت فلما رأت الأعرابية ذلك، قامت فخرجت وقام القوم فدخلوا فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبته، وكان أسنّ منه، ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء الله فبينما عطاء ذات ليلة نائم، إذ استيقظ وهو يبكى! فقال له سليمان: ما يبكيك يا أخى؟! فاشتد بكاؤه قال: ما يبكيك يا أخى؟! قال: رؤيا رأيتها الليلة. قال: ما هى؟ قال: لا تخبر بها أحدًا مادُمت حيًا. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت يوسف النبى ﷺ فجئت أنظر إليه فيمن ينظر فلما رأيت حسنه بكيت! فنظر إلىَّ فى الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ قلت: بأبى أنت وأمى ذكرتك

وامرأة العزيز وما ابتليت به من أمرها، وما لقيت من السجن وفرقة الشيخ يعقوب ﷺ فبكيت من ذلك، وجعلت أتعجب منه فقال ﷺ: فهلاّ تعجبت من صاحب المرأة بالأبواء؟ فعرفت الذى أراد فبكيت، واستيقظت باكيًا. قال سليمان: يا أخى! وما كانت حال تلك المرأة؟

قال: فقص عليه عطاء القصة فما أخبر سليمان بها أحدًا، حتى مات عطاء وحدث بها بعده امرأة من أهله، وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار(١).

الموقف الثانى عشر

استحييت مما سمعت منها

قال محمد بن عبد الله بن زيد: حدثتنى أمى عن أبيها قال: أحببت جارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب فمازلت أحتار فى أمرها حتى اجتمعت معها فى ليلة مظلمة شديدة السواد فى موضع خال، فحادثتها ساعة، ثم دعتنى نفسى إليها فقلت: يا هذه، قد طال شوقى إليك. قالت: وأنا كذلك. قلت: قد عسر اللقاء. قالت: نحن كذلك!

قلت: هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب.

قالت: هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات.

قلت: لو أدنيتنى منك؟

قالت: هيهات هيهات! إنى أخاف العقوبة من الله.

قلت لها: فما الذى دعاك إلى الحضور معى فى هذا المكان؟!

قالت: شقوتى وبلائى!

(١) الرقة والبكاء (ص ١٩٨)، وصفة الصفوة (٢/ ٨٢).

قلت: فمتى أراك؟

قالت: ما أرانى أنساك، فأما الاجتماع معك فلا أراه يكون.

ثم تولت من بين يدى، فاستحييت مما سمعت منها، فرجعت وقد خرج من قلبى ما كنت أجد من حبها، ثم أنشأت أقول:

توقت عذابًا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تعذبا
وقالت مقالا كدت من شدة الحيا ... أهيم على وجهى حيًا وتعجبا
ألا أف للحب الذى يورث العمى ... ويورد نارًا لا تمل التوثبا
فأقبل عودى فوق بدء مفكرًا ... وقد زال عن قلبى العمى فتسربا

قال: فلم أر امرأة كانت أصون منها لدينها ولا أعقل(١).

الموقف الثالث عشر

إنى أخاف الله رب العالمين

هذا الأخ عبد العزيز علام الهندى الذى يعمل «ترزيًا» فى المعسكر الإنجليزى، تدعوه زوجة أحد كبار الضباط لبعض الأعمال الخارجية بمهنته لتنفرد به فى المنزل وتغريه بكل أنواع المغريات فيعظها وينصح لها ثم يخوفها ويزجرها. فتهدد بعكس القضية تارة، وبتوصيب المسدس إلى صدره تارة أخرى، وهو مع ذلك لا يتزحزح عن موقفه قائلاً: إنى أخاف الله رب العالمين. وكم كان جميلاً ومضحكًا فى وقت واحد أن توهمه فى إصرار أنها قد قررت قتله وستعتذر عن ذلك بأنه هاجمها فى منزلها وهمّ بها، وتصوب المسدس إليه فيغمض عينيه ويصرخ فى يقين: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فتفاجئها الصيحة ويسقط المسدس على الأرض ويسقط فى

(١) ذم الهوى (ص٢٧٢).

يديهـا فلا ترى إلا أن تدفـعه بكلتـى يديها إلى الخـارج حيث ظل يعـدو إلى دار الإخوان المسلمين.

هكذا كان أولئـك الإخوان، وحوادثهم فى هذه المعـانى كثـيرة ومن أجل ذلك بارك الله الدعوة التى استـنارت بها مثل هذه القلوب وصـدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥][(١)].

***

(١) مذكرات الدعوة والداعية (ص/٨٨).

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	[illegible]
تمهيد: ثمرات مـجالسة الصالحين	٧
العلم	
فـضل العلم والعلمـاء	٢٤
حـاجـة الناس إلى العلم	٢٦
أهمية العلـم فى الصغر	٢٧
الطريق إلى القمة ورعاية الأذكياء	٢٨
التشجيع وأثره فى النهوض بالنابغين	٣٧
مواقف الصالحين	
الموقف الأول: لـم يكن عند أمى ما أشـترى به الأوراق	٤١
الموقف الثانى: لا يستطاع العلم براحة الجسد	٤١
الموقف الثـالث: زد من الضرب وزد مـن الحديث	٤٢
الموقف الرابع: لا تدعو باللحم المشئوم	٤٢
الموقف الخـامس: رائحة الولد	٤٤
الموقف السادس: قد جـعلت لك الليل وحدك	٤٤
الموقف السابع: الأجر رحمكم الله	٤٥
الموقف الثـامن: كـدت أصـافح الموت	٤٧
الموقف التاسع: من كان آخر كـلامه لا إله إلا الله	٤٨
الموقف العاشر: فقيه خراسان يرعى الجمال	٤٩

الموقف الحادى عشر: ما أضحكك؟ ٥٠
الموقف الثانى عشر: لا أكتمك أمرى ٥٠

التوبة

شرائط التوبة ٥٦
علامات صحة التوبة وقبولها ٦١
فوائد التوبة ولطائفها ٦٣

مواقف الصالحين

الموقف الأول: اتركينى أخرج ولك المائة دينار ٦٨
الموقف الثانى: اذكروا صاحب الرغيف ٦٩
الموقف الثالث: هذا كان سبب توبتى ٦٩
الموقف الرابع: عيب عليك يا ولدى اتق الله ٧١
الموقف الخامس: بكيت على أيامى الضائعة ٧٤
الموقف السادس: والله لأجتهد ألا أعصى الله أبداً ٧٧
الموقف السابع: دعينى أتعب قليلاً لعلى أستريح طويلاً ٧٨
الموقف الثامن: قدمنا على رب كريم أباحنا الجنة ٧٩

الدعوة إلى الله تعالى

مواقف الصالحين

الموقف الأول: نذر نفسه للدعوة إلى الله ٩٦
الموقف الثانى: هل تريد شيئًا؟ ٩٦
الموقف الثالث: لا تضيعوا أعماركم مثلى ٩٧
الموقف الرابع: عاهدت الله أن أبذل النصيحة ٩٨
الموقف الخامس: فتاة تدعو أختها للالتزام بدين الله ٩٩

الموقف السادس: انصرى أختاه هذا الدين ١٠٢
الموقف السابع: أتوجه إلى كل معلمة ألا تتهاون فى إسداء النصح ١٠٤
الموقف الثامن: الدعوة فى المقاهى ١٠٦
الموقف التاسع: أين الناس؟! ١٠٧
الموقف العاشر: طالبة تدعو معلمتها إلى الاستقامة ١٠٩
الموقف الحادى عشر: لابد من إنقاذهما قبل فوات الأوان ١١٠
الموقف الثانى عشر: الأعمال بالخواتيم ١١٢

بر الوالدين

شروط البر ثلاثة ١١٥
بر الوالدين بعد موتهما ١١٧
ثمرات طاعة الوالدين ١١٩

مواقف الصالحين

الموقف الأول: منعه البر من صحبة النبى ﷺ ١٢٣
الموقف الثانى: أمرضه وليس لى من ميراثه شىء ١٢٥
الموقف الثالث: نموذج رائع للبر ١٢٦
الموقف الرابع: هل أديت حقها؟ ١٢٦
الموقف الخامس: ما أردت إلا هذا؟ ١٢٧
الموقف السادس: أخاف أن أكون قد عققتها ١٢٧
الموقف السابع: أم تحكى بر ولدها بها ١٢٧
الموقف الثامن: لأنه كان صديق والدى ١٢٨
الموقف التاسع: إنى اخترت رضا الوالدة ١٢٨

العدل

مواقف الصالحين

الموقف الأول: أتريد أن تضرب الأمير؟ ١٣٤
الموقف الثاني: اضرب ابن الأكرمين ١٣٤
الموقف الثالث: حكمت عليك يا أمير المؤمنين ١٣٥
الموقف الرابع: إني آليت على نفسي ألا أشرب حتى أنصرك ١٣٦
الموقف الخامس: اسكت فإن الحق أنطقها ١٣٧
الموقف السادس: والله ما سفكت دمًا حرامًا منذ وليت الخلافة ١٣٧
الموقف السابع: أنت الذي أحوجتني إلى هذا ١٣٨
الموقف الثامن: لو عدلت عن سيرتك لانتصفت للعدالة ١٣٩
الموقف التاسع: جزاك الله يا ابن ظريف خيراً ١٤٠
الموقف العاشر: ملأتها والله عدلاً ١٤١
الموقف الحادي عشر: أعوذ بالله أن أخون المسلمين في عزل مثله ١٤١
الموقف الثاني عشر : جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق ١٤٢
الموقف الثالث عشر: أعطه حقه وإلا أذنت ١٤٣
الموقف الرابع عشر: العدل عمود السلطان وقوام الأديان ١٤٦
الموقف الخامس عشر: لا أسمع بأحد أفسد في أرض بعد اليوم ١٤٦

الجهاد في سبيل الله

مواقف الصالحين

الموقف الأول: كلاكما قتله ١٥٦
الموقف الثاني: إن أمرنا يطول مع هؤلاء ١٥٦
الموقف الثالث: ننشدكم الله من هذا؟ ١٥٨

الموقف الرابع: ما نعلم فى الإسلام مثله ١٥٩
الموقف الخامس: أنا زوجتك الخالدة ١٦٠
الموقف السادس: ليلة بكى فيها الأسد ١٦٣
الموقف السابع: موقف لأهل الإسكندرية فى صد حملة صليبية ١٦٧
الموقف الثامن: لو لم يكن له فى التاريخ إلا هذا لكفاه ١٧٠

الأخوة فى الله

الموقف الأول: ما استطعت أن أنظر إليك ١٨٥
الموقف الثانى: انطلق إليه ١٨٥
الموقف الثالث: أبكي لأنى لم أتفقد حاله ١٨٥
الموقف الرابع: أيما أحب إليك؟ ١٨٦
الموقف الخامس: من يريد منكم الحج؟ ١٨٦
الموقف السادس: كيف أشكر هاتين الرجلين؟ ١٨٧
الموقف السابع: هذا من شرطى ١٨٧
الموقف الثامن: هذه أخرى يا أبا عبيد ١٨٧
الموقف التاسع: مات فى البلد الليلة رجل من أهل الجنة........ ١٨٨
الموقف العاشر: أواسيك فى الحفاء ١٨٨
الموقف الحادى عشر: نفسى ما تسامحنى بهذا ١٨٨

الكرم

مواقف الصالحين

الموقف الأول: لو كنت ذكرتنى لفعلت ٢٠٠
الموقف الثانى: لم نكن لنأخذ شيئًا قد أعطيناه ٢٠٠

الموقف الثالث: والله لأعلمن الشيطان أنى عدوه ٢٠١
الموقف الرابع: لو بدأت بى لأتعبتهما ٢٠١
الموقف الخامس: كم أملت امرأتك أن يكون رزقك؟ ٢٠٢
الموقف السادس: أسألك أن تقبل هذه الدراهم ٢٠٣
الموقف السابع: لقد رأينا من برك ما أعجبنا ٢٠٤
الموقف الثامن: لا أدرى أى هؤلاء أسخى ٢٠٥
الموقف التاسع: إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك ٢٠٦
الموقف العاشر: لقد قرب الله عليك الخطوة ٢٠٦

الحلم

مواقف الصالحين

الموقف الأول: إنى أحب أن يغفر الله لى ٢١٩
الموقف الثانى: خذ العفو وأمر بالعرف ٢١٩
الموقف الثالث: اشهدوا أنه حر ٢٢٠
الموقف الرابع: ما حملك على ما صنعت؟ ٢٢٠
الموقف الخامس: إن كنت صادقًا فغفر الله لى ٢٢٠

الحياء

مواقف الصالحين

الموقف الأول: أى رب ألا أستحييك؟ ٢٢٦
الموقف الثانى: ملائكة الرحمان تستحى من عثمان ٢٢٦
الموقف الثالث: والله ما دخلته حياء من عمر ٢٢٧
الموقف الرابع: ألا أخبرك عن النفر الثلاثة؟ ٢٢٧

العفاف

مواقف الصالحين

الموقف الأول: حب يقود إلى خير وإحسان ٢٣٦
الموقف الثاني: إنا نشم منك رائحة المسك ٢٣٧
الموقف الثالث: القتل أهون عليّ من خيانة أخي ٢٣٧
الموقف الرابع: يا بني ما قصتك؟ ٢٣٨
الموقف الخامس: أنتم معاشر العباد مثل القوارير ٢٣٩
الموقف السادس: الراهبة والفقيه ٢٤١
الموقف السابع: هل لك في فراش وطي؟ ٢٤٢
الموقف الثامن: اللهم ردها إلى حالتها ٢٤٢
الموقف التاسع: إني أخاف الله رب العالمين ٢٤٣
الموقف العاشر: والله ما يرانا إلا الكواكب ٢٤٣
الموقف الحادي عشر: لا تحرقيني ونفسك بالنار ٢٤٤
الموقف الثاني عشر: استحييت مما سمعت منها ٢٤٥
الموقف الثالث عشر: إني أخاف الله رب العالمين ٢٤٦
الفهرس ٢٤٩